

كتاب الهلسا كين

إلى صاحب المساكين: لقد جعلت لنا شكسيير كما للإنجليز شكسيير، وهيجو كما
للفرنسيين هيجو، وجوته كما للألمان جوته

شيخ العروبة: أحمد زكي باشا

تأليف
مصطفى صادق الرافعي

قدم له

محمد سعيد العريان

عرض ودراسة

عادل عبد المنعم أبو العباس





للنشر والتوزيع والتصدير

ناقضتك على الفكر العربي
والعالمي من خلال ما تقدمه
لك من روائع الفكر العالمي
والكتب العلمية والأدبية
والطبية ونوادير التراث
واللغات الحية. شعارنا:
قدم الجديد...

يسعركم نخيصة

يشرف عليها ويديرها

مهندس

مصطفى عاشور

٢٦ شارع محمد فريد - القرنة - مصر الجديدة - القاهرة
تليفون: ٢٤٧٨٤٤٤٤ - ٢٤٧٨٤٤٤٤ فاكس: ٢٤٧٨٤٤٤٤
Web site: www.ibsina-eg.com
E-mail: info@ibsina-eg.com

جميع الحقوق محفوظة للنشر

لا يجوز طبع أو نسخ أو تصوير أو
تسجيل أو اقتباس أي جزء من
الكتاب أو تخزينه بأية وسيلة
ميكانيكية أو إلكترونية بدون إذن
كتابي سابق من الناشر.

مصطفى صادق الرافعي، مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد

ابن أحمد، ١٨٨١ - ١٩٣٧

كتاب المساكين/ تأليف: مصطفى صادق الرافعي، تقديم: محمد
سعيد العريان، عرض ودراسة: عادل عبد المنعم أبو العباس.

ط١- القاهرة: مكتبة ابن سينا، ٢٠١٦

٢٢٤ ص، ٢٠ سم

تدمك ٢ ١٦١ ٤٤٧ ٩٧٧ ٩٧٨

١- المقالات العربية.

أ- سعيد العريان، محمد سعيد العريان، ١٩٠٥ - ١٩٦٤ (مقدم)

ب- أبو العباس، عادل عبد المنعم (دارس)

ج- العنوان.

٨١٤

رقم الإيداع: ٢٠١٦/١٤١٧٤

التقديم الدولي: 2-161-447-977-978

تصميم الغلاف: إبراهيم محمد إبراهيم

الإخراج الفني: وليد مهني علي

تطلب جميع مطبوعاتنا بالملكة العربية السعودية من

مكتبة الساعي للنشر والتوزيع

ص ب ٥٠٦٤٩ الرياض ١١٥٣٣ - هاتف: ٤٣٥٣٧٨ - ٤٣٥١٩٦٦ - ٤٣٥٩٠٦٦

فاكس: ٤٣٥٥١٤٥ جوال: ٠٥٥٠٦٧١٩١٧

E-mail: alsaa99@hotmail.com

مطابع العبور الحديثة - القاهرة

تليفون: ٤٤٨٩٠٠١٣ فاكس: ٤٤٨٩٠٥٩٩

تقدم

لحميد لله على نعمة اللغات،
والصلاة والسلام على من قدرنا
لله به إلى السلام، وعلى الله
وأصحابه أجمعين.

وبعد



فهذا أثرٌ من آثار أديب العربية
الكبير "مصطفى صادق الرافعي"
سمّاه "المساكين"، تمّ تأليفه في
٣٠ ديسمبر ١٩١٥م، وأدخله إلى

المطبعة دون أن يعرف موعد صدوره، ثمّ لاح له - على ما يبدو - أن
يزيد عليه قِصلاً في ٢٨ مارس ١٩١٦م، ورُبما كان قد دفع به إلى
المطبعة ناقصاً على أن يكمله أثناء الطبع، وهذا ممكِنُ الحدوث في
المطابع القديمة، على أنّ الكتاب لم يصدُر إلا في عام ١٩١٧م، وهو
يضمّ ثمانية فُصول.

والغرض من تأليف كتاب "المساكين" - على ما يصرّح به الرافعي
نفسه - هو الكتابة عن الفقر لا من أجل مَحْوِه، بل في سبيل الصبر عليه،
والعزاء عنه، والكتابة عن "الفنى" من أجل إصلاح ما يفهمه منه غيرُ
أهله، ينطلق الأديب الكبير من أفقٍ إيمانيّ لتفسير شيءٍ من حكمة الله،



خاصًا على عزة النفس، والثقة بالله، والصبر على الفضيحة، وانتزاع الوهم التاريخي القديم الذي نشأ منه معنى "الغنى والفقر".

وقد استند "الرافعي" الكلام في الكتاب إلى رجلٍ اسمه "الشيخ على" رأى فيه "الجبَل المتمرّد البازِخ الأشم في هذه الإنسانية المسكينة". ويؤكد "الرافعي" أن شخصية "الشيخ على" شخصية حقيقيّة من قريةٍ مصريةٍ تُدعى "منية جناح" من أعمال مركز دسوق، وقد توفى سنة ١٩١٩م، أي بعد صدور الكتاب في طبعته الأولى بعامين.

لقبته "الرافعي" مُعدّمًا وحيدًا هزيلًا مشردًا، إذا جاع نزل أول دارٍ تلقاه، فتناول ما يُمسيك رَمَقَه، وإذا نعس توسّد ذراعُه حيث أدركه النوم، في الدارِ أو في الطريق، كان يعيش فوق آمال الناس والحياة، وعنده خلٌّ لكلِّ مشكلاته.

ووصفه "الرافعي" بأنه "رجلٌ كأنه فُطِعةٌ من الأبد، لا أمس له يتعقبه، ولا غد له يترقبه، بل الحياة عنده يقظةٌ طويلة، والموت نَوْمٌ أطول". وقد أراد "الرافعي" أن يجيء كتاب "المساكين" صدى لأفكار هذا الشيخ الفيلسوف ناطقًا بلسان الرافعي الأديب.

وقد لفت الأستاذ "كمال يوسف الحاج رحمه الله" الأذهان - وهو على حق - أن "الرافعي" قلّد كبارَ عباقرة العالم، الذين وضعوا أفكارهم على لسان أبطالٍ يتخيّلونهم أو يأخذونهم من دائرة الواقع "فيتخذونهم أبواقًا ينفخون بها لوامع أرواحهم وبوارق أفكارهم".

ويستشهد "كمال الحاج" على صحة ما ذهب إليه بأفلاطون الذي اتخذ "سقراط" بطلاً لمحاوراته.

بينما يرجح الدكتور "الجوزو" أن الرافعي قلّد "نينتشه" بالذات، حيث

جعل من "زرادشت" مثالَ الإنسانِ الأعلى، علماً بأنَّ الرافعي مُطَّلِعٌ على كتابات الفيلسوف الألماني.

وكتاب "المساكين" في مجمله تضم فصوله ثلاثة فنون:

١- حواراتٌ فلسفيةٌ بحثتَ تجرى بين "الرافعي" و"الشيخ علي" كما في فصل "الفقر والفقير" الذي يتناولُ مواضيعَ: الطمع، والفقر، والحياة، والموت، والبخل، والنظام الاجتماعي، وقُضِلَ لؤم المال ووهم التعاسة الذي يتناول المتكبرين والبخلاء والطامعين.

٢- قصصٌ أخلاقيةٌ تتضمن وعظاً واعتباراً، ومنها قصة "مسكين ومسكينة"، وقصة "سحق اللؤلؤة" وغيرها.

٣- خواطر وتأملات في الحياة والموت، والفرح والحزن، والنقص والكمال، والإيمان والإلحاد... الخ

وسوف أدعُ بقية التفاصيل، لتلميذ الرافعي وصديقه، الأستاذ الأديب "محمد سعيد العريان"، الذي صدَّرَ بعض الطبعات القديمة بكلمة تنم عن معرفة دقيقة بأدب "الرافعي" وكتاباته وهذا التصدير خلت منه الطبعات التي أخرجها بعض الناشرين وذكرنا لها مما يميز طبعتنا هذه، ويجعلها تضع أمام المطلع على أدب "الرافعي" شهادة تلميذ لأستاذه، وهذا التلميذ، ليس يكرهه، بل هو أديبٌ فإقه، كان كل من درَّس الرافعي عالماً على كتاباته، رحم الله الرافعي، ورحم تلميذه وصديقه الحميم "محمد سعيد العريان" متمنياً للقارئ التمتع بأدبٍ راقٍ، وبأسلوب مشوّق يجده في كتابات "الرافعي" ومؤلفاته. والله الهادي إلى سواء السبيل

عادل عبد المنعم أبو العباس

obeikan.com

فاتحة^(١)

محمد سعيد العريان

كان الرافعى - رحمه الله - شاعر النفس، مرهف الحس، رقيق القلب، قوى العاطفة. يرى المنظر الأليم فتنفعل به نفسه وينتحرك خاطره وينفطر قلبه؛ وتقص عليه نبأ الفاجعة فلا تلبث وأنت تحكى له أن تلمح فى عينيه بريق الدمع يحبسه الحياء. ولقد كان الرافعى يقرأ فيما يرد إليه من بريد قرائه كثيرًا من المأسى الفاجعة يسأله أصحابها الرأى أو المعونة، فما يقرؤها إذ يقرؤها كلاما مكتوبًا، ولكنها تحت عينيه حادثة يشهدها ويرى ضحاياها، فما تبرح ذاكرته من بعد إلا مع الزمن الطويل.

ولقد وقعت الحرب العالمية الأولى واستعرت ناراها فى الميادين البعيدة، لا يبلغ إلينا منها نارٌ ولا دخان ولا يراق دم، ولكنها أرسلت إلى مصر الفقر والجوع والغلاء، فما كان ضحاياها فى مصر بالجوع والمترية أقل عديدًا من ضحاياها هناك فى الميدان...

كيف كان يعيش العامل المسكين فى تلك الأيام؟ رباها! إننى ما أزال أذكر يوم أرسلنى والدى - وأنا غلام بعد - أستدعى النجار لعمل عندنا، فوجدته جالسًا فى أهله يأكلون. كانوا ستة قد تحلّقوا حول قصعة سوداء فيها كومة من فُتات الخبز إدامه الماء، تتسابق أيديهم إليه فى

(١) انظر كتاب "حياة الرافعى" لمحمد سعيد العريان



نهم كأنما يخشى كل واحد أن تعود يده إلى القصة بعد الأوان فلا يجد
اللقمة الثانية...

هكذا كان يعيش نصف الشعب في تلك الأيام السود، مما فعل القحط
والغلاء، لأن أقوات الشعب قد حُملت إلى الميدان لتخزن في دار المؤمن
وقبلاً ما لتقذفها من بعدُ قنابلُ المحاربين وتذروها رمادا في الهواء...
ونظر الرافعي حواليه فارتد إليه البصر حسيراً مما يرى ويسمع،
فاحتبس الدمع في عينيه ولكن قلبه ظل يتحدث بمعانيه...

ومضى عام وعام والحرب ما تزال مستعرة، واليأس تتعدد ألوانه،
وتتشكل صورته، وتحتشد آثاره والرافعي دائم الحديث إلى نفسه وهو
يحمل من هم الشعب في قلبه الكبير، حتى امتلأ الإناء يوماً ففاض...

في بعض اللحظات التي تفيض فيها النفس بالألم، يحس الإنسان كأنه
شئ له في نظام الكون إرادة وتدبير، وأن من حقه أن يقول للمقدور:
لماذا أنت في طريقى...؟ فتراه في بعض نجواه يتساءل: ربّ، لم كتبت
على هذا...؟

لماذا حكمت بذلك...؟ لماذا قدّرت وقضيت...؟ ما حكمتك فيما كان...؟
ألم يكن خيراً لو كان ما لم يكن... ثم يتوب إلى نفسه ويفيء إلى
الحق، فيعود معتذراً يقول: ربّ، لقد ظهرُ حكمك؛ ودقت حكمتك، فمغفرة
وعفوا...!

وتنزل حكمة الله مطوية في ظلمات الغيب، لا يتنورها إلا من غمره
شعاع الإيمان وسطع في قلبه نور الحكمة، أما الذين تعبدتهم شهوات
أنفسهم فهم أبداً في حيرة وضلال.

في لحظة من تلك اللحظات، أغمض الرافعي عينيه وراح يفكر، وفي

كتاب المساكين

رأسه خواطر يموج بعضها فى بعض، ثم فاءت نفسه، فرفع رأسه وهو يقول: ربِّ، ما أدقَّ حكمتك وأعظم تدبيرك...!" وأفاض الله عليه ورفع عن عينيه الغطاء...

وعاد ينظر إلى الناس يأكل بعضهم بعضاً، ويسرق بعضهم أقوات بعض، ويتزاحمون على الحياة فيسارعون إلى الموت، فدمعت عيناه ولكنه كان بيتسم، وعاد يقول: حكيمٌ أنت يارب! ليتهم وليتنى... ليتهم يعلمون شيئاً من حكمة الله فى شيء من أغلاط الناس!... كل شيء فى هذا الكون العظيم يجرى على قدر منك وتدبير حكيم!"

ثم شرع يؤلف كتابه "المساكين".

أخرج الرافعى كتابه هذا فى سنة ١٩١٧، وهو الكتاب الرابع مما ألف فى المنشور، وثانى ما ألف فى أدب الإنشاء، ويعرّف به الرافعى فى الصفحة الأولى منه فيقول: هو كتاب "أردتُ به بيان شيء من حكمة الله فى شيء من أغلاط الناس..."

وقدم له بمقدمة بليغة فى معنى الفقر والإحسان والتعاطف الإنسانى يقول فيها:

"هذا الكتاب حاولت أن أكسو الفقر من صفحاته مَزْجعة جديدة... فقد والله بليت أثواب هذا الفقر، وإنها لتندسل على أركانه مرقاً مهتذلة يمشى بعضها فى بعض، وإنه ليَلْفُفُهَا بخيوط من الدمع، ويمسكها برُقْع من الأكباد، ويشدها بالقطع المتنافرة من حسرة إلى أمل، وأمل إلى خيبة، وخبية إلى هم، وأقبح من الفقر ألا يظهر الفقر كاسياً أو تكون له زينة إلا من أوجاع الإنسانية، أو المعانى التى يتمنى الحكماء لو أنها غابت فى جماجم الموتى الأولين..."



وللكتاب فصول شتى، ليس له وحدة تربط بين أجزائه إلا أنه صور من آلام الإنسانية كثيرة الألوان، متعددة الظلال، تلتقى عندها أنة المريض، وزفرة العاشق، ودمعة الجائع، وصرخة اللفهان المستغيث، فهنا صورة "الشيخ على" الرجل الذي يعيش بطبيعته فوق الحياة وفوق الناس، لأنه يعيش في نعمة الرضا، وإلى جانبه قصة الغنى الذي حسب أنه سيطر على الحياة لأنه ملك المال، وهذه صاحبتة الصغيرة التي انتشلها الشيخ بماله من الفقر الجائع، فوهب لها المال ولكنه سلبها نعمة الشعور بالحياة، وهذا... من صور المساكين الذين يعيشون يحتسون الدموع أو يتطهرون بالدموع!

وأول أمر الرافعى فى تأليف كتاب المساكين أنه كان فى زيارة أصهاره فى "منية جناح" فلقى هناك الشيخ على؛ والشيخ على هذا رجل يعيش وحده، ليس له جيب يمسه درهم، ولا جسد يمسه ثوبًا، ولا دار تؤويه ولا حقل يغل عليه، يجوع فيهبط على أول دار تلقاه، يتناول ما يمسه رمقه، ويدركه النوم فيتوسد ذراعه حيث أدركه النوم من الدار أو الطريق. رجل يعيش بطبيعته فوق كل آمال الناس، وآمال الحياة، ولقيه الرافعى واستمع إلى خبره، فعرف من فلسفته فلسفة الحياة، ووجد عنده الحل لكل ما فى نفسه من مشكلات، فكان هذا الكتاب من وحي الشيخ على الفيلسوف الصامت فى الرافعى الأديب، واجتمعت له مادة الكتاب فى مجلس واحد لم ينطق فيه أحد بكلمة، ويصف الرافعى الشيخ على فيقول:

"... هو حليم لنفسه، غضوب لنفسه، وكذلك هو فى الخفة والوقار، والضحك والعبوس، والزهو والانقباض، وفى كل ضدين منهما لذة وألم، كأنه جزيرة قائمة فى بحر لا يحيط بها إلا الماء؛ فلا صلة بينهما فى المادة

وإن كانت هي فيه؛ فالناس كما هم وهو كما هو بيرونه من جفوة الزمان أضعف من أن يصاب بأذى، يرى نفسه من دهره أقوى من أن يصيب بأذى؛ ويتحاشونه رافة ورحمة ويتحامهم أنفة واستغناء، ثم إن مسه الأذى من رقيق أو سقط أحسن إلى الفضيلة بنسيان من أساء إليه، فيألم وكأن ألمه مرض طبيعي؛ ولا فرق عنده في هذه الحال بين أن يمغص بطنه بالداء أو يمغص ظهره بالعصا؛ وهو والدنيا خصمان في ميدان الحياة؛ غير أن أمرهما مختلف جدا، فلم تقهره الدنيا لأنه لم يطمع إليها ولم يقع فيها، وقهرها هو لأنها لم تظفر به...

"... وهو رجل سدت في وجهه منافذ الجهات الأربع كلها إلا جهة السماء، فكأنه في الأرض بطل خيالي يرينا من نفسه إحدى خرافات الحياة، ولكنه مع ذلك يكاد يخرج للدنيا تلك الحقيقة الإلهية التي لا تغدوها مادة الأرض ولا مادة الجسم، فهي تزدري كل ما على الأرض من متاع وزينة وزخرف، وكل ما ردت عليك الغبطة من بسطة في الجسم أو سعة في المال أو فضل في المنزلة، وكل ما أنت من إقباله على طمع ومن فوته على خوف..."

"... فهو من أجهل الناس في الدنيا وأجهل الناس بالدنيا... وأنت إذا سطعت له بالجوهرة الكريمة النادرة فلا يعدو أن يراها حصة جميلة تتألق. وإن هَوّلت عليه بألوان الخز والديباج حسيك مائقا لم ترقط نضارة البرسيم وألوان الربيع..."

هذا هو الشيخ على الذي أوحى إلى الرافعي كتاب المساكين ونسب إليه القول فيه ورده إلى إلهامه، وهو عنده النموذج الكامل للرجل السعيد والفيلسوف الصحيح.

وقد فرغ الرافعي من كتاب المساكين في سنة ١٩١٧؛ وفرغ الشيخ



على من دنياه بعد ذلك بقليل، ولكن روحه ظلت تعمل فى نفس الرافعى وتملى عليه وتلهمه الرأى إلى آخر أيامه بعد ذلك بعشرين سنة؛ والواقع أن الرافعى كان يؤمن بفلسفة التسليم والرضا فيما لا طاقة له به، إيماناً كان مادة حياته ونظام عمله. وإيمانه ذلك هو الذى كان يفيض عليه أمارات المرح والسرور حتى فى أعصب أوقاته وأحرج ساعاته، فكنت لا تراه إلا مبتسماً أبداً ضاحكاً ضحكة السخرية والاستسلام.

كتاب المساكين الذى يقول عنه المرحوم أحمد زكى باشا:

**"لقد جعلت لنا شمسبير كما للإنجليز شمسبير، وهيجو
كما للفرنسيين هيجو. وجونه كما للألمان جونه".**

... وهو كتاب اجتمع على إخراجه سببان: أهوال الحرب التى حطت على مصر بالجوع والقحط والغلاء، والشيخ على الجناحى.

محمد سعيد العريان



وأخلاق هيبه الخلق
كفحة من كمال النبوة

كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يقول في بعض دُعائه:

«اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَسْكِينًا وَأَمِتْنِي مَسْكِينًا
وَأَحْشُرْنِي فِي رُفْزَةِ الْمَسَاكِينِ»^(١). فقال له
أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

« يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ لَتُكْتَرُ مِنْ هَذَا
الدُّعَاءِ » قال: يَا أَنَسُ: «إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ لَا
تُفَارِقُهُمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ»^(٢). وَحَيَّرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثْلُ أُحُدٍ^(٣) ذَهَبًا فَقَالَ:
«لَا يَارَبِّ، أَجُوعُ يَوْمًا فَأَدْعُوكَ، وَأَشْتَعُ يَوْمًا
فَأَحْمَدُكَ»^(٤).

(١) الحديث صحيح: أخرجه الترمذي في الجامع الصحيح وقال: حسن صحيح و صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير.

(٢) ذلك بأنهم مادة الأخلاق والعواطف، فهم في الإنسانية كالجيش يقذف به في المهالك لأنه وحده مادة النصر، وعلى هذا فمن رحمة الله بالناس أنهم في الناس.

(٣) جبل بالمدينة.

(٤) الحديث صحيح، متفق عليه البخاري ومسلم.



صفة من الحكمة

قال الفيلسوف ديوجينيس الكلبى:
وهو ذاك الذى رآه الإسكندر الأكبر فقال
فيه "لو لم أكن الإسكندر لوددت أن أكون
ديوجينيس:-"

"ينبغى أن نقدر ثروة الإنسان لا
بأمواله ومستغلاته، بل بعدد
الاشياء التى يستطيع أن يعيش
غير محتاج إليها"^(١).



(١) يريد الفيلسوف أن ما نملكه فى الحقيقة هو ما نملك أن نستغنى عنه، لأن ما نحتاج إليه يصرفنا فى وجوه وأسبابه فهو يملكننا مصلحا إن قل ومفسداً إن كثر، وعلى أيهما فهو شاغل عن الإنصراف إلى سواه بالإنصراف إليه. وحكمة الفيلسوف تنظر إلى المأثور: "القناعة كنز" ومن بديع قول هذا الحكيم: يكون الأسد حبيسا فى قفصه، ولكن الحبس لن يجعله عبداً لمن يطعمه.

لما أجمعتُ النيةَ على طبع هذا الكتاب طبعته الأولى، رأيت فيما يرى النائم أنى فى دار الطبع التى اخترتها له وقد سألتنى جامع الحروف أن أكتب المقدمة ليبدأ منها، فكتبتها ثمّة ودفعتها إليه، ثم استيقظت وما برحت تدور على لسانى، وتالله إن حَزَمْتُ^(١) منها حرفاً، وهذه هى بنصها وكأنها فاتحة الكتاب من قلم الغيب:

"هذا كتاب المساكين، فمن لم يكن مسكيناً، لا يقرؤه لأنه لا يفهمه"^(٢)،
ومن كان مسكيناً فحسبى به قارئاً
والسلام".

الراضى

(١) أى ما نقصت.

(٢) قل أن يوجد فى أهل الفهم رجل واحد لا تفهمه طبيعة الحياة الدنيا أنه مسكين.

obeikan.com

مقدمة الطبعة الأولى

هذا كتاب حاولت أن أكسو الفقرَ من صفحاته مَرَفَعَةً جديدة... فقد والله بليث أثواب هذا الفقر وإنما لتسدل على أركانه مِرْقًا متهدلة^(١) يمشى بعضها في بعض، وإنه ليلفقها^(٢) بخيوط من الدمع، ويمسكها برقع من الأكباد، ويشدُّ بالقطع المتنافرة من حسرة إلى أمل، وأمل إلى خيبة، وخبية إلى هم، وأقبح من الفقر أن لا يظهر الفقر كاسيا أو تكون له زينة إلا من أوجاع الإنسانية أو المعاني التي يتمنى الحكماء لو أنها غابت في جماجم الموتى^(٣) الأوَّلين.

وأنت فربما رأيت الرجل من الناس وبه من جمال الدنيا مَسْحَةٌ الدينار، وعليه من نضرة هذه الحياة ألوان الجنة والنار...^(٤) وما تشك في أنه واسع البسطة، عريض النعمة، طيب المِيسبة، وهو على ذلك رقعته خَلق^(٥) في أذيال الفقر يجزرها على أقدار الحياة وأدناسها، ولو نطق له الغنى لقال: دعنى، فما كل ذي مَتربة فقير، ولا كل ذي مَثْراة غنى^(٦)، والفضائل قائمة في الدنيا بالصغار والفقراء، ولكن من نكد الدنيا أن عنوانها هم الكبراء وحدهم؛ على أن أكثر هؤلاء لا تكون منهم في كل

(١) أى قطعاً مسترخية.

(٢) لفق الثوب: ضم شقة منه إلى شقة.

(٣) أى الأفكار الساقطة، مما هو مبعث الجريمة والذيلة.

(٤) كناية عن الأعمال التي تؤدي إليهما معا.

(٥) بالية، والكلمة للمؤنث والمذكر.

(٦) المَثْراة: ما يكون سبباً لتكثير المال.



أمة إلا الطبقة المنحطة انحطاطًا.. عاليًا.. فالناس مخطئون فيما اعتبروا به معنى الفقر إذ حاصروه من جهاته الأرضية وقد ترامت، وضيقوا من حدوده السماوية وقد تراحت^(١)، وإنما هو طبقة معنوية فوق الأرض؛ وإنما هو أسلوب خاص فى نظام الكون، ولا سبيل إلى التنقيح والتحرير فى أساليب الله نصرها عن معانيها أو نتكذب فى تأويلها، أذ نرد عليها ما ليس منها، وإنما الشأن كله أن نحسن الفهم عن أوضاع القدرة الإلهية بمقدار ما نستبين فيها من الحكمة، فإن فى ذلك صلاح أنفسنا، وما جعل الله فى سبيل المصلحة والمفسدة إلا من أفهامنا، حتى إن الأدمغة لتعد من أكبر العلل فى أمراض التاريخ الإنسانى، وربما كانت العلة الكبرى فى طائفة من الطوائف صورة أثرية لأكبر رأس فيها!

فإن نحن أسأنا الفهم أو ذهبنا به المذهب أو أفسدنا من تأويل حكمة الله أو غيرنا أو بدلنا. فذلك واقع بنا لا يعدونا، وما يستولى على الكون من جهلنا اضطراب ولا تلحق به آفة فى وضع من أوضاعه، وإن الله لا يظلم الناس شيئًا ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

وما دام فى هذه الدنيا شىء من المادة أو المعانى يُحتاج إليه أو يتوهم أحد أنه محتاج إليه، ففى الدنيا الفقر.

وما دام للناس رغبة يتنافسون فيها أو يرفعون من شأنها بالمنافسة، فثمَّ الحسد.

وما دام فى الغيب أيام وآمال وفى الدنيا فقر وحسد، فهناك الطمع. وما دام لهؤلاء الناس من أشيائهم ما تحملهم أخلاقهم على الضنَّ به، أو يكون سبيلُه من الطبيعة أن يُضنَّ به، وفيهم الفقر والحسد والطمع،

(١) ترامت وتراحت: بمعنى اتسعت.

فَتَمَّ خبءُ السوء والرذيلةُ الماحقة وتَمَّ البخل؛ وإن البخل وحده لفي حاجة إلى نبي يُصلحه!

هذه أخلاق أعرقَتْ فيها الإنسانية ولا بد منها ومن فروعها حتى يَظَلَّ الناسُ ناسًا لا ملائكة ولا شياطين، فإن من عجيب حكمة الله أنه لا صلاح للعالم إلا بالفساد الذي فيه.

يَبْدُ أن في كل شر جهة من الخير أو جهة تتصل بالخير، فإذا صلَح فهُمَه صلح هو أيضًا أو كأنه صلح لظهور حكمته والوقوف به عند حد الشر الطبيعي، وهو الشر الذي لا بد منه.

فليكن الفقرُ والحسدُ والطمعُ والبخلُ، ولكن برِضًا يَمْنَعُ السَخَطُ، وسكونٌ يكسر شِرَّةَ النفس، ورفقٌ لا يَعْتَفِ على الحق، واعتدالٌ يُقَرِّ كل شيء على حدِّه^(١)، يومئذ يجد الإنسان في كل نزوة من نزوات جنونه شيئًا من الحكمة، أو على الأقل شيئًا يمكن من بعض الوجوه أن يسمى في باب المنفعة الإنسانية: حكمة.

ولقد كان الفقرُ غريبًا يوم كان أدُم في الأرض وليس عليه إلا ما حَصَف من ورق الجنة^(٢)، وعاش دهرًا تحت السماء يلبس من ضياء كل كوكب ويمرُح في ثياب بيضاء من أشعة القمرين؛ إذا لم يكن يعرفه أحد بعدُ ولا استطار به سَماعُ السوء^(٣) في الأحياء، بل كان غُنصرًا مجهولًا في غيث الطبيعة، ولم يكن لهذا الإنسان يومئذ من المعانى الفقرية... غيرُ شعور طبيعى لا رُيع في تأويله عن الطبيعة، وهو شعور المعدة القوية

(١) عندنا أن الفضائل شهوات محدودة، والرذائل شهوات مطلقة، وأن السعادة الممكنة أن نجعل كل شيء في حده.

(٢) حصف الورق على بدنه: ألزقها وأطبقها عليه ورقة ورقة.

(٣) أى الذكر بالسوء.



المعصوبة التي لا تحتمل الشعز والخيالَ وفنونَ الكذب العقلي، ولا تشعر إلا لتطلب، ولا تطلب إلا ما تجد، ومتى وجدت وانظفأ نهمها^(١) فليس إلا قوة الجسم وانبساط النفس وحمد الله في كل ضربٍ من ضروب الجمال في الخليفة.

ثم كانت عداوةُ ابني آدمَ إذ قَرَّبَا قُرْبَانَا فَتُقْبَلُ من أحدهما ولم يُتَقَبَّرُ من الآخر، وفتحت الصفحة الأولى من تاريخ الدم الإنساني في الأرض، فكان البغضُ أول سطورها، وجاء من بعده الفقر، وحُطَّت بعد ذلك سطورُ وسطور كلها يلتقى إلى هذين المعنيين، يومئذ عَرِفَ هذا الفقرُ وأصبح يتلبس في كل إنسان بمعنى يُلائمه، إذا لم تعد الحياةُ هي الحياة بل الوسائل التي يُدفع بها الموت، ومنها المؤت نفسه، فصار البغضُ وسيلة، والحسد وسيلة والطمع وسيلة، والقتل وسيلة، وكل ذلك لأن الإنسان فقير بمعنى من معاني الفقر، وما البغضُ إلا فقر من المحبة، ولا الحسدُ إلا فقر من الثقة، ولا الطمعُ إلا فقر من العقل.

وإن أردت العجب فاعجب لهذه الطباع الإنسانية إذ يحاول كل امرئ أن لا يفهم من معنى الفقر إلا ما يمكن أن يُجْرِيَهُ على الناس كافة، حتى لا يكون هو وحده المبتلى في نفسه الممتحن في سعادته، وحتى يجد مادة الغزاء من حيث التمسها، فالفقر على ذلك هو العوزُ إلى المال، وهذه بلية عليها يحيا الناس وعليها يموتون، ولقد كان الفقر قبل أن يكون المأل، ثم وَجَدَ المألُ فما مَنَعَ أن يُلْفَى أهله الأغنياء من هموم الدنيا وبأساء الحياة ما لو استطاعوا لافتدوا من عذابه بكل ما في أيديهم ولو أن لهم طلاع

(١) التهم: إفراط الشهوة في الطعام

الأرض^(١) ذهباً، ووجد المال فما مَتَعَ الفقراءَ أن يُخَوِّلَهُم اللهُ من رحمته التي لا تفرقهم طرفة عين ما لا يحبون أن لهم به من الدنيا ولا الدنيا كلها^(٢).

دخل بعضُ الفقراءِ^(٣) على الرشيد العباسيِّ وتاجُهُ يومئذُ سبيكة العصر الذهبىِّ فى تاريخ الإسلام، والإسلامُ يومئذُ ترتجفُ به دِقَّتَا الشرق والغربِ وكأنَّ الشمسَ والقمرَ يتألَّانِ على أرجاء ملكه ذهباً وفضة^(٤)، وكان فى يد الرشيد كأسُ ماء وقد رفعها إلى فمه، فلما أبصر ذلك الملك الذى لا يملكه شىء أمسك ثم قال له: عِظْنِي! قال، أَرَأَيْتَ يا أمير المؤمنين لو مُنعتُ عنك هذه الشربة التى فى يدك، أفكنت تطلبها بكل ملكك؟ قال: نعم! قال: أفرأيتَ لو شربتها ثم امتنع خروجُها منك، أكنت تفتدى من عاقبة ذلك بكل ملكك؟ قال: نعم! قال الرجل الصالح: فانظر يا أمير المؤمنين، ما قيمةُ ملك لا يساوى عند الله شربةً ولا... ولا بؤلة...!

كذلك يحاول الناس أن لا يُخَطِّئُوا الرأى فيما يَسْتَحْتَوْنَهُ أو يطمئنون به وكانهم لذلك يحاولون أن لا يصيبوا الحقَّ فيما يكرهون أو ينفرون منه، فكلهم سواءٌ فى ابتغاء السعادة المتوهِّمة التى لا يستحيل أن تتفق، ولكنها مع ذلك لا تتفق، إذ يريدونها كلُّ امرئٍ على غير ما يناسبُ تكوينه الإنسانى... وهم بعدُ على سواءٍ من خشية الفقر، كأن فقرهم بين أعينهم،

(١) أى ملء الأرض

(٢) كانت معدة مورغان* الأمريكى صاحب الملايين الكثيرة ضعيفة فجعل مائة ألف جنيه لمن يشفيها ورأى الأطباء أن ينتزعوها ويبدلوه منها معدة كلب، فخشى الهلاك وأبى، فمعدت الرجل الفقير هى فى جوفه أثنى من مائة مليون جنيه فى يد ذلك المسكين، وهى الكنز لا هذا المال الذى لا يشتري معدة

(٣) هم الصوفية، ولقب الفقير أشرف ألقابهم لأنهم أهل الحقيقة

(٤) رأى الرشيد يوماً سحابة تمر فى السماء فقال: أمطرى حيث شئت فسيأتينى خراجك؛



فلا تبرح أوهامهم تنتجى^(١) بمعانيه وهمومه، ثم لا تبرح تنمى بها حتى صار الفقر فى أنفسهم غير الفقر فى نفسه، وقد علم الله أنه مامن إنسان إلا وفى تكوينه معانى كثيرة منه، على أن السعادة الممكنة أو التى يمكن أن تسمى سعادة، إنما يكون زمامها الحس، إذ هو الوسيلة لإدراك الجمال وتعزفِ المواضع المعنوية فى المادّة والاهتداء فى صنْع الله إلى أسرار الحكمة، وليس من لذه يصبها الإنسان فيسُميها لذة إلا وهى شىء معنوى يجىء من طريق الحس فيشعر هذا الإنسان أن فيه معنى لم يكن فيه وكان اتصال شىء من سرِّ النفس أو قدرتها بشىء من سر الطبيعة أو قدرتها هو السعادة.

غير أن العجيب الذى ما يُقضى منه عجا أن ذلك الحس كلما نُضج واستمر^(٢) كان أشدَّ إدراكا للآلام منه للذات، حتى إن الرجل الرقيق ليتألم للناس أكثر مما يتألم لنفسه؛ فهل ذلك إلا أن حكمة الله قد أقرت فى تركيب الإنسان من عناصر الفقر أكثر مما وضعت فيه من عناصر الغنى؟ وما أشبه نفوس الناس فى هذه الحياة بالزجاج سُلطَ عليه نورُ الشمس؛ فما كان من طبعه ردينا غير مصقول، أو مهقلا قد شاع فيه الصدا، فذلك متى أَلَحَّت عليه وقدة الجوّ حمى وتضرم فى ذات نفسه؛ وما كان من طبعه صافى الماء بادئ الرنونق نقى الصفحة، رأيتَه فى توفِّده واضطرابه كأنما يَمُجُّ من شعاع الشمس لها يتطاير؛ فإن كانت الزجاجة قد أُخْلِصت فى سبكها وصُنعت على الوجه الذى يجمع الضوء ويعكس منه وأحكمت من هذه الناحية، فهناك تبلغ من رقة الحس مبلغ

(١) أى تتناجى، ويقال: فلان فقره بين عينيه: إذا كان دائما يخشاه فلا يقنع ولا يهنأ، وهو آلام الفقر، وكثيرا ما يكون فى آلام الأغنياء..

(٢) استمر الامرأى انقاد، والمعنى الحس الكامل المطاوع

كتاب المساكين

الأنفس الرقيقة المهذبة، فلا تكادُ ترسل عليها الشمسُ من نورها حتى يرجع فيها نار تَلْطَى.

ومتى اعتبرنا الشقاء الإنساني وما يعترض الإنسانَ في طريق الحياة، رأينا الحق الذي لا مِزِيَّةَ فيه أن هذا الإنسانَ حين تمشى راحِلَتَهُ إلى القبر^(١) لا يكون قد انتهى من الحياة كما يقال. ولكنه ينتهي حينئذ من الموت.

فهذا التركيبُ الإنساني المعجزُ بقليله وكثيره وجمليته على السوِّية، والذي استشرقَ منه العقلُ لأسرار هذا العالم كما تُوجَّه مرآةُ المرْجِدِ إلى السماء لم يشهده عصر من عصور الدنيا قَطُّ إلا ذاهبًا إلى الفناء بما كسب وما اكتسب، حتى ليتمكن أن يقال إن حياةَ الحى مصيبة تكبرُ كلما كَبُرَ... فكيف لعمري يحتمل هذا التركيبُ الهالكُ أن يسعد إلا بمقدار ما يُدنى إلى الفهم معنى السعادة الأبدية التي ليست من هذا العالم، كما تريد أن تُفهم الطفل شيئًا في نفسك فيراه معنى مُتمردًا عاتبًا، فلا تزال أنت تُصعَّرُ منه وتمسخه وتُجبلُهُ عن وضعه وتقلِّبه على وجوه مختلفة، إلى أن توافق صورة من هذه الصور فهمة الصغير الضعيف المتحامل على نفسه، فيدرك الوجه الذي أردت على الوجه الذي يُريد هو، ويعلم ما ترمى إليه على الطريقة التي لا تعلمها أنت^(٢).

ولعل هذا هو السبب في أن الفطرة الإنسانية لا تزال من أول الدهر

(١) كناية عن الجنائز، ويقال من المجاز: مضيت رومله: إذا شاب وضعف، ولكنها استعملناها كما ترى

فأصابت حقها

(٢) أي تركيب وتتخذ كل معنى راحلة وظهرا، والكلام استعارة.



ضالة في طلب السعادة، تسترحل^(١) إليها كل معنى ثم لا تصل إليها بمعنى، فإن السعادة الدنيوية في التركيب الإنساني إنما هي بمقدار لغوي أو ما يشبه المقدار اللغوي لا غير.

وإذا نحن اعتبرنا هذا الوجودَ الفاني بما وراءه من عالم الغيب، رأينا كل صنف من الموجودات كأنه لغة متميزة بخصائصها أوجدها الله في هذه الحياة لتدل عليه سبحانه بنوع من الدلالة أو ضرب من المجاز، فأينما مدَّ الإنسانُ عينيه رأى لفظًا كالإشارة أو إشارة كاللفظ.

ولكن قُتِلَ الإنسانُ ما أكفره! فإن ما لا يريد أن يفهمه ليذكره ويتذكر به أكثر مما فهمه لينساه، ولقد رأى أن ما فوق الأرض وما تحت السماء لا يَدُلُّه بإشارة واحدة على أنه خالد في هذه الحياة الدنيا.

بيد أن الإنسانَ كما يكذب في الكلام يكذب في الفهم؛ فهو أبداً يحتاج- لشفقوتيه- من هذه الطبيعة إلى أشياء تُضِلُّ عواطفه، كما يحتاج إلى أشياء تهديها، ومن ههنا اقتحمت أهواؤه ونزغائه على الطبيعة وعلى الشرائع والأديان، والتبسَّتْ رأيه معاني الأشياء التي تتصل بنفسه، فظهر من الغنى ما يشبه الفقر، ومن الفقر ما يشبه الغنى، وصارت الحياة كلها جهادا وشفقاءً ونصبا، لأن المشكلَ فيها أكثر من الواضح، ولأن الطريقة التي يتبعها الإنسان الراقى... في حل هذه المشكلات التي تعترض مطامعه، وأغراضه، هي أن يحلَّ مسألة بوضع مسألة مثلها. ذلك لأنه لا يهتدى إلى الكمال في شيء، وهو ناقص ولا يُدعَى أنه ناقص، وإلا فما باله يرى الحكمة الأزلية قد جعلت قِوامَ صحته على القليل من الطعام دون الكثير،

(١) سيأتى في الكتاب رأى الشيخ على في السعادة. وفي كتابنا "حديث القمر، ورسائل الأحزان، والسحاب الأحمر" من ذلك أشياء كثيرة.

وعلى الخفيف دون الثقيل، وعلى الرخيص دون الغالي، وعلى الطعام كما يُفيد دون الطعام كما يريد، ثم هو يأبى إلا أن يعد هذه الصفات وأشباهها في باب القلّة من الفقر، ويعتبر نقائضها وما جرى مجراها في باب الكثرة من الغنى، ثم يضرب الله على بصره ويطيغ على قلبه فلا يرى لحاجته في الغنى من بلاغٍ وسبب إلا أن يكون المبالغة في الأدخار، والاغراق في الجمع، والطماخ كلّ مطمح، وأن يستأكل الناس فيكون عليهم اكل^(١) من الجوع، ويستصفّيهم فيكون فيهم أسرع من المرض ويستزلهم فيكون معهم أشبه بالزديلة، ونحن نعرف الكدّ والحرص والبخل والشرة والصرّاة وكلّ الرذائل الاجتماعية ونصفها ونحدها بآثارها وحقائقها، وكأنا لا نعرف أن كل رذيلة هي إنسانٌ من الناس وقد رأينا الحكومات تجمع الأنواع من الجماد والنبات والحيوان تؤلف منها الكتب الحية على نسق الطبيعة نفسها، وهي تلك التي يسمونها "المعارض" و "المتاحف" ولم نر حكومة واحدة أقامت معرضاً حيوانياً لأشخاص الرذائل يُدرّس فيه علمٌ مقابلة الطباع في الإنسان وبين الغرائز في الحيوان، وعلم الانحطاط الاجتماعي وفرنّ الطبقات السفلى من الحياة، وتؤخذ منه أمثلة الاعتبار والموعظة والنصيحة في أبواب مختلفة؛ ولو قد فعلت ذلك أمة من الأمم لرأى الناس فيما يرون هناك من كبار اللصوص وأهلى الإثم والشر والفساد عدداً كبيراً من كبار... من كبار الأغنياء...؛ ثم لرأوا كيف يتصل تاريخ الطمع بتاريخ البخل، وكيف يتصل هذا بتاريخ الغنى، ولظهر لهم بطلان معاني كثيرة مما يعده الناس في باب الحقائق؛ إذ لا تجد الرذيلة هناك من يكابر فيها أو يغربها أو يناضل عنها، ولا صاحبها نفسه:

(١) كلب الجوع: سعاره وشدته. واستأكل الناس: إذا أكل من أموالهم.



لأنه في فقص من أفضاص المعرض... وكأنه ثَمَّةٌ معنى من الباطل محبوبش
في شكل من البرهان على فساده!

وليت شعري- وذلك معنى الغنى- هل يَبْظَن من اجتمعت له نفقة أُلْف سنة أنه سينال فيما بقى من عمره القصير لذةً كلذة عيشه أُلْف سنة، وأنه إذا ادخر ما يقوم بمائة أُلْف إنسان فقد صار هو في الأرض مائة أُلْف بطن...؟ إن حياة الغنئ على هذا الوجه لا تكون إلا موتا على طريقة الحياة... فليس الإسراف في جمع المال والكَلْب عليه إلا طريقة دنيئة لإنفاق العمر، وليس حبُّ المال والبخلُ به إلا وجها من بغض الناس وازدرائهم" وإنما البخلُ في رأى أهله وسبلةُ الغنى وسنئه القريب، وهو مهما احتجوا له وتمحَّلوا فيه وناضلوا عليه ليس أكثر من كونه شعورا ذا جهتين: فأما من جهة البخيل فهو الحبُّ للنفس لا غير، وأما جهة النفس فهو البغض للناس لا أكثر ولا أقل!

ولأ يسرُّ على الناس أن يرتووا من رَشْح الحجرِ ويغتذوا بلبن الطير^{١١} من أن يجدوا في الرجل البخيل بغضا لشيء من المال يَرْضُحُ به محبة لهم وشفقة عليهم وحنانا من لدنه. قديما كان البخيل أبغض الناس لهم وأبغضهم إليهم وأبغضهم فيهم، وما أقبح هذا البخل- أخزاه الله- أن يكون بغضا ثلاثَ مرات.

ولو أن رجلاً من هؤلاء الذين بسطَ الله لهم فقبضوا، وجاد عليهم فبخلوا، وأعطائهم فأمسكوا- قد أراد الله به خيرا فوقاه شحَّ نفسه، ويسرُّ له في أخلاقه ومكَّن له في باب البذل والجود، وآتاه من حب الخير بعض ما ابتلاه من حب المال؛ لرأيت حياته توسعة على قوم في معاشهم،

١١ كناية عن المستحيل.

وإحياء لقوم في آمالهم، وعتادا لقوم في أعمالهم، ومنفعة لآخرين من وجوه كثيرة؛ ولرايت في غناه بركة العدل ورحمة الأمن وعصمة الخلود، فكأنه استجمع في حياته الطيبة خيرات الأعمار الكثيرة، وكأنه أمة في نفسه، ثم لا يكون رجل أحب إلى الناس ولا أجدر بطبيعة الحب الإنساني منه، ثم لا تجد اسمه إلا في واحدة من ثلاث: إما صفحة تكتبها الأعمال للتاريخ، أو صفحة يُفردُها الناس للأخلاق، أو صفحة ترفعها الملائكة إلى الله.

بل أحر بهذا الاسم الكريم أن يكون يومئذ بأعماله وآثاره وحسناته اسما لكتاب ضخم في أيدي ملائكة الرحمة.

فهذه آثار كرم النفس الطيبة لا تنشأ إلا بين نوعين من الحب: حب الرجل الكريم للناس وحب الناس لهذا الرجل الكريم؛ لا هو يَمُطِّلهم حقاً عليه، ولا هم يظلمونه حقاً له؛ ولعمري كيف يستطيع القَطْلُ أو يستطيعون والذئب الذي وجب على الفريقين هو ذئب القلب؟

وقد تكلمت السماء في أزمان مختلفة وهبط الخطاب من عرش الله على لسان الأنبياء صلوات الله عليهم، وما نبى مُرسل إلا وأنت واجد في كلامه وشريعته: أن تحب للناس ما تحب لنفسك.

فهذا الحب الإنساني محض من نصيحة السماء، ولا بدع أن يكون فيه بعض الدواء لآلام الإنسانية الضعيفة إن لم يكن هو الدواء كله.

انظر بعيشك ما عسى أن تكون آلام الفقر إلا صوراً من اضطراب النفوس إذ ينصرف بعضها عن بعض، وذلك أيسر البغض؛ أو ينازع بعضها بعضاً، وذلك سبب البغض؛ أو يكيد بعضها لبعض، وذلك عين البغض؟



من أجل هذا كان البخيل مادة من مواد الفقر وإن كان هو ذات نفسه
معنى من معانى الغنى.

ولقد يصاب الناس بألوان من العذاب، ويمتحنون بضروب من المكروه
وترسل عليهم الآفات تختلجهم من ههنا وههنا؛ غير أنهم يجدون لكل
مصيبة محلاً من الصبر يُمسونها فيه، فتجىء وحدها وتذهب وحدها
"وإنما هي الغمراة ثم ينجلين؛ فإن من رحمة الله أن لا يزال الليل والنهار
يتراکضان بيننا وبين النسيان كما يتراکض البريد، فيذهبان بشكوى
المصيبة ويرجعان من النسيان بالسلى أو العزاء أو نحو ذلك؛ ولكن
الطائفة من الناس إذا ابتليت بالغبى البخيل ابتليت منه بالمصيبة التى
تأكل المصائب، إذ يرون فيه أشياء من معانى القحط والجذب والوباء
والفقر والعداوة والبغضاء، وطرفاً من كل جائحة، ومعنى من كل آفة،
بحيث تضيق به جوانب الصبر على سعتها وانفساحها وتنزوى دونه
فتختلط كل مصيبة بكل مصيبة؛ وليس يأتى على هذا الإنسان شيء^(١)
كتداخل مصائبه بعضها فى بعض، فإن ذلك يمحى الصبر، ويذهب
بالسكينة، ويفسد الرأى. ويفتق على العزم من كل ناحية فتقا، ويترك
المرء كأنه مجنون بشيء أكبر من الجنون.

فالغبى البخيل من ذلك كله، بل هو ذلك كله.



(١) أى ليس يهلكه، من قولهم: أتى عليه الدهر: إذا أهلكه.

غرض الكتاب

وأما بعدُ، فإنني قد وضعتُ هذه الأوراقَ وكتبتُ فيها عن الفقر وما هو من باب الفقر، لا لمحواه ولكن للصبر عليه، ولا من أجل البحث فيه ولكن للعزاء عنه؛ ثم كتبتُ عن الغنى وما إليه، لا رغبة في إفساده على أهله، ولكن لإصلاح ما يفهم منه غير أهله؛ وأدزْتُ الكلامَ في كل ذلك على الوجه الذي يراه الشاعرُ في صَحكِ الطبيعة ورفقَتها، دون الوجه الذي يعرفه الفيلسوفُ في غُبوس المادة وجفائِها؛ ونحوثُ به من نَسَقِ العقل في بث خواطره للنفس، لأنني أريد به النفسَ في مستقرها؛ وجئتُ به من مَبْرَقِ الصبح لا من غياهب الليل، وأطلعتُه من أفق الإيمان لا من قرارة الشك، وأردت به تفسيرَ شيء من حكمة الله في شيء من أغلاط الناس؛ فإن من ضرائب اللوم وغرائز السوء في هذا الإنسان أنه ما ينفك يحمل نعم الله ورحمته وما لا حدَّ له من العناية الإلهية ولكن كما يحمل نعم الله ورحمته وما لا حدَّ له من العناية الإلهية ولكن كما يحمل الطاووس ألوانه وتحاسيته وزينته البديعة على ساقين مجردتين في الغاية من القبح كأنهما من غراب...

ولست أدعى أن كتابي هذا يُسمون من شِيع أو يغنى من جوع؛ فإن هذه العلوم كلها ومجموعة العقول البشرية وتاريخ ما شاء الله من عمران الأرض، لا ينتهي للإنسان أن يعجزها ولو أفرغت عليها السماء كلَّ ما في سحابها. ولا يأتي له أن يخبز منها رغيقًا واحدًا ولو حملته الملائكة ليضعه بيده في عين الشمس، ولا يخرج منها غذاء المعدة إلا إذا خرج



الحبْرُ الأسود من عَرَق الزُّنْج... ولكنى أرمى بالكتاب إلى عزة النفس، وإلى الثقة بالله، وإلى الصبر على الفضيلة، فإن الناس من الشر بحيث لا يُعَارَى على الفضائل إلا من صبر لها صبر المبتلى، ثم إلى مغالبة الوهم التاريخي القديم الذى نشأ منه معنى الغنى كما نشأ منه معنى الفقر، وأنت لو انتزعت الأنبياءَ والحكماءَ وأهل العزائم من مجموع هذا الخلق لرأيت التاريخ الإنسانى كلّه فى ذينك المعنيين بابًا واحدًا من الخطأ.

فلقد والله بالغ الناس فى اعتبار هذين الحجرين^(١) وأسرفوا على أنفسهم فى محبتهما والكُدُّ فى طلبهما بأخلاق وشيم ليس لأكثرها موضع فى الإنسان ولا يتسع لها عمره القصير، وإنّ هى إلا من كَلَبَ الحيوانية فيه، بل هى تطوّر فاسد فى أخلاقه التاريخية، فقد كانت الجماعة الأولى تنازع الحيوان وتتعاون عليه، وكانت الحيوانية قبيلة والإنسان قبيلة آخر، وعبرت الإنسانية على ذلك دهرًا ثم انفرقت وانشقت وترامت على أقطار الدنيا فصار لكل أرض إنسانها وبقي الحيوان كله قبيلًا واحدًا، ومن ثم ظهر أثر الإنسان على الإنسان، وأخذت تلك الحيوانات العاقلة تملئ تاريخ الأرض فى الأرض غير مهذّب ولا منقح، بل أصوانًا تتعاوى^(٢)... ويومئذ كان عمل الفرد الواحد للقبيلة كلها، لأنه فى الاجتماع بقبيلته، لا بنفسه، وكان الفرد فى عهد الجماعة إنما يقاتل على الرزق، فأصبح فى عهد القبيلة يقاتل على الطّماح إليه والاستكثار منه ولم يكن فى تاريخه ما يقدِّع هذا الطماح

(١) أى الذهب والفضة، وقد سميا كذلك فى الحديث الشريف

(٢) من ههنا تعرف أن كل تطوّر فى المدنيات هو فاسد إن لم يكن فى أصوله المعانى المؤمنة مما

أومأنا إليه فى مقدمة (هذه)، الطبعة الثانية

أو يكفه أو يرد فيه ردًا، فاسترسل إليه، وبنشأ من ذلك في نفسه معنى الجمع والأدخار وأن يمهّد^(١) لغيره من بعده.

ثم استفاض الدهر بحوادثه وعصوره وقامت الممالك واستجمت الأمم واستبحر العمران وما برح ذلك المعنى يتسع ويتتابع ويتلّون في تاريخ طويل ليس كتابنا بصدده^(٢) - حتى عاد ذلك القتال الأول فرقّ ثم رق إلى أن صار قتالًا في الأسواق بين جماعات الدراهم والدنانير؛ وكان النزاع بين فردي وفردي وبين قوّة وقوّة، فارتقى وتهذب حتى إلى أن صار نزاعًا بين خلق وخلق وبين حيلة وحيلة، وبعد أن كان القيدان في رُقعة هذه الأرض صغر شيئًا فشيئًا أو كبر شيئًا فشيئًا حتى أصبح في رُقعة الضمير...

فإنسان المتمدن هو هو ذلك الإنسان المتوحش في عمله للقبيلة، إذ يكتنز الكنوز ويعقد العقد^(٣) ويرتبط الأموال، غير أنه قد حصر معنى القبيلة في نفسه هو ومن تلزمه نفقته من أهله وولده، فلم تتكافأ وسيلة العمل وغايته، وجمع كثيرًا وأنفق ثم فضل عنه كثير، فإن هو لم ينفق من هذا الفضل على قبيلته الإنسانية وأبناء أبيه الأول من الفقراء والمساكين، فذلك الجمع فساد طبيعي، وتزديد في أخلاق الحياة لا تبعث عليه الحاجة أو لا تحمله الحاجة التي بعثت عليه، ومن هنا خرج ما في

(١) بمعنى يكتب، وما هم لدنيا إلا من أن كل واحد يجمع لجماعة.

(٢) على هذا التاريخ تقوم فلسفة علم الاجتماع، وليس من غرض كتابنا هذا.

(٣) هي ما يملكه الإنسان من أرض وعقار.



لغات الناس من الذم الأخلاقي^(١) الذي هو في الحقيقة هجاء الطبيعة بعقولها وشرائعها أديانها لأكثر الناس...

فالرجل يزعم أنه يجِدُّ ويَدَّخِرُ ويَحْزِمُ ويترقى والحقيقة تصيح من أفواه الأنبياء والحكماء والفقراء أن ذلك جهل وبخل وطمع وتسفُّل، ومن أجل هذا صارت الإنسانية لا تتقدم خطوة إلا وقفت زمناً تلهُث وتستروخ مما بها، لكثرة ما تحمل من الصناديق والخزائن الثقيلة...

فحسبكم أيها الناس انظروا إلى تركيب الكون واعتبروا شئ الأقدار في إدارته من أحقر ما فيه إلى أعظم ما فيه، فإنكم لا تجدون معاني الغنى الصحيح الذي لا فخر له إلا في الأجسام والعقول والأنفس، ولن تجدوا معنى واحداً خلق في صندوق أو خزانة...

وقد وضعت كتابي للمساكين، وأسندت الكلام فيه إلى الشيخ علي، وهو رجل ستعرف من خبره الذي أقض عليك أنه الجيل المتمرد الباذخ الأشم في هذه الإنسانية المسكينة التي يتخبطها الفقر من أذاه وجنونه ومسه.

وأنا أرجو أن ينزل هذا الكتاب من قلوب المساكين منزلاً حسناً، وأن يتصل بأنفسهم الضعيفة، ويُقضى إليهم ببئته ويفضوا إليه، فقد تكون مصاحبة البائس للبائس ثروة نافعة لا تينهما في معاملة الزمن.

مصطفى صادق الرافعي

(١) يظن بعضهم أن هذه النسبة خطأ وأن صوابها الخلف على القاعدة المعروفة من النسبة إلى المفرد، ولكن ذلك الصواب هو الخطأ بعد أن صارت لفظة (الأخلاق) اسم العلم المعروف علم الأخلاق، فالتسوية هنا تجرى مجرى قولهم -أنصاري- إذ كان هذا الجمع -الانصار- من الشهرة كالاسم المفرد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

وضعتُ هذا الكتابَ من إحدى عشرة سنة^(١) ولو استوى في أحد عشر قرناً ثم كُتبت له يومئذ مقدمةً لكان هو هو كما أصفه اليوم، كتابٌ ليس له قبلٌ وليس له بعد؛ فهو دائر مع النهار والليل على معنى آخره في الإنسانية أوله معنى، إذا قلت فيه إنه يجيء مع كل مولود فقد قلت إنه لا يموت مع أحد من الموتى.

ستقرأ في الكتاب وصف "الشيخ على" الذي أسندتُ إليه الكلام وجعلته فيما أستوحيه كالخيوط من شعاع السماء تهبط عليه تلك المعاني التي خلد عليها جمالُ الخلد "فالشيخ على" هذا هو رمز في كل دهر لثبات الجوهر الإنساني على تحوُّل الأزمنة في أشكالها المختلفة، ومن ثم تعيش مع الإنسانية معاني هذا الكتاب، فهو من روحها صورة وجلية وجاذبية، ومن عجب الحكمة أنه ما من نبي أو حكيم أو شاعر يترجم إلى لسان الحياة ما هو أسمى من الحياة إلا استمد ذلك من مساكين الحياة خاصة، هم أبدأً السحابة المستوية المُخيَّلة لمطر العواطف^(٢) على جذب الروح الإنسانية في الأرض؛ ولعلمهم لذلك يتراكمون في الحياة من

(١) كتب المؤلف هذه المقدمة سنة ١٩٢٩

(٢) الممتلئة التي يؤمل فيها المطر.



سوادٍ كالغمائم، ويتشققون من نار كالبُرُوق، ويجلجلون برعود يئنون فيها، ويتجسسون بمطر يبكون به^(١).

وأعجب من ذلك أنك لا تجد من شيء يُحدث من ذى نفسه مثل هذا الأثر^(٢) إلا أجملَ الجمال فى أقوى الحبِّ، فكانَ أعظمَ البؤس وأعظمَ الجمال صورتان لحكمة إلهية واحدة وإن اختلف منظر ومنظر، والسماء تغبرُّ بلون التراب فى رأي العين حين لا تحمل ماء الفُرن الصافى.

يزعمون أننا فى عصر وفى دهر القانون، ويريدون أن يسلبوا الناس إيمانهم، كأن الإيمان هو مشكلة الإنسانية، مع أنه لا حلَّ لمشكلتها إلا به. إن مسألة الغنى والفقر وما كان من بابهما لا يحلها العلم ولا القانون، إذ هى من مواد القضاء والقدر فى إنشاء الآلام والأحزان وأصداها التى تُقابلها، وما دام فوق الإنسانية من السماء قوة لا تُحد، وتحت الإنسانية من القبر هُوَّة لا تُسدُّ، فلا نظام إلا على تصريف النفس أمرًا ونهيًا، وتأويل الحياة معنى وغاية، فإن لم يكن الشأن فى ذلك مُقررًا فى الغريزة على جهة الإيمان؛ فلن يكون العلم والقانون على ظاهر النفس إلا ثورة بما فى باطنها، ولن يبرخ الناس على ذلك بعضهم من بعض كالهارب منه وهو مضطر إليه، أو كالمضطر إليه وهو هارب منه؛ وكل من كلَّ فى معنى من معانى النفس لا إنسانية فيه.

ما زاد العلماء على أن خلقوا فى ساعدى الحياة هذه العضلة البخارية وذلك العصب الكهربائى، فمن لم يستطع أن يتوقى ضربة الحياة المدنية بقدرة من قوة وعتاد من المال، طاحت به فدكته دك الخسف ووضعتة

(١) جلبة الرعد، دويه، وتبجس الماء: تفجره واستعماله فى المطر هنا مبالغة فى انتزاع الوصف

(٢) يقال: فعل كذا من ذى نفسه ومن ذات نفسه: أى طبعًا لا تكلفًا

من الناس موضع الحَبَّة من الرَّحَى الدائرة فما بينه وبين أن ينهارَ موضعٌ يستمسك عليه، وإنما هذا الموضع هو إيمان المؤمن إذ يعطف على الضعفاء أو يُسعدُ أو يبزُّ بما كُتِبَ عليه أن يرق لهم من ذاتِ نفسه وَيَتَحَنَّى وَيَتَوَجَّع.

ومتى كان العلم والدينُ يقومان جميعًا على تنظيم الطبيعة في مادتها وإنسانيتها، لم تجر الإنسانية إلا على ناموس بقاء الأصلاح في الجهتين "فإذا تخلى بها العلمُ وحده فلن تجرئ أبدًا إلا على ناموس بقاء الأصلاح في ظاهرها لإيجاد الأفسد في باطنها".

لن يُفلح الإنسان للحياة الطيبة، ما دام بهذا التركيب الذى لن يتغير. إلا إذا وازن بين بيئته التى هو يوجِّهها وبين طباعه التى هى تُوجهه. فقيّد أشياءً فى قيودها، وأطلق أشياءً من قيودها، وجمع فى مُتبوأ نفسه حدًّا بحرية ودينا بعلم، بيّد أن طفيان العلم فى هذه المدينة قد مرّد عن طباع^(١) الإنسان وشمائله فى كل موضع من الحياة لا تكافئه فيه قوة الدين، فإذا هو يزيّن الشهوات، وإذا الشهوات تُطوِّع المغامرة، وإذا المغامرة تجلب المنازعة، وإذا المنازعة تدفع إلى الحرص؛ وإذا الحرص يتصرف بالحيلة، وإذا الحيلة تُهلك التقوى، وكان فى تقوى الإنسان إيمانه؛ وكان فهى إيمانه رحمته؛ وكان فى رحمته الأثير الإنسانى الذى تعيش فيه الروح، وعلى ذلك يقع فى الإنسان من النقص بمقدار ما يزيد له العلم، فإذا هو منحدر إلى السقوط، مقبل على المحق، راجع إلى الحيوانية بأكثر مما يحتمل تركيبه منها؛ أو لا يرى الناس أن تفوُّق أمةٍ على أمةٍ لم يعد فى هذه المدنية إلا معنى من معانى القدرة على أكلها...!

(١) أى من عليها واستمر وبلغ منها الغاية التى تخرجها من جملة ما عليه الطبع الإنسانى الكريم.



ومضى العلم على شأنه ذاك حتى جعل الإنسان آله من آلاته التي غَمَر بها الدنيا، فأصبح من لا إيمان له يَتَعَسَّفُ خسائسه^(١) لا يدرى أين يَوْمٌ منها وأين يقف، فلا يتسَقَّلُ بقوة إنسان ولا بضراوة وحشٍ، ولكن بقوة آلة من الآلات الكبرى ودقتها وسرعتها وإتقانها.. حتى لا رذيلة من رذائل هذه المدنية إلا هي مُفَنِّنة في تركيب على نَسَقِ الأمور المخترعة، وكأن الآلات العمياء ما زادت إنسانها شيئا إلا أن قالت له كن أعمى... وكان المدنية الملحدة ما عَدَّتْ أن جعلت الوحشية تعمل أعمالها الفظيعة بنأق وتمدُن...

نسى الناس الإيمان أو انسلخوا منه؛ فإذا أيديهم تموج بأسباب الفضائل^(٢) لا تُحْكَمُها ولا تُصَيِّطُها؛ وما كان الإيمان الصحيح إلا التقوى^(٣)، ولا كانت هذه التقوى إلا عملا من أعمال الإرادة غايته إيجاد الغرائز العليا في الإنسان بالأسلوب الذي لا تخلق الغريزة العلمية في النفس إلا به، وعلى النحو الذي لا تصلح في الحياة إلا عليه.

أظهر آثار الإيمان^(٤) تحديداً الغايات الإنسانية وتنسيقها والملاءمة بينها، فإن إطلاق الغاية لكل إنسان على شأنه وسبيله كيف دَرَّتْ

(١) يتخبَّطُ فيها على غير هدى

(٢) ما جت اليد بالشئء: إذا اضطربت به؛ كأن أيديهم لا تضبط أسباب الفضائل من ضعفها عنها.

(٣) الإسلام كله في كلمة التقوى كما بيناه مفصلاً في كتابنا إرعاذ القرآن، فانظره، وكلمة التقوى من معجزات هذا الدين لقد قال «هكسلى» قسيم دارون الشهير: «إن الدين هو إجلال المثل الأعلى من الأخلاق ومحبة العمل على تحقيقه في الحياة» وكل هذا من قول أستاذ القرن ألتاسع عشر، وكل ما سبقه به الفلاسفة والحكماء، وكل ما جاء وما سيحىء هو من معانى التقوى في الإسلام، لا تضيق الكلمة عن شىء منه.

(٤) سياآتيك فيما تقرأ من الكتاب كلام كثير عن الإيمان وفلسفته.

معيشته^(١) وكيف دارت أهواؤه- يجعل طُرُقَ الناس متداخلة متعادية فيقطع بعضها على بعض ويقوم سبيل في وجه سبيل، فلا تحل عقده إلا من حيث تُقَرَضُ أختها: ولا يتخلص خيط من خيوط اللذات الملتبسة المتشابكة إلا قاطعا متقطعا معا؛ وأنت إذا بحثت عن الوحدة التي تحاول ضمَّ الإنسانية المتنافرة وردّها إلى مرجع واحد، لم تجدها في غير إيمان المؤمنين؛ فهو أبدا يقابل في كل نفس ما تطفئ به الحياة على أهلها، ولا عمل له إلا أن يحذف الزيادات الضارّة بالإنسان من بيئته، وبالبيئة من إنسانها؛ وهو بهذا حائل فكل مجتمع بين أن تنقلب أسباب السمو العقلي فتعود من أسباب الدناءة والخسة.

وإنما محلّ الإيمان من أهله فوق محل الحكومات ممن تحكّمهم؛ فهو الأمر والنهى بلغة الدم والعصب؛ وهذه الغايات التي تتألف من أجلها الحكومات: كأمن الناس ونظامهم وحرّيتهم وسعادتهم، هي أنفُسُها محكومة بمسائل تأتي من ورائها في طبائع الناس وعاداتهم ومعايشهم ومصالحهم؛ فإن لم تكن في النفوس من الدين أصول تأمر وتحكم، وفي الطباع من اليقين أصول تستجيب وتخضع، رجعت الحكومة في الناس أداة مسلطة لا تُغني كبير غناء في الخير والشر؛ إذ يحتاج الخير أبدا إلى قوتها تحميه، ويحتاج الشر أبدا إلى قوتها تستنقذه؛ ومتى لم يكن الخير إلا بالقوة فاحتياجه إليها شر ومتى لم يكف الشر عن القوة فاحتياله عليها شر مثله؛ فإذا تضععت من الأديان هذه الدعائم الراسية. وفرط من الإنسانية هذا الفارط الذي ليس في الأرض كفاء منه- لم تجد حسنة في حكومة من الحكومات إلا معها من طبيعتها سيئة، ولم تجد سيئة إلا

(١) كتابة عما تنفق به أسباب العيش وتجتمع وتزكو.



هى سيئتان؛ فلن تكون الحياة حينئذ إلا تعقيدا أشد التعقيد من طغيان
القادرين عليها بالمال والغنى، ومن جحد العاجزين عنها بالفقر والحاجة.
والغنى القادر على مُتَمَع الحياة ولذاتها هو دائما فى فلسفة العاجز قادر
بلا قدرة، كما إن الفقير الضعيف هو دائما عند نفسه عاجز بلا عجز؛ ولا أدلّ
على ذلك من تعبيرهم عن معناه بالكلمة التى تُشَبِّه أن تكون هى أيضا معنى
بلا معنى... وهى الحظُّ. فلا بد للناس من الحدود التى تبنى بين كل ضدين
من أحوال الإنسانية جدارا يعطفُ نفسا على نفس بالرحمة، ويردُّ قوة عن
قوة بالصبر، ويكفُ عادية عن عادية بالتقوى، ويحقق عوامل التوازن بين
أسباب الاضطراب فى الجماعات المتصادمة، ليُقَرَّر كل مضطرب فى حَيِّزٍ إن
لم يُمسكهُ فبثبت فيه لم يُفلته فيَعْدُو على سواه.

فإذا عملت المدنية على هدم هذه الحدود وتركت قوة الإيجاب فى
طبيعة الحياة بغير قوة سلبية من الإيمان فى طبيعة النفس، كشفت للإنسان
عيوبه ببلاغه من تعبير شهواته فزادتها رسوخا فيه، كما تقول للص: إنك
لتسرق وستصبح غنيا تمرُّ يدك فى الذهب تُنْفِق وتستمعُ على ما تشتهى...
فما يراك قلت له: لا تكن لَصًا وتَعَفَّف، بل قلت له كن غنيا واستمتع. ويومئذ
يغبرُّ البؤسُ ويقشعُرُ الفقرُ كما نرى لعهدنا فى الأمم التى فشأ الإلحاد فيها،
فليس من بعدُ إلا أن يتحول الفقر عن صورته البيضاء فى سكبِ الدمع إلى
صورته الحمراء فى سفكِ الدم؛ وكان سؤلا فيعودُ اغتصابا، وكان الأسفلُ
فيرجعُ الأعلى، وكان يفرضُ الحقُّ فإذا هو الحقُّ من نفسه. واللّه لكأن
المسكين فى هذه المدنية هو الجزء اللئيمُ الذى طرده الغنى من نفسه وتبرأ
منه وأمات ما بينه وبينه، فإذا هما اعترضتا فى مذهب من مذاهب الحياة،
نفر الغنى كأنما يرى قبره يدنو منه، وأطبق عليه البائس بمعانى النعمة
واللعنة يقول له: ما أنا إلا لؤمك أنت!

إن من الشجر شجرة تنبت في القفر تعتصر ماءها من بين رمل وحجر، وتمتص غذاءها من لؤم الجذب، فإذا حان أن يزهر عودها شوك فلا يكون في عقده ونبره^(١)، إلا شوك شوك؛ فإذا ازدرعوها في الخصب وحصلها الماء^(٢) وساعت لها الطبيعة، ثم حان أن يزهر عودها، ملّسه كرم الأرض^(٣) فإذا في موضع كل شوكة زهرة كأنها كلمة الحد، وكذلك مثل الفقير بين الملحد والمؤمن!

ثرى أخرج الإنسان في هذه المدينة من عصر العقل إلى عصر القلب، أم هو منحدر من عصر عقله إلى عصر معدته، ثم إلى^(٤)...

وكان على هذه الأرض أغنياء مؤمنون فيها من كرم الحس شبه الفقر، ومساكين مؤمنون لهم من كرم الصبر شبه الغنى، فهل تنقلب المدينة من الغنى المحض والفقر المحض إلى مادة تخلق اللحم الحى وأخرى لا تخلق له إلا الطفر الحى...؟

وكان اختراع الإنسان في المادة الجامدة؛ أفتراه يجيء يوم على الناس يكون أعظم اختراع فيه للإنسان الأخير أن يعيد إلى الأرض إنسانها الأول الكريم؟

مصطفى صادق الرافعي

(١) النبر: التواء الذي في العود

(٢) بلها الماء.

(٣) نعمته وأدمجته وأزالت نتوءه.

(٤) تحت المعدة: الأمعاء.

obeikan.com

الشيخ علي^(١)

هو رجلٌ تراه في ظاهره من الدنيا ولكن باطنه يلتحق بما وراء الطبيعة وكان ينبغي أن لا يقوم مثله على مسرح الخلق إلا مُمثلاً، وأن لا يمثل إلا الوجه المطلق من الحياة، بعد أن استقصى الفلاسفة إلى تمثيله كلَّ ذريعة فلم يَسْتَوِ لهم أن يَمُرُّوا فيه، وقصَّرَ بهم التكلف، وقطعتهم دونه تلك الفلسفة التي حملتهم عليه- فخلق الرجل نسيطاً، مهزوزاً، زامياً بصدريه ونحريه مُعْتَرِضاً في زمام القدر كأنه صورة الفكر الذي يُمثله وكأنه أسلوب قائم بنفسه في بلاغة الطبيعة.

وأحسبُه في نظره إلى الخلق يتوهم أنه زحالة خرج من بعض الأفلاك التي تُعْرَفُ بالعقول العشرة^(٢) فهبط من أشعته على الدنيا، فهذا العالمُ شيء جديد في نفسه وهو شيء جديد في العالم...

... ينظر إليك كما تنظر إليه، فأنت تتبين في سخطته^(٣) الواضحة أوصاف الجنون الهاديء، وتعجب من منظر تلك العاصفة النائمة في عينيه، وهو يَسْتَجْلِي منك العرابية في قدرة الله إذ أنشأك مثلاً غير مفهوم، ويُطيل عَجبه منك أنك على ما فيك تتعجب منه... فكلُّ رجل في

(١) هذا الرجل من قرية يقال لها "منية جناح" من أعمال مركز دسوق أحد مراكز مديرية الغربية، وقد توفي سنة ١٩١٩، ولما وضعنا كتاب "السحاب الأحمر" في سنة ١٩٢٤ جعلنا فيه فصلاً على لسان الشيخ علي، وسنلحقه بهذه الطبعة من "المساكين".

(٢) من وساوس الفلسفة اليونانية القديمة أنهم يجعلون الأفلاك عشرة ويسمون كلا منها عقلاً، وقد أخذها عنهم فلاسفة العرب وزعموا العقل الإنساني من تحتها كلها...

(٣) أي هيئته.



رأيه إنما هو صورة من الرجل الصحيح الذي لم تزوّز فيه جِرْفة العيش ومطالب الحياة شيئاً على الله.

ولكلّ امرئ سؤال يتّردّد بين نفسه وبين، السماء، فرجل يقول: اللهم هذه القوة فأين الرزق؟ وآخر يقول: وهذا الرزق فأين القوة؟ وثالث يصيح: هذه هي العافية وهذا الرزق فأين السعادة؟ والشيخ على كأنه يقول: اللهم إنه لم يبق من الإنسانية إلا حشاشة تسوق بنفسها^(١) وكلّ رجل من هؤلاء صورة مقلّدة فأين الأصل؟

لما وُلد هذا الرجل، ولعلّ الطبيعة يومئذ كانت في ضميم الخريف ثائرة مجرودة غبراء^(٢).. قامت أمه عن نجم منطفئ لا تعرّفه الأرض وقد زهدت فيه السماء، فكان رضيعاً ثم فطيماً ثم جَحَش... ثم ترعرع ثم صار يافعاً وعاد فتى وانقلب كهلاً وهو اليوم يخطّم الخمسين^(٣) وكأنه لم يكن في كل ذلك شيئاً، ومتى سوّيت عليه الأرض لم يترك وراءه إلا سطرا ضئيلاً في بسجل^(٤) الموتى فكأن الخير والشر لم يُدركا هذا الرجل. وكأنه روح كتب عليها الحبس في جسمها فلا تشهد أمراً من ورائه حتى تنطلق، وكأنه حي على رغم الحياة!

وتُرى أي عقلٍ يعيش به؟ بل أي عقل وأي جنون ليس من أثرهما الخير والشر؟ إن أكبر من تُنجبه الفلسفة ويخرجه الأدب ليطوى عمره

(١) يقال، رأيتَه يسوق بنفسه: إذا كان في الموت.

(٢) أي لا نبات فيها

(٣) كان هذا في سنة ١٩١٩، ويقال حطمنه السن: إذا كبر وضعف وكان هذا على العكس فهو يحطم السن... وقد شاع هذا الاستعمال في أقلام الكتاب دون أن يتنبهوا إلى أنه لا يجوز أن يقال إلا

في مثل هذه النكتة

(٤) كناية عن اسمه، وكان اسمه الشيخ على جمعة.

طيًّا وراء هذه الغاية البعيدة، وما حياة الفلاسفة إلا اختيارٌ للموت، فهم يُميتون في أنفسهم كل سبب إلى الشهوة، وكلَّ داعيةٍ إلى اللذة يَحْيُونَ بالقسم الأعلى وتبقى مادة الأرض فيهم كأنها أرض بورٌ عارية المحاسرِ لا تُخَصَّبُ ولا تَنْبُثُ، وهذا (الشيخ على) كله أرض بور... فهو عصر برأسه من تاريخ الأخلاق، وعلى أي الوجوه اعتبرته رأيتَه كشيوخ الفلاسفة وحكماء الدنيا. يعيش في الناس بعقل غير العقل.

ولو تنفس به العمر فبلغ المائة وجاوز العشرين^(١) ما زاد كلُّ عمله على أن يُشبه نفسه، فهو حليم لنفسه غضوب لنفسه، وكذلك هو في الخفة والوقار، والصَّحْك والعبوس والرَّهْو والانقباض، وفي كل ضِدِّين منهما لذةٌ وألم؛ كأنه جزيرة قائمة في بحر لا يحيطُ بها إلا الماء، فلا صلةٌ بينهما في المادة وإن كانت هي فيه، فالناس كما هم، وهو كما هو: يرونه من جفوة الزمان أضعف من أن يصاب بأذى، ويرى نفسه من دهره أقوى من أن يصيبَ بأذى، ويتحاشونه رأفةً ورحمةً، ويتحاماهم أنفةً وإستغناءً؛ ثم إن مسه الأذى من رقيق أو سقيط أحسن إلى الفضيلة بنسيان من أساء إليه، فيألم وكان ألمه مرض طبيعي يعتريه، ولا فرق عنده في هذه الحال بين أن يمغصَ بطنه بالداء أو يمغصَ ظهره بالعصا...

وهو والدنيا خصمان في ميدان الحياة غير أن امرهما مختلف جدا، فلم تقهره الدنيا لأنه لم يطمح إليها ولم يقع فيها، وقهرها هو لأنها لم تظفر به!

وإني لأرى في اللغة كلمات لم تقع على معانيها ولم تجتمع اللفظة منها بمدلولها؛ فكلمة السعادة تبحث عن معناها في الناس وأهوائهم

(١) توفي رحمه الله في سنة ١٩١٩ للميلاد كما تقدم (بعد ظهور الطبعة الأولى بسنتين).



وشهواتهم، ومعنى السعادة يبحث الناس عنه فى هذه الكلمة وحدودها وحقائقها، وربما كان هذا المعنى بجملته مُلقى تحت الشمس فى زاوية من زوايا القرى، أو متفياً ظلَّ شجرة من شجر الجُمَيز، أو نائماً تحت سقف معروش من حطب القطن، أو جالسا يضحك فى ندوة الحى، أو قائماً يتأمل مجرى النهر، أو مضطجعا يُقلِّب وجهه فى السماء، أو هو الذى يسمى "الشيخ على"!

... وماذا فى السعادة أهنأ من أن تُوقى شرَّ هذه السعادة فلا تتطلع نفسك إليها ولا بينالك إلا ما تحبُّ أن بينالك، فأنت بعدُ وادع قارُّ آمِن فى سربك، معافاً فى بديك، خارج من سلطان ما بينك وبين الناس، من خلق مستبَد، أو رغبة ظالمة، أو صلة عاتية، ولا حكم عليك إلا لملك الملك... ولم يفتق الله لك من فنون اللذات ما ينغصه عليك، ولا صرَب منك مثلاً، ولا نص لك عقاباً، ولا جعلك مرآة عدو يصلح فيها نفسه^(١) ولا نصِّبك لمجاراة أو مباراة، وقد جئتك فُضوح هذه الدنيا. والدنيا من السوء بحيث يَفْصَح فيها بعض الخبير مالا يفضح بعض الشر.

ثم ماذا أنت طالب من السعادة إذا هانت الحياة فلم تَضْعَف عن احتماها، ولم تَرْمِك بداءٍ فى مرض العيش إلا قمت له، ولم نحمك على أمر إلا تحملت عليه، وقويت على نفسك فلم تكذبك أملاً، ولم تخدعك فى باطل، ولم تجاذبك إلا مورٍ لا تصدُر عنه إلا آثماً أو نايماً، وكنت من نعمة الله مخفياً لا تحمل إلا رأسك، ولا تجوع إلا بطنك^(٢)، وقد كُفيت أن تضرسك نزغات هذا الرأس، وأمنت أن يقتلك داء هذا البطن، ولم يضرِبك

(١) يرى غلطاتك فينتقى على نفسه من مثلها، فكأنك مرآة.

(٢) يقال: فلان يجوع بخمسة بطون مثلاً: إذا كان يكدح لمعاش خمسة.

اللَّهُ بشيء من هذه النعم المُنَافِقَةِ التي يَأْتِي بها المَالُ حين يَأْتِيكَ بالجَاهِ وأَصْحَابِ الجَاهِ ومن يريدهُ لِمَالِكَ وجَاهِكَ، وأَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ النِّفَاقِ^(١)، ومن نِفَاقِ النِّعْمَةِ خَاصَّةً، فبيننا هي لك إذا هي عليك. وبيننا هي مَتَاعٌ إذا هي النِّبَاعِ، وبيننا هي في طَعَامِكَ شيء إذا هي من طَعَامِكَ في... .

وهل في النعمة خير من الكَفَافِ حَاضِرًا، ومن الصِّحَّةِ فَارِهَةً، ومن قِرَّةِ العَيْنِ وَصَحْحِ السِّنِّ وَأَسْتِطْلَاقِ الوُجُوهِ، وأن يَكُونَ القَلْبُ في حِجَابٍ من نور السَّمَاءِ، لا تَهْتِكُ عَنْهُ رِذَائِلُ النَفْسِ، ولا يعلِّقُ به غِبَارُ الأَرْضِ، ولا يَنْغَشُّهُ ظِلَامُ الحَيَاةِ، ولا يَزَالُ هَذَا القَلْبُ في نَضْرَتِهِ وَصِفَاتِهِ كَأَنَّهُ سَعَادَةٌ مَخْبُوءَةٌ في غَيْبِ اللَّهِ يُخْلَقُ بَعْدُ مَنْ حُبِّتْ لَهُ؟

وكذلك أَعْرَفَ "الشيخ على"، فهو رَجُلٌ سُدَّتْ في وَجْهِهِ مَنَافِذُ الجِهَاتِ كُلِّهَا إِلا جِهَةَ السَّمَاءِ، فَكَأَنَّهُ في الأَرْضِ بَطْلٌ خِيَالِي يُرِينَا مِنْ نَفْسِهِ إِحْدَى خِرَافَاتِ الحَيَاةِ، وَلَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ يَكَادُ يُخْرِجُ لِلدُّنْيَا تِلْكَ الحَقِيقَةَ الإِلَهِيَّةَ الَّتِي لا تَغْذُوها مَادَةُ الأَرْضِ وَلا مَادَةُ الجِسْمِ، فَهِيَ تَزْدِرِي كُلَّ مَا عَلَى الأَرْضِ مِنْ مَتَاعٍ وَزِينَةٍ وَزُخْرُفٍ، وَكُلَّ مَا زِدَّتْ عَلَيْكَ الغِبْطَةُ مِنْ بَسْطَةِ فِي الجِسْمِ، أَوْ سَعَةِ فِي المَالِ، أَوْ فَضْلِ فِي المَنْزِلَةِ، وَكُلَّ مَا أَنْتَ مِنْ إِقْبَالِهِ عَلَى طَمَعٍ وَمِنْ فَوْتِهِ عَلَى خَوْفٍ: تِلْكَ الحَقِيقَةُ الطَّاهِرَةُ الَّتِي تَكُونُ أَعْظَمَ مَا أَنْتَ وَاجِدُهَا فِي سَيَرِ الأنْبِيَاءِ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشَّهَدَاءِ، أَوْ حَيْثُ يَكُونُ ذَلِكَ العَقْلُ الجِبَارِيُّ الَّذِي لا يَشْبَهُ عُقُولَ النَّاسِ، مِنْ نُبُوغٍ يَخْرِقُ العَادَةَ، أَوْ جَنُونَ تَخْرِقُ العَادَةَ، وَمَا الجَنُونَ إِلا نُبُوغٌ فَوْقَ الطَّاقَةِ، وَلا النُّبُوغُ إِلا جَنُونَ رَقِيقٌ!

وكذلك أَعْرَفَ "الشيخ على"، فهو أَجْهَلُ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا، وَأَجْهَلُ

(١) انظر: فصل النفاق، في كتاب (السحاب الأحمر)، وتصويره وفلسفته.



الناس بالدنيا، كأنه من هذه الجهة ممتلئ العقل^(١)، وأنت إذا سطعت له بالجوهره الكريمة النادرة فلا يعدو أن يراها حصة جميلة تتألق، وإن هؤلت عليه بألوان الحُرِّ والذَّبَّاج حَسِبْتَ مائفا لم تر قط نضارة البرسيم وألوان الربيع، وكأنى بك لو وصفت له الذهب وما أضرمث ناره في الأرض وهى برد وسلام، وما أيقظ جماله من الفتنة التى استحال عليها أن تنام، ثم أريته شعلة من هذه النار فى غرة الدينار، لتضحك منك، إذ تريد أن تُوهمه- بما أعظمت من ذلك الشأن- أنك سلبت ملك الله قطعة من الشمس التى غرَّبت أمس، ولرأيت من زرايته عليك ما يُعلمك أنه ما أكبر هذا الدينار فى عينك إلا صغر فى نفسك، ولا ملاً يدك بالحرص عليه إلا فراغ ما بينك وبين الله، ولا كدك فى طلبه إلا أنك مُسخر، ولا أذللك للمال إلا خضوعك للآمال، وما أنت إلا فى قيد من الهمِّ حبه إليك أن قلبه هذه القطعة من الذهب!

وإذا أحضرته ألوان الطعام وجلوت عليه أيَّه الخوانٍ وقلت له: هلمَّ فارتع وأصب حتى تئنأُرَ مائثك^(٢) رأيت من نفوره واحتجازه كأنه يقول لك: ويحك! وهل للبطن كبرياء وهو ستار على أقدار، وهل يسع كل هذا وما هو بالعريض الطويل ولا سلامة له إلا بالقليل لأنه قليل، وهل تحتل ما فى العنقود حبة واحدة، ويحتل الغنى أن يكون فى صندوقه الإلهى^(٣) حاجة زائدة، ويبلغ الحمق من هذا الإنسان أن يميم قلبه لأنه وجد النعش من المائدة؟

وكذلك أعرف "الشيخ على" فهو لا يرى فى الأشياء غير ما خصتها

(١) أى مسلوب العقل ذاهب.

(٢) أى السرة وما حولها، وذلك من الشح والكثرة.

(٣) كناية عن البطن، ويقال: الشح مكسلة. والبطنة تذهب الفطنة.

به الطبيعة، ولا يرسل عليها إلا أشعة صافية من عينيه الضاحكتين لم تخالطها ألوان النفس ولا زفرت عليها أنفاس القلب، وما ثمَّ غير الانقباض والنفور أو الاستئناس والانبساط، فإما رآها قبيحة وإما رآها جميلة، ومتى قُسمت الأشياء عنده إلى قبيح وجميل فليس وراء هذين ثالث في التقسيم، وليس إلا جميلٌ جميلٌ وقبيحٌ وقبيحٌ، فأما المأمولُ والمرغوب والمتنافس فيه، والمتبرِّم به والمسخوط عليه، وما جاء بالشقوة وما جاءت به السعادة، وما كان من ورائه حبذا وليت، وما أعانت عليه لعل وعسى، ثم كان وأحواتها، وإن وبناتها، ثم أنا وأنت وهو، ثم انعطف على هذا النحو أو انفرع منه- فكل ذلك تقسيم لا يفهمه شيخنا، وما هو من جدّه ولا لعبه لأن صفحة نفسه ليست كألواح الأطفال: يثبتون فيها ما لا بد من محوه، ويمحون ما يعودون إلى إثباته، ليتعرفوا ما أصابوا مما أخطئوا، وليتعلّموا كيف ينبغي أن يتعلّموا.

وهل تجد- أعزك الله- في هذا الناس من يحسن أن يوقرك؛ إلا وهو يحسن أن يحقّرك، ومن يعرف كيف يشكرك، إلا وهو يعرف كيف يكفرك ومن يقول لك حفظك الله، إلا وهو قادرٌ أن يقول أخزأك الله، فالناس عبيد أهوائهم؛ وأينما يكن محلّك من هذه الأهواء فهناك محل اللفظة التي أنت خليقٌ بها، وهناك يتلفاك ما أنت أهله، وأما ما يريدون أن تكون أهله، وليس في الناس شيء يزيدك كمالا من غير أن يزيدك نقصا؛ حتى إيمانك، فإنه كفرٌ عند قوم؛ وحتى عقلك، فإنه سفةٌ لطائفة وحتى فضلك فإنه حسدٌ من جماعة، وحتى أدبك، فإنه غليظ لفة.

أما شيخنا فقد مسح الله نفسه ومسح ما به من الناس؛ فليس في



صدره ولا صدر أحد حسيكة^(١) عليه؛ وهو أبداً في صمت بليغ كصمت الطبيعة، وكأن فهمه شيء من هذا الصمت، فلا يتصل بفهمه ولا يداخل فكره إلا الجمال والقبح، والطبيعة نفسها تخرج الجميل تفسيرا للقيح؛ وتُظهر القبيح تعليقاً على الجميل، وكذلك الشيخ في إدراكه.

وأجمل ما يرى من وجوه الحياة وجه السماء الصافية، ووجه النهر الجارى؛ ووجه الأرض المخضرة؛ ووجه الرجل الطيب، ووجه المرأة الجميلة: كل أولئك عنده سواء، فليس وجه خيرا من وجه، لأنه لا يُحسن أن يؤوّل لغة الطبيعة فلا ريبه فيها، ولا يتزّيد في معانيها فلا كذب في حواسه، ولا تخاطبه الطبيعة فيما توحى إليه إلا بأسهل ألفاظها وأطهرها وبمقدار ما خلّق له؛ إذ لا ترى فيه غير تلك الحيوانية الضعيفة التي هي ضرورة لحي منقطع مثله، وما كانت لوثّة عقله إلا فصلا بينه وبين الإنسان في حيوانيته؛ وإن شراً ما تكون هذه الحيوانية حين تكون عقلية محضة، وراءها عقل العالم واختراع المخترع وفق المتفنن.

وقد يكون "الشيخ على" رجلا تعسا في رأى الناس، لأنه حيوان ضعيف وإنسان أضعف؛ ولكنها تعاسة بالغة، فهي من تلك الآلام الحادة التي بالغت الطبيعة في تكوينها لتخرج منها ذلك النوع الشديد الحادّ الذى يسمونه اللذة، وربما كانت التعاسة السامية خيرا من سعادة ساقلة؛

إن المجنون لم يزل عن منهج الحياة بجنونه، ولكنه يتبع سنة هذه الحياة على طريقة خاصة غير ما ألفه الناس أو تواضعوا عليه، ليرى فى كل شيء أثر جنونه، فهو حى مع الأحياء بيد أنه يُشبه أن يكون تفسيرا

(١) أى عداوة وغيظ.

للحياة الغامضة التي تُلَوِّذُ بكل جانب مهجور على وجه الأرض، وبكل رأس تحتسبه جانبا مهجورا؛ لأن الناس لا يفهمونها ولا يتسعون لفهمها.

وهذا "الشيخ على" رجل غامض متلَّف بحقيقته العجيبة، وكُدَّاهة السياسة في شباكهم التي يأخذون بها الأمم والشعوب فلا تُبْرِحُ ترتبك فيها ارتباك الصيد في الحباله، وأولئك الفلاسفة الذين يعيشون في الشُّبَّ العالية من فضائلهم فيمطرون الكون مرة ويَزْجُمونه مرة... إلى غيرهم من زوابع الخلق^(١) ومن كل رجل عظيم أظله أحد الجناحين المنبسطين على الأرض والسماء: جَنَاح الوحي أو جناح التاريخ. ولكن "الشيخ علي" غموضه من كل جهاته واضح من جهة واحدة هي جهة الجنون في اصطلاحنا؛ وتلك هي جهة الفضيلة الخالصة فيه، إذا قطع ما بينه وبين الرذيلة وجعلت له في الناس رذيلة مجنونة مثله، فكانت سُبُّهُ أنه رجلٌ مطلق لا ينزل على حكم، ولا يتحقَّل على أمر، ولا يُنازع إلى عادة معروفة؛ بل هو قد نجا بنفسه من هموم الناس وأصبح كالروح الوثابة التي لا يمسكها قيد ولا يُخضعها زمام، والتي هي فيه كما هي في موجة البحر وعاصفة الريح؛ فكل مخلوق يَجْجُلُ في الحياة لمكان القيود منه، وهذا يجمع الوثبة العالية ثم يثب مقبلا ومُدبرا ويتخطى مدَّ بصره في الحياة كأنه بُرَّاق الأنبياء...

وليت شعري هل يأملُ الناس أن يشهدوا الحقيقة مغلوبة على أمرها، وما كانت الحقيقة أحد الخصمين قط إلا كانت الهزيمة على الآخر ولو أن هذا الآخر عصر من تاريخ الأرض. ثم ما هي الحقيقة إلا أن تكون عقلا مطلقا لا زيغ فيه، أو حقا مطلقا لا كذب فيه، أو يقينا مطلقا لا شك فيه؟

(١) أي هانتهم وعظماؤهم، جمع رابية، لظهورهم وعلوهم



وهذا "الشيخ على" أما عقله فعند الله، وأما حَقُّه فقد أوجبه الله، وأما
بِقِيْنِهِ فلا يعلمه إلا الله، فكيف يُرى مغلوبا لاصطلاح أوعادة وأكثره راسخ
فى السماء؟

إنه ليجوع ويظلم ويَعزَى، ولكن كما يجوع الطير وتظلم الأرض وبعزى
الشجر: ليس من حَلَّةٍ إلا وسبيلها من رحمة الله، فإن تَخَلَّتْ عنه السماء
مرة وقطعت مقاوده من الغيب وخذلت الوسيلة - فما تَغْمَزُ منه الحاجة
إلا حجرا صلدا يقع على أى جانب ترميه ثم لا يقع إلا حجرا؛ لأن آلام هذا
الرجل من الألم القفر الذى لا يَنْبُثُ فيه شىء من الخوف، ولا يهتدى إليه
وهَمُّ من الحياة، ولا مجرى فيه للدمع، ولا ظلٌّ للحسرة؛ وهو ألم إن أفضى
إلى الموت أفضى إليه برجل لا يعرف الموت ما هو؛ وإن أبقى على الحياة
أبقى عليها فى رجل عرفت الحياة من هو...

رجل حَطَّ اللهُ أوزاره وكتب عليه أن يكون فقيرا من المال وحبَّ
المال؛ وذل المال، فخرج وليس له فى أفئدة الناس إلا الرأفة والحنان؛
وجاء وليس له من الناس حاسدٌ أو عدو، وحُلِقَ ذا حدَّين من نفسه
الماضية لا يكتنفه ذل أوهم إلا قطعهما وانطلق كالفرس العتيق فى ميعه
حُضْرِهِ^(١) وماذا يبغض الناس منه وماذا يعادون وهو فى ذلك البحر زورقٌ
قد سقط مجدافه فليس له ما يَضْرُبُ وما يُسَخَّرُ به، وإنما تدافعه رحمة
الله حيث اندفع، والبحر لا يعادى الزورق الذى يجرى فوقه ولكن يعادى
المجداف الذى يديره ههنا وههنا.

رجل كأنه قطعةٌ من الأبد، لا أمس له يتعقبه ولا عَدَّةٌ له يترقبه، بل
الحياة عنده بقطعة طويِّلة والموت نوم أطول.

(١) فى أول نشاطه هجرية

"والشيخ على" متى أحس الجوعَ ولج البابَ الذي يصيبه مفتوحاً فلا يقعُ على الناسِ إلا متطرباً، وهو مع ذلك لا يحطُّ في الطعام ولكن يخط فيه خطأ^(١) وما هو إلا أن يستقر شيء في جوفه مما يقيمُ صلبه حتى ينفزَ نفورَ الطائر لا يرى إلا أنه قد استوفى حقَّ طبيعته من خادمٍ طبيعيٍّ.. فلا جزاءً ولا شكوراً، ولهذا لا يبزح أبداً على الحد الذي يصلحه لنفسه فلا يتجاوزَه، وأعجب ما يروى من فضيلته أن هذا الحدَّ عينه هو الذي لا يفسد ما بينه وبين الناس.

وهو إذا تكلم فإنما يتنمَّزَم^(٢) من طول السكوت، فإما أن يغمغمَ حروفاً وأصواتاً، وإما أن يلوثَ بعض كلاً غير مفهومه كأنه يُسرُّها في أذنِ الدهر الذي لم يفهمه، ولكن لهذا الرجل كلمة في الشتاء وكلمة في الصيف: فأما الأولى فأن يسألَ دثاراً يستدفع به أذى البرد، ولا معنى لكلمة "هات" عنده غير هذه الضرورة، وأما الثانية فأن يهبَ الدثارَ لغيره، ولا معنى لكلمة "خذ" عنده غيرُ هذا الاستغناء، على أنك واجدٌ أكثر ما في هذا العالم من شر وفسادٍ إنما يرتطمُ في هذين الحرفين "هات، وخذ".

هذا هو "الشيخ على": رأيته فرأيتُ في برويه ثورة على العالمِ الإنساني، وعرفته فأصبت في ضميره قطعةً مجهولة من هذه المسكونة، واستجلبت نفسه فإذا هو أفقٌ فوق الأرض، وطالعه فكأنى رأيت في جملته النقطة الأرضية التي يبدأ من ورائها ارتفاع السماء، وبلوته فإذا هو حصة تحت ضرس الدنيا والناس هنالك يُمضغون، فلم أملك أن غمستُ قلمي من نظراته في مجرى من أشعة الوحي، ووضعت الاعتبار من هذا

(١) المتطريء: الذي يأتي من غير دعاء؛ وحط في الطعام: أكثر منه؛ وخط بالخاء: إذا نال شيئاً يسيراً

(٢) يقال كان ساكناً فترمم: أي حرك فاه.



الرجل وحقيقته ما عرفت من الناس وحقائقهم، فخرجت لى من المقابلة هذه الصفحات، ولذا كان القول فى "المساكين" ما قال "الشيخ على".
على أنى إن كنت لم أحسن وصف الرجل أو كنت لم أبغ فى وصفه فذلك لأن هذه الحقيقة فى هذا القلم كالثمر الحلو فى العود المر؛ والرجل مما أنضجه القدر وحده وليس لنا من حقيقته الغامضة إلا الصفات التى تثبت أنها غامضة.

وهل فى الحياة أشد غموضًا من رجل يرى، أو كأنه يرى، أن كل نعمة لم ينلها فهى مصيبة لم تنل، وكل ما يعرفه من هذه الدنيا أنه يعرف كيف يتركها مطمئنًا وعلى شفتيه من الابتسام تحية السماء لا استقباله، ومتى هو فارقها انكشف موته عن حياته، وصرحت هذه الحياة من ضميره وخلصت من هذا الضمير كلمة هى معنى الرجل الذى انطوى عليه، وكانت هذه الكلمة "هى الحمد لله!"



في وحى الروح^(١) التراب المتكلم أمام التراب الصامت

ترى أُبُهما هو الصدق فى حقيقته: ما نفرخ به أو ما نحزن له أما إن فى الحياة ملحا وإن فى الحياة حلوا وكلاهما نقيض، فليس منهما شيء إلا هو رد للآخر أو اعتراض فيه أو خلاف عليه، وتجدهما اثنين وهما واحد فى اثنين .

فأنت تُوتى الحلو تُسيعفه وتستعذبه فإذا هو بك فى الملح تمجه وتغص به، ثم لا تضع من أمر على أحسنه فى صورة إلا رأيتُه على أقيجه فى صورة أخرى.

والإنسان من الهم فى عمر دهر لا يموت، ومن السرور فى عمر لحظة تشب وتهرم وتموت فى ساعات؛ والحي كأنه من هذه الدنيا فرخ فى بيضة ملث له وختمت عليه فلن يزيد فيها غير خالقها، وخالقها لن يزيد فيها؛

ومن الصحة والمرض، ومما سرّ وساء، وما شدّ وهذّ، ومن العقل العجيب الذى يحكم من الإنسان تركيباً عصبياً مجنوناً ثائراً قد استبانته فيه الحيوانية- من كل ذلك وما إليه مزيج هو بقدرة الله أشبه، ولكنه فوق ضعفنا وحيلتنا، فلن نرى منه فى الكون إلا شكل الحيرة ومعناها والعذاب

(١) روح أخى محمد كامل بك الرافعى، وقد انتقل إلى رحمة ربه فى شهر يونيو من سنة ١٩٢٨ رحمه الله، وهذا الفصل مما زنداه فى هذه، الطبعة الثانية من المساكين، إذ هو من مادة الكتاب وعلى نسقه ونهجه.



بها؛ والفرح بالغفلة عنها والسرور بإنكارها أو المكابرة فيها؛ والحيرة لانفص
ولا إثبات، ومتى يطلب الإنسان الحقيقة وهو جزء منها لم يقف إلا على
جزء منها، فالمشكلة متحركة إلا كل جهة حتى لا تذهب عنها لتتساقطها إلا
وأنت ذاهب بها لكيلا تنساقطها.

أما إن في الحياة ملحا وإن في الحياة حلوا وكلاهما نقيض فالصريح
أن يخلق منهما المستحيل وهو الملح الحلو... فإن لم يمكن، فالممكن من
الحقيقة للإنسان أن يستحيل الإنسان فيموت!

تُرى أيهما الذي هو الكذب في نفسه : الموت أم الحياة؟ إنه الجنين
فالوليد ثم الميئ لا محالة بعد أن يسرع الأجل أو يتراخي؛ لا يتقار جنين
في ذاته الدموية من الأحشاء، ولا يثبت وليد في ذاته من المهده، ولا يترك
شاب في ذاته العظمية للحياة، ولا يقف شيخ في ذاته الجلدية دون القبرا
من عُقدة الثمر إلى لبّتها إلى شحمتها إلى قشرتها، على ناموس
القضاء والقدر في باب الحثم المقضى من كتاب السماء، وعلى ناموس
النشوء والارتقاء في باب الهذيان العلمى من كتاب الأرض...

وكما تكون تحت الوسائد كنوز أحلام الليل، تكون في هذه الحياة
أحلام الكنوز الخالدة التي تملأ الأرض كلها ضوءاً لؤلؤة واحدة منها.

تطلع الشمس على الناس كأنها فض خاتم السماء تشير به أن تعالوا
إلى الكنز في ضوء هذه البياقوته الصغيرة.

الحواس زائغة متراجعة مقلوبة، وهذا هو نظامها ونسقها واستواؤها
فليس من أحد في هذا الكون الموجود إلا وهو ناظر إلى كون غير موجود.
السماء سموات، والأرض أرضون، والأكوان عداد العقول، وكل أمل
في رأس مخلوق يزيد عنده الدنيا أو ينقصها ويغير من الخليفة ويبدل؛

وكل إنسان في كل يوم هو إنسانٌ يومه ذلك، فكأن كلَّ حي من كل حي غلطة، آمالنا كأرقام الساعة: هي اثنا عشر رقما محدودة، ولكنها في كل دقيقة هي اثنا عشر رقما فلن تنتهي.

والحياة خداع وغرور، وزُيغ وخطأ، وعمل وَعَبَث، ولهو ولعب، ومهزلة وسخرية؛ والناس كالأرقام تُحط على هذا التراب ثم يقال للعاصفة: أجمعي واطرحي وحلى المسألة...

وأين كلُّ ما صبته الشمس والكواكب من نيرانها، وما أخرجته فصول الأرض من وُشَّيها وألوانها، وما هتفت به الطير من أغاريدها وألحانها وما تلاطمت به الدنيا من أمواج إنسانها؟ وأين ما صحَّ وما فسد، وما صدق أو كذب، وما ضرَّ أو نفع، وما علا أو نزل؟ في كل لحظة تمتلىء هذه الدنيا لتفرغ. ثم تفرغ لتمتلىء، وما ضيها ومستقبلها ومطرفتان يَمُرُّ بينهما كل موجود لتخطيمه.

وكان الحياة ليست أكثر من تجربة الحياة زمنا يقصر أو يطول، وما العجيب أن لا تُفلح التجربة في أحد، ولكن العجيب أن لا تنقطع وهي لا تفلح.

والعالم كالبحر من السُّراب يموج به أديم الأرض بما رَحَبَتْ ثم لا تملأ أمواجه ملعقة، والحقيقة في كل شيء لا تزال تفرُّ من تحليل إلى تركيب ومن تركيب إلى تحليل؛ لأن شعور أهل الزمن بالزمن لا يحتمل المعنى الخالد.

ولعل سبب الموت أنك لا تجد إنساناً يعيش في حقيقته الإنسانية؛ فلا هذه الحقيقة بيَّرت له كاملةً ولا هو خُلق لها كاملاً؛ وفي الإنسان كالطبيعة أرض وسماء فتراه لا يتغشاه مما فوقه غير الظل وقد خُلق



مقسوما فشقة منه فى أرضه وشقة فى سمائه، فإذا حضره الموت ضرب الضربة بين هاتين فأخذت السماء السماء وجذبت الأرض الأرض.

هناك البرق الإلهى ملء الكون يلتمع ويخطف، ولكنه من الإنسان كشعلة تنوهج فى غرفة أرضها وسقفها وحيطانها من المرايا وليس فى هذه الغرفة إلا هذا الضوء ورجل أعمى.

فلا سحرية ولا ضلالة ولا عبث ولا خداع إلا فى أسلوبنا الإنسانى المبنى على حواسنا الزائفة، كما تنود^(١) السفينة خفت على موج البحر وما عبث البحر بها ولكن يعبت بها وزنها.

يريد الله أن نخلق لأنفسنا معنى من السمع والبصر ليس فى أذن ولا عين، وأن نزيد فى مجموعة أعصابنا الواهنة عصبا عقليا يراه ويسمعه ويدركه ويؤمن به^(٢) فالإيمان قوة خبارة لا تجمع إلا من رد كل أطراف النفس^(٣) المنتشرة إلى عقدها الروحية، وحبسها أكثر حواسها فى حس واحد عنيف مؤلم، ووضع المناغم المضمون بها فى ذلك المعنى المفتوح المتهدم الذى لا يمسك شيئا وهو الزهد، وحصر الآلام الطاحنة فى ذلك المعنى المطبق المتحجر الذى لا يُقلث شيئا وهو الصبر، ورد الأخلاق كلها إلى ذلك العنصر الذى يُضيف معنى الحديد إلى معنى اللحم والدم وهو الإرادة؛ ويعد ذلك كله وضع كل شىء إنسانى فى ضوء من أضواء الكلمة المتألهة المسماة بالفضيلة.

(١) تنود: تتمايل وتتحرك.

(٢) كأن الله تعالى يخلق الإنسان ويودع فيه من سره ثم يقول لست حيوانا فأكمل نفسك.

(٣) أطراف النفس: كناية عن شهواتها.

كتاب المساكين

يا إلهي! ما أفاوك وما أضعفنا! كآلك تُؤذفنا من السماء فنجد من بعد
أن نرتفع إليها بأنفسنا على أجنحة الأعمال التي تطير بجاذبية مما تحب!
لما خلقت الإنسان عبدا على قدرك صار إليها على قدره، فيجب في
الحق أن تعذبه السماء إذا وغل عليها طفيلياً بلا عمل ولا ثمن!

النخلة السحوق نواة مخزونة في بلحة، والعالم العظيم تركيب
مخبوء في إنسان، فالإنسان لنكده الطبيعي محيط بنواميس قاهرة
تحركه، وتحيط به نواميس أخرى قاهرة تتحرك معه، فمن ثم لا يبرح
يصطدم، ولن يكون متجها أبدا إلا إلى التخطيم، فإذا هو تورع وتخرج
واستعلى أمات من شهواته فأبطل مثل ذلك فيما حوله، فكان غروجه
من بعض الدنيا هو حقيقة وجوده في بعض الدنيا، ومثل هذا حقيق أن
يقول: إني أحكم العالم من داخلي.

تباركت ربنا وتعاليت، إن الشك فيك لهو اليقين على طريقة والإيمان
بك هو اليقين على طريقة أخرى، المُقعد لا يمشى، والأعرج لا يقدو،
والضعيف لا يسبق العداء، فإذا أنكر المُقعدُ على من يراه يمشى، والأعرج
على من يبصره يعدو، والضعيف على من يعرفه قد سبق، فها ذلك من
إنكار العين ولا من مكابرة النفس، وإنما ذاك رأى منظور فيه إلى حظ
رجلٍ مُهملةٍ أو قَدَم مكسورة أو عَظْم وأهن؛ ومن ثم لن يكون في الناس
مُلحد إلا وفي طباعه أو أخلاقه أو حوادث دنياه جهة مريضة ينكسر
عندها الرأي ويبتلى بها الرجل من أعراض امرأة، فمنذا يقول إن النفس
الإنسانية في وزن قُبلة!

فأما المُلحدُ بغير علة فهذا لا يوجد أب ولا تضعه أم، إذ يجب أن
تكون طباعه له وحده ومبرأته منه وحده حتى يُصدق زعمه أنه الحد



للبرهان وحده؛ فما يجحد الجاحد إلا ليجعل نفسه فى الرفاهية من الأمر والنهى، ويخرج بها من حكم الضرورة؛ والإيمان كله ضرورات مسلّطة الحكم على ما بين المؤمن ونفسه، وما بين المؤمن والناس، وما بين المؤمن وربّه، حتى كأنّ فيه شيئاً يُلذّعه بالجمر فما يستريح عن لذعة إلا قدر ما يَجْمُ ليحتمل اللذعة بعدها.

يا إلهى! إنما يحبك المؤمنون، ويكابدون فى رضاك على مقدار منك لا منهم؛ فأنت تَقْدُف قلب المؤمن بضرورات كَشَعْل البراكين، وتضرب رَوْحَه من مصائبه بسلسلة جبال مفتولة، وتتركه فى الأرض يشعر كأنما خرّ عليه سقف العالم!

شُبّه خلفها بصائرُها، وظلمات تنتهى بعد حين إلى مدّ النهار الأكبر^(١) ومن الضرورات والمصائب والآلام يتخلّق الجوّ الحسّاش الذى يبسط فيه الإنسانُ جناحَيْ رَوْحِه ويسمو بها على التراب والمادة.

الجوّ الجوّ: هذه تغريدَةُ البلبل فى قفصه.

الغذاء الغذاء: وهذه قوقاةُ الدّجاجة فى قفصها.

أيقّيس الإنسانُ نفسه على قياس من الطبيعة فى قوتها المترابكة، ومظهرها المسخّر لكل ما يتفق، وتركيبها المبنى على سهولة الاحتمال ونظامها الميسر لعدم المبالاة؟ ألا ما أحقق الزهرة التى علمت أن الدّوحة لا تقتلعها إلا العاصفة العاتية فقالت: الآن أهزأ بالنسيم؛ ثم لمسها النسيم فرمى بها ورقة ورقة!

كأن الشكل الإنسانى نقص إنسانى، وكأن الإنسانى لم يجرى إلى الدنيا بأكمله وكأنه ما خلق منه إلا قدر ما لغرض ما؛ كأنه تركيب فى يد

(١) أى أعظم ضوئه فى لجة الضحى فذلك هذه

الصانع الأعظم ألقى منه جزءاً في مِرْجَلِ الفَلَكِ الأَرْضِيِّ ليغلي قليلاً... ثم يتطاير ويجتمع فينلقاه من بُعد.

كأن هذا الإنسان تحت هذه الضغطة في هذه الفورة في هذا الفلك، مادة يُطعم جواً لتتحولَ ولتتحوّلَ ليس غير. ألا ما أحمقه وهو في المرجل على الوقدة الحامية إذا أبى أن يغلي... وما أسخفه وهو في المصفاة تحت الضغطة الثقيلة إذا أبى أن يُعصر... وما أجهله وهو في الحياة الفانية إذا نسى أنه سيموت!

لا تغتري أيتها الحبة الصغيرة المختبئة في كُدْسة من القمح تتحدر في ثُقب الرِّحَى، ولا تحسبي أنك من لهو ولعب تنبعثين هناك وهنا بين الحب، إنك في رفق ولكنه رفق الحجرين الأكلين اللذين لا يدعان شيئاً ولا يفلتان شيئاً وإنما يِرْفقان بك قليلاً قليلاً ليُجيدا طحتك كثيراً كثيراً؛ ففتحنا القبر وصرّحنا للميت العزيز؟ لم أقل إنه مات، بل قلت إن موته قد مات؛ كأن الحى على هذه الأرض هو القبرُ الإنسانى لا الجسمُ الإنسانى. فإنك لتجد قبورا من ألف سنة ولا تجدُ إنسانا في بعض عمرها، أما ترى همومَ الدنيا وأحزانها كيف لا يخلو منها أحد، كيف تخرجُ من النعيم كما تخرجُ من البؤس؟ ما أحسبها إلا صُورًا من ظلمة القبر يجيء القبر فيها حيناً بعد حين إلى مِيتته الذى لم يمِت!

من يهرب من شىء تركه وراءه، إلا القبر، فما هربُ أحد منه إلا وجده أمامه؛ هو أبداً ينتظر غيرَ متململ، وأنت أبداً متقدم إليه غيرَ متراجع؛ وليس في السماء عنوان لما لا يتغير إلا اسم الله وليس في الأرض عنوان لما لا يتغير إلا اسم القبر.



وأينما يذهب الإنسان تلقته أسئلة كثيرة: ما أسفك؟ ما صناعتك كم عمرك؟ كيف حالك؟ ماذا تملك؟ ما مذهبك؟ ما دينك، ما رأيك؟...

ثم يبطل هذا كله عند القبر كما تبطل اللغات البشرية كلها في الفم الأخرس، وهناك يتحرك اللسان الأزلئ بسؤال واحد للإنسان: ما أعمالك؟

أبها المتقاتلون على الدنيا والإنسان إلى حين! إن تنازع البقاء مذهب فلسفى بقى لا إنسانى... فإنها الثيرارُ هى التى تجد من القوة أن تنتطح فى المجزرة وتنسى لم هى فى المجزرة!

فتحنا القبرَ وأنزلنا الميت العزيز الذى شفى من مرض الحياة، ووقفت هناك، بل وقف التراب المتكلم يعقل عن التراب الصامت ويعرف منه أن العمر على ما يمتد محدود بلحظة، وأن القوة على ما تبلغ محدودة بخمود، وأن الغايات على ما تتشع محدودة بانقطاع، وحتى الفازات الخمس محدودة بقبرا!...

يا عجبا! القبور مأهولة بملء الدنيا وليس فيها أحد! أية ذرة من التراب هى التى كانت نعمة ورعدا، وأيتها كانت بؤسا وشقاء، وأيتها التى كانت حُبا ورحمة، وأيتها كانت بغضا وموجدة؟

سألت القبر: أين المال والمتاع؟ وأين الجمال والسحر؟ وأين الصحة والقوة؟ وأين المرض والضعف؟ وأين القدرة والجبروت؟ وأين الخنوع والذلة؟ قال: كل هذه صور فكرية لا تجىء إلى هنا؛ لأنها لا تؤخذ من هنا؛ فلو أنهم أخذوا هدوء القبر لدنياهم، وسلامته لنزاعهم، وسكوته لتعبهم، لسخروا الموت فيما سخروه من نواميس الكون!

إن هؤلاء الأحياء يحملون فى ذواتهم معانيهم الميتة وكان يجب

أَنْ تَدْفَرَ وَتَطَهَّرَ أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا؛ فَمَعْنَى مَا فِي الْإِنْسَانِيَّةِ مِنْ شَرِّهِ مَعْنَى مَا فِي النَّاسِ مِنْ تَعَفُّنِ الطَّبَاعِ وَالْأَخْلَاقِ.

يَكْذِبُ أَحَدُهُمْ عَلَى أُخِيهِ فَيُعْطِيهِ جِيْفَةً حَقِيقَةً مَيْتَةً، وَيَكِيدُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ فَيَنْتَظِعُونَ مِنْ جِيْفِ الْحَوَادِثِ الْمَسْمُومَةِ، وَيَمَكُرُ الْخَائِنُ فَإِذَا جِيْفَةٌ عَمَلٌ صَالِحٌ قَدِمَتْ، فَكُلُّ مَضْغَةٍ تَبْتَلِعُهَا مِنْ حَقِّ أُخِيكَ الْحَيُّ هِيَ كَمَضْغَةٍ تَفْتَلِذُهَا مِنْ لَحْمِهِ وَهُوَ مَيْتٌ: لَا تُعْطِيكَ إِلَّا جِيْفَةً؛ ثُمَّ أَنْتَ مِنْ بَعْدُ لَسْتَ بِهَا إِنْسَانًا وَلَكِنَّكَ وَحْشٌ.. بَلْ وَحْشٌ دُنَى لَسْتَ لَهُ فَضِيلَةُ الْوَحْشِيَّةِ الَّتِي مِنْ وَقْوَةٍ تَأْتِي أَنْ تَمَسَّ لِحْوَماً الْمَوْتَى!

وَاهَا لَكَ أَيُّهَا الْقَبْرُ! لَا تَزَالُ تَقُولُ لِكُلِّ إِنْسَانٍ تَعَالَى، وَلَا تَبْرَحُ كُلَّ الطَّرِيقِ تُفْضِي إِلَيْكَ فَلَا يَقْطَعُ بِأَحَدٍ دُونَكَ وَلَا يَرْجِعُ مِنْ طَرِيقٍ رَاجِعٍ، وَعِنْدَكَ وَحْدَكَ الْمَسَاوَاةُ، فَمَا أُنْزَلُوا قَطُّ فِيكَ مَلَكًا عِظَامُهُ مِنْ ذَهَبٍ، وَلَا بَطْلًا عِضَلَاتُهُ مِنْ حَدِيدٍ، وَلَا أَمِيرًا جِلْدُهُ مِنْ دِيْبَاجٍ، وَلَا وَزِيرًا وَجْهُهُ مِنْ حَجَرٍ، وَلَا غَنِيًّا جَوْفُهُ خِزَانَةٌ، وَلَا فَقِيرًا غُلِقَتْ فِي أَحْشَائِهِ مَخْلَاةٌ!

أَلَا وَيَحْكُ أَيُّهَا الْقَبْرُ! لِمَ لَا تَأْتِي إِلَّا فِي الْآخِرِ؟ وَلِمَ لَا تَضَعُ حُدُودَ مَعَانِيكَ بَيْنَ الْأَحْيَاءِ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ حَتَّى يَقُومَ بَيْنَ الضَّعْفِ وَالْقُوَّةِ حَدُّ الْمَسَاوَاةِ، وَبَيْنَ النُّفُوسِ وَالشَّهَوَاتِ حَدُّ التَّقْوَى، وَبَيْنَ الْحَرَامِ وَالْحَلَالِ حَدُّ اللَّهِ!

يَا شِقَاءَ أَهْلِ الْأَرْضِ! أَمَا إِنَّهُمْ لَوْ وُضِعُوا فِيهَا مَوْضِعًا مِنَ الْعِنَايَةِ لَمَا كَانَ الْإِبْهَامُ فِي السَّرِيرَةِ، وَلَا كَانَتْ الْعَفْلَةُ فِي النَّفْسِ، وَلَا كَانَ النِّسْيَانُ فِي الطَّبْعِ، وَلَوْلَا هَذِهِ الثَّلَاثُ فِي هَذِهِ الثَّلَاثَةِ لَمَا كَانَ الْمَجْهُولُ الْبَشَرِيُّ كُلَّهُ فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ وَهُوَ الْقَبْرُ.

إِنْ أَحْزَانُنَا وَهَمُومُنَا وَدَمُوعُنَا هِيَ كُلُّ الْمَحَالَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْعَاجِزَةِ.



التي نحاول بها أن نكون فى ساعة من الساعات مع أمواتنا الأعزاء؟ هم يأخذوننا إليهم اختلاجاً وانتزاعاً فى هذه الأحزان والهموم والدموع؛ فكانها أمكنة تخلق من الأثير الروحى وتتجسّم من معانيها كى تصلح أن يلتقى فيها روح الحى وهو حى بروح الميت وهو ميت، كما يتلاقى روحا الحبيبين فى قبلتهما أول مرة إذ يخلق قلباهما لهذا اللقاء جوًّا أثيرياً من الزفرات واللوعات بين الشفاه المتلامسة.

أو لعل الموت كما يُجرد الحى من روحه ينتزع من أهله شهوات أرواحهم فيميتهم مدّة من الزمن فى القلب وفى العين وفى الفكر، وبذلك يردّ جميع المحزونين إلى المساواة، فأهل كلّ ميت وإن علا كأهل كل ميت وإن نزل، وتموت بالموت الفروق الإنسانية فى المال والجاه والقوة والجمال، حتى لا يبقى إلا الدمعة واللوعة والحسرة والزفرة، وهذه هى أملاك الإنسانية المسكينة!

ياهمّ من يحسّ ويعرف كيف يموتّ العزيز عليه وكيف يتحول من يحبه إلى ذكرى! إن ما يعمل فى القبر يعمل قريباً منه فى القلب! وما يعرف الحى أن الذاكرة فيه هى حاسة اللانهاية^(١) إلا حين يموت له الميت العزيز، فلا يكون فى الدنيا وهو فى ذاكرته بمعانيه وصورته لا يبرحها.

وليس يُنزل الحى من أمواته فى القبر إلا من يقول له إننى منتظرلك إلى ميعاد؛ أما لو عقلها الأحياء لعرفوا أن الموت هو وحده ناموس ارتقاء الروح ما بقيت فى الدنيا، ولكن ضجيج الشهوات- على أنه لا يعلو رنة كأس ولا يغطى همسة دينار ولا يخفى ضحكة امرأة- يطمس على الكلمة

(١) هذا رأى لنا، فالذاكرة عندنا من الأدلة على خلود الروح

كتاب المساكين

الأزلية التى فيها كلُّ قوة الصدق وكلُّ صراحة الحقيقة، فإذا هى خافتة لا تكاد تثبت، غامضة لا تكاد تبين!

أذلك سحرُ الحياة فينا، أم سوءُ استعدادنا لها، أم شراهةُ الجسم من لذة الحياة لا بتلاع كل ما فى الكون منها، أم حماقةُ الكأس التى تريد أن تغترف البحر لتكون له شاطئين من الزجاج، أم بلاهة الإنسان الذى يريد أن يطوى فيه معنى الخالق ليكون إله نفسه!

ويُحبه من غريق أحرق يرى الشاطى على بعدٍ منه فيتمكث فى اللجة مرتقبا أن يسبح الشاطىء إليه... ويثبت الشاطىء ويدعُ الأحمقُ تذوب ملحهُ روجه فى الماء!

اسبُح ويحك وانجُ، فإن روح الأرض فى ذراعيك، وكل ضربة منهما ثمنُ ذرة من هذا الشاطىء كذلك ساحلُ الخلد: يريد من الإنسان الذى هو إنسانٌ أن يبلغَ إليه مجاهدا لا مستريحا، عاملا لا وادعا، تلهتُ تعباً لا ضجكا، ويَشْرُقُ بأنفاسه لا بكأسه، ويتضح من عرق جهاده لا من عطره لذاته.

إن روح النعيم الأرضي فى ذراعى الغريق الذى يُجاهدُ لينجو، وروح النعيم الأزلَى الحى الذى يجاهدُ ليفوز!





الفقر والفقير

قال "الشيخ علي". يا بُنى، إن في تاريخ الحياة سؤالاً لم نزل نُلقيه أطماع الناس في كل عصر من عصورها وما إن تُصيب له جواباً مُقنعاً، لأن الطمع ليست له طبيعة محدودة، فهو يرمى بسؤال غير محدود ويريد بطبيعته جواباً غير محدود.

هذا السؤال واحد من ثلاثة هي حقائق الإنسانية الضالّة عن الإنسان نفسه في غيب الله.

يقول الإنسان: ما هي الروح التي تُعطي الحياة؟ وتقول آماله: ما هو الموت الذي يستلّب هذه الحياة؟ وتقول أطماعه: وما هو الفقر الذي يجمّع على الروح بين الموت والحياة؟

كذلك يتساءل: ما هو الفقر؟ على أنه غير الفقر ذلك السؤال الذي تجذّب في كل نفس إنسانية معنى من جوابه، ولا غير الفقر ذلك القبر المعنوي الذي لم يخلق الله نفساً من النفوس إلا ولها ميّث من الأمل في ترابه، بلى، وإذا كان في لغات الأفواه لفظ خالد وإنما هو الفقر؛ وإذا كان في هواجس القلوب معنى خالد وإنما هو خوف الفقر، وإذا كان للدموع الإنسانية مَصّب واحد تلتقى إليه من جهات الأرض وإنما هو بين شاطئين إن جاز أن يكون أحدهما الحب فإن من المحقق أن أحدهما الفقر؛

إن هذ الأرض لتصبح في كل يوم ولا يمكن أن يقال بحق إن فيها عملاً إنسانياً عاماً غير طلب المال، فأخّر بها أن تُفسى في كل يوم ولا يمكن أن يقال إن فيها معنى إنسانياً عاماً غير راجع إلى الفقر.

ويقولون إنها تدور حول قرص الشمس، وهو قول فلكى أو سماوى يصح إطلاقه على الأرض كهيئتها يوم خلقها الله، أو على الأقل كما خلقها؛ أما الحقيقة الأرضية فأنها تدور حول قرصين: قرص اللهب، وقرص الذهب؛ وبالله وللفقير! إنه دائما فى الجهة المظلمة..

الفقر متى ألقىته سؤالا عاد إليك بجواب نفسه، لأنه فصل من كل عمل، كالشتاء فصل من كل سنة؛ وليس فى الناس جميعا من يصدق إذا ادعى أنه لا يعرف الفقر، غير اثنين لا خيرَ فيهما. غنى جَنٍّ من فرط الغنى، وفقير جَنٍّ من فرط الفقر، فالأول لا يعرف هذا الفقر فى جنونه لأنه جَنٌّ بغيره، والثانى لا يعرفه لأنه جَنٌّ به، ولكن من هو الفقير؟

من هو الكائن الضعيف الذى أحاط به الجهل حتى إنه ليجهل نفسه، وأينما يُولِّ وجهه أشاح عنه الناس بوجوههم فلوَّوا رءوسهم، وصعروا خدودهم وأمالوا أعناقهم؛ حتى كأنَّ كل رأس فى التواء عنقه من الأنفة والاستكبار يمثل علامة استفهام أقامتها الحياة فى وجه هذا المسكين أو يُقيم علامة إنكار...؟

من هو الحى الذى تنكرت له الدنيا حتى أصبح فيها كأنه نوع شاذ من الخلق يقوى على كل شيء حتى الطبيعة، ولكنه يضعف عن شيء واحد وهو الغنى، فقضت عليه شرائع الاجتماع أن يُنفق من حياته أضعاف ما يكسب لحياته؛ فهو إذا كدح فى العمل طوال يومه، فقوت هذا اليوم عليه كثير، وإذا لم يجد ما يُطعمه الجوع فأطعمه من جسمه فذلك عليه يسير، وإذا سال فى الشمس وجمد فى البرد فهو عند الأغنياء ذو طبيعتين لأنه ليس مثلهم ولأنه فقير...؟

ومن عسى أن يكون هذا القوى الذى يختصمه الاجتماع كله ويخشى



أن يرتفع فيكون "فاضيًّا" عليه، وبأخذه اليوم بالجناية وهو الذى أوحاها بالأمس إليه؟ ومن هذا الذى يرى المجتمع أنه إذا قَدَّر للشريعة أن تُلخِّدَ فى قبر فلن تدفن إلا فى هاوية من مطامعه، وإذا حكم الله على عصر من عصور الجبابرة بالشنق فلا تكون المشنقة بجذعها وحبالها إلا من ذراعيه وأصابعه...؟!^{١١}

من هو الذى يجف ريقُ الأرض لو جفَّ عرقه من ترك العمل، ويخيبُ أمله مع ذلك فى كل غنى وهو نفسه للأغنياء أكبر أسباب الأمل؛ يُدلون عليه بالغنى ولولا أن فى فضتهم عنصرًا من دمعه القيم لما وجدوا لها قيمة، ولو لم يكن فى ذهبهم روحٌ من دمه الكريم لما عُدَّ أفضل المعادن الكريمة؟

قال "الشيخ على": ذلك با بنع هو المذرج فى أكفان النسيان، الذى ليس له فى الناس إلا "منكرو وكير"؛ ذلك هو البائس فى بنى الإنسان الذى يكثر عليه القليلُ ويقلُّ منه الكثير؛ ذلك هو المتناقض فى نفسه حتى لا يصغر أن يقال فيه صغير ولا يكبر أن يقال فيه كبير؛ ذلك هو الذى يشبه أن يكون عمله حركة فلكية فى الأرض لآلة الغنى - ذلك كله هو الفقير!

وبالله! ما تحمل الأرضُ إنسانا واحدًا لا يخشى عادية الفقر، ولا يتعوذ بالله منه ولا يرى يومه فى هذه الأرض كأنه الآخرة قبل الآخرة، يقوم الفقير بين حسابها وعذابها، ويستعيذ برحيمها، من جحيمها، ويفر من أمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، وفصيلته التى تؤويه؛ ويضع فى ميزانها المنسوب آماله، فلا يزنُ إلا أعماله، ويستصرخ كل من يمرُّ به فلا يسمع إلا قائلا يقول نفسى نفسى... فينظر فاذا هو فى الناس ضائع

١١) كذلك وقع فى روسيا البلشمية وسيقع فى غيرها، ومتى لم يؤمن الغنى كفر الفقير...

حتى لا يعرف له محلا، ومنفرد حتى لا يجد بينهم لشخصه ظلا، وإذا هو بالسماء وقد التهبت بأقذارها حتى كأنها فى عينه جَمرة من البرق الخاطف؛ وإذا الأرضُ قد ثارت بأهلها كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف؛ فان أقبل على الناس فروا من أماكنهم كأنه زلزلة تمشى، وإن استصرخهم نفروا كأن فى صوته فرغ الرعدِ القاصف.

ياالله! ما تحملَ الأرضُ إلا من يعرف هذا كله من الفقر بل أشدَّ منه، ثم يبقى الفقير- ويالهفّ أَرْضى وسمالى عليه!- كأنه، مسألة فى حساب الناس لا همَّ لهم فيها إلا كثرةُ الطرح والضرب ثم الغلط فى النتيجة... وتتنازع طبائع الناس كلها فى جهة والفقر وحده فى جهة حتى لا يرى هذا المسكين فى العالم على سعته غير اثنين: هو واستبداد الغنى؟

ترى أين تكونُ شرائع الآداب إذن؟ هل هى فى ضمائرنا، أم هى فى كتبها، أم هى فى تاريخها الميت القديم؛ أم صار الحق كله إنسانيا بحثا: لى عليك ولك على وليس لله علينا شىء، وفصلنا أنفسنا من السماء وقطعنا الروابط التى كانت تربطنا بها ونبذناها فرثت ثم رثت فإذا هى على أجسام الفقراء تلك الأسماء البالية؟

إن هذه الحقوق متى أصبحت إنسانية محضة ليس فيها لله شىء فكل درهم يوضع فى يد الإنسان يجعل فيها عقلا يحكم على عقله، وكل رغيـف يستقر فى معدته يخلق فيها ضميرًا يستبدُّ بضميره، فينفصل الإنسان من الله ويبتعد عنه بمقدار ما يقرب من الغنى، وحسبه يومئذ فى اعتباره بعيدًا جدًّا عن الله ورحمته أن يقال إن بينه وبين ربه مسافة ألف دينار... ذلك بأن عدلَ الله يقضى أن يكون للفقير قِسمه من الثروة، وإنما الجزء المهم من هذه الثروة هو الإحساس فى ضمائر الأغنياء.



والأدلة على هذه القضية- قضية الحقوق الإنسانية- كثيرة نفوٲ الحصر لأن كل صاحب ربا قد جمع مال الشحٲ من استئكال الناس إنما هو فى نفسه دليل عليها؛ ولعمرى إنه ليس أحد أخبب رجاءً ولا أحق بأن يخيب، ممن يسأل المتهاك على الربا- الذى يستتبت دراهقه بين الأحزان والدموع- إحسانا لوجه الله، فإن هذا الذى لا يعرف الله فما يأخذ كيف يعرف الله فيما يعطى^(١)؟

قال "الشيخ على": ولماذا نرى يا بنى جفاة الأغنياء يخشون من الفقر على أنفسهم وأهلهم فقط ولا يخشون منه على الفقير؟

أظنهم يقولون إن فى الأرض شيئين بمعنى واحد: قبور الأموات فى بطنها، وأكواخ الفقراء على ظهرها، وليس من فرق بينهما فى النسيان لأنه يشملهما جميعا، وإنما الفرق بينهما فى حالهما المتناقضتين، هذا قبر مئت وهذا قبر حى نعم صدقوا ابزوا وقالوا حقا، أليسوا جفاة القلوب غلاظ الأكباد؟ وإلا فما الفرق بين موت منسى كموت الغريب، وحياة منسية كحياة الفقير، إلا على الفرق الذى لا يبالى به هؤلاء الأغنياء حين يكون لأحدهم ظاهر حى وضمير مئت؟

وأحسب أولئك الطغاة يقولون: إننا نرى الفقير لا يملك من الأرض شيئا محدودا بل هو يملك أرض الله كلها بحدودها الأربعة... ففقر فلان التاجر الغنى مثلا ليس هو فى الحقيقة أن لا يُصيب القوت ولا يجد المأوى كغيره من الفقراء، وإنما هو المتجرء فى الآمال، بعد الأموال، وقبض

(١) لسا نرى فى الربا خيرا اجتماعيا خالصا ولا نفعا إنسانيا صحيحا على الإطلاق وما هو إلا محق الله للإنسان ومحق الإنسان لنفسه، ولكن كثيرا من الرذائل الإنسانية كالربا وغيره أصبح من دخوله فى شرايع الاجتماع الفاسد كأنه بعض الشرايع، فاستكان إليه ضعفاء الناس وأقبلوا يخربون بيوتهم بأيديهم... ولعل حكمة تحريم الربا فى الإسلام أنه فى الأكثر أكل لبقة الفقير وانتفاع باضطراره وإرهاق له بمضاعفة الحاجة عليه، وهى كلها أدوات قتل اجتماعي

الريح... بعد قبض الريح، واستقبال الأبواب والجدران، وبعد استقبال الأصحاب والجيران، وهلم من هذا الباب الذي يُفتح من جهة الغنى على سائر الجهات الثلاث للحياة البائسة: وهى الفقر، والمذلة، والألم، وإنما هو رجل ككل رجال المال متى خرج المال من يد أحدهم خرج اسمه من أفواه الناس وخرج حبه من قلوبهم، ويكون من أهل السعادة لو خرج هو أيضاً من الدنيا...

قيل الإنسان ما أكفره! لو أن غنباً فقد جبلا من الذهب وأصاب رغيفاً يتبلى به لكان ذلك أيسر في مذهب الإنسانية من أن يذهب البائس المُغدم فيتكفّف الأبواب ويستكف الناس^(١) ثم لا يتخلص منهم رغيفاً يُمسك به الرّمق على نفسه ويُقيم منه باباً حاجزاً يمنع الجوع أن يدخل إليه الموت وأن يُخرج منه الروح؛ ولكن مصيبة الإنسانية فى أهلها أن الله لم يخلق إلا صنفاً واحداً من الناس، على أن كل إنسان يظن أنه ذلك الصنف الواحد... فالغنى إذا تصوّر الفقر وهو لا يزال فى غناه؛ لا يتوهّم إلا اختلاف نظام الأقدار، واضطراب حركتى الليل والنهار، بعد أن يهوى كوكب سعه الذى يُسك من كل ذرة فى أشعته دياراً... وهو لا يرى بهذا الفقر إلا أن نقمة هابطة من السماء ولعنة صاعدة من الأرض قد التقتا عند رأسه الشامخ فى جوّ كبريائه فاصطدمتا به فإذا هو مُكب لليدين وللنفس عند أقدام الناس وإذا هو فقير!

هذا هو الفقر فى أوهامهم؛ ولكن لا تنس أنه فقرهم فقط... فقر المال المترابط فى مكانه أو الذاهب فى حلق الأرض^(٢) وبين أضلاعها، أما سائر الناس فهم عند هؤلاء أهل باطل ودعوى، يُرثون بكل ربيبة؛ ويُقرّفون بكل

(١) استكف: مد كفه للسؤال، وتكفّف الأبواب: إذا وقف بها سائلاً

(٢) أى مضايقتها ومجاريها وأوديتها، والكناية بالأضلاع عما بقى من مسالك الأمم



تهمة^(١)، إذ ينتحلون الفقرَ ويَدْعونه لِيُعادوا نعمةَ الغنى بالحسد فالجوع فقر، والمرض فقر، والتعب فقر، والضرر فقر؛ واشتهاء ما ليس لهم فقر، وقلَّةُ الأصحاب فقر، وحتى ولو أن أحدهم سَخِطَتْهُ زُوجه لنسب ذلك إلى الفقر، وبالجملة فكونهم ليسوا كالأغنياء هو الفقر.

فإذا كان الفقر كلُّ شيء عند هؤلاء الحمقى فما هو الشيء الذي يسمى الفقر؟

من أجل ذلك يا بنى ترى الأغنياء يخشون من الفقر على أنفسهم وهم أنفُسُهُم لا يخشون منه على الفقير، لأن هذا الفقير فى رأيهم قد أصبح شخصا آخر لا صلة لهم به ولا عهد، فهو يكذبُ على الحوادثِ والحوادثُ تكذبُ عليه؛ وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلها، فإذا انخدعوا له فبمقدار ما يتعجبون من سخافته، وإذا أعطوه كان العطاءُ سخيفا بمقدار ما يبخدعون، وينظرون لأثر الله عليه ولكن لأثره على نفسه؛ إذ الحقوق عندهم حقوق إنسانية، فهيئاتٌ يَحْتَلِجُ فى نفس أحدهم أن لو شاء الله لوضعه فى ثياب هذا الفقير ولوضع الفقير فى ثيابه.

أتردُّ مثل هذا الغنى الجلف المتسكِّع إلى الدين؟ إنه هو فى نفسه دينٌ وشريعةٌ أيضا... أُنْبِصِرْه بالإنسانية؟ فمن إذن وبلك إن لم يكن من صمم هذه الإنسانية وعينَ أهلها بل إنسانَ هذه العين! أما الحق فاذكر بربك أمواله تعلم أن "الحق فى يده"... هكذا هكذا يُعطى المالُ أهله حتى فضائلَ غيرهم، ويسلبُ الفقرُ أهله حتى محاسنَ أنفسهم؛ وهكذا لا تجدُ المالَ أبدا إلا نعمةً ناقصةً، ولن تتم هذه النعمةُ إلا رُزِقَ الإنسانُ مع الغنى أخلاقا تكفيه شرَّ الغنى؛ ومن أجل هذا كان من

(١) يزن ويقرف: بمعنى يرمى ويتهم

الأمر الطبيعي أن تجد العقل في إنفاق المال أشد ارتباكاً منه في جمع المال^(١).

قال "الشيخ على": ولا بد من صلة معنوية بين جميع الناس على ما يكون بين الإنسان والإنسان من التباين والاختلاف في كل شيء، حتى بين الأخوين يُلدهما الأم الواحدة؛ وهما مهما اتفقا في الحياة ومظاهرها فإنهما لا بد مفترقان افتراقاً التّديين اللذين ارتضعا منهما الحياة؛ فما عسى أن تكون هذه الصلة العامة بين الناس؟ تقول الشرائع إن الصلة التي تجمع الناس بعضهم ببعض هي العدل! وتقول العلوم إنها العقل، وتقول الآداب إنها شيء من العدل والعقل يُكوّن الإنسانية في الضمير، وتقول الحياة إنها سبب الإنسانية وهو الرحمة؛ ثم يُرعد صوتُ إلهي يَقْصِفُ من جهة السماء التي هي مصدرُ العقل والعدل والإنسانية والرحمة فيصيح بكل ما في هذه الأشياء من القوة ويقول: كلا! بل هو سبب الرحمة ومظهر الإنسانية، وكما العقل، وفضيلة العدل، وهو الفقير!

من الذي وُلد وفي يده قطعة من الذهب؟ ومن الذي مات في يده "تحويل" على الآخرة^(٢)؟ لقد وسّعت الخرافات كل شيء إلا هذا؛ فما لنا نتحد في البدء والنهاية ثم نختلف في الوسط؟ ذلك لأن بدءنا من طريق الله ونهايتنا في طريق الله، ولكن الوسط مَدْرَجَةٌ بيوتنا ومصانعتنا وحوابيتنا، وبكلمة واحدة هو طريق بعضنا إلى بعض... وحينما التقى الإنسان بالإنسان فما أن تلتقى المنفعة بالمنفعة والإل بالمنفعة بالمضرة، فلا بد من انتفاع أحدهما أو كليهما؛ ومن ثمَّ يقول البخلاء؛ ما الذي ننتفع به من رحمة الفقير؟ وماله يريد أن تَتَحَيَّفَنَا كأنه رُوخُ الجدب، وأن

(١) ولهذا صار مبدأ حكماء الأغنياء أن يحسنوا بكل أموالهم على الإنسانية ليخرجوا من الدنيا فقراء كما دخلوها.

(٢) المعنى كما هو ظاهر تحويل واجب الدفع.



يَتَعَرَّفُنَا كَأَنَّهُ رُوحُ الْمَرَضِ؟^(١) وماله يُرِيدُنَا عَلَى أَنْ نُسِيءَ مِنْ أَجْلِهِ الْمَسَّ فِي أَمْوَالِنَا كَأَنَّهُ رُوحُ الْإِفْلَاسِ؟ أَوْ لَا يَكْفِيهِ أَنَّنَا لَا نَرَزُّوهُ شَيْئًا، وَأَنَّنَا نُفْضِلُ عَلَيْهِ فَنَعْتَدُّ الدَّرْهَمَ الَّذِي نَمْسِكُهُ عَنْهُ كَأَنَّهُ دَرْهَمٌ أَخَذْنَاهُ مِنْهُ، وَبِذَلِكَ لَا يَضُرُّنَا وَلَا نَنْفَعُهُ بِشَيْءٍ، وَمِنْ الْجَهَةِ الْأُخْرَى لِهَذَا الْقِيَاسِ يَكُونُ قَدْ نَفَعْنَا وَنَفَعْنَاهُ بِأَشْيَاءٍ...؟

قَاتِلَ اللَّهُ الْبَخْلَ وَقَبَّحَهُ، فَمَا هُوَ إِلَّا حِرْصٌ عَلَى الْمَنْفَعَةِ يَشْبَهُ عِبَادَةَ الْوَثْنِيِّينَ لِكُلِّ مَا تَوَهَّمُوا فِيهِ الْمَنْفَعَةَ؛ وَإِنْ كَانَ لِلْحَوَاسِ نَوْعٌ مِنَ الْكُفْرِ بِاللَّهِ فَكَفْرٌ أَيْدِي فِي إِمْسَاكِهَا؛ وَإِنَّ اللَّهَ لَرَحِيمٌ إِذْ لَمْ يِعَاقِبِ الْبَخْلَاءَ بِمَا يِعَاقِبُونَ بِهِ النَّاسَ، فَلَيْسَ بَيْنَ كُلِّ بَخِيلٍ وَبَيْنَ الْهَلَاكِ إِلَّا أَنْ يَنْقُلَ اللَّهُ "الإِمْسَاكَ" مِنْ يَدِهِ إِلَى جَوْفِهِ! عَلَى أَنَّ الْبَخْلَ إِذَا لَمْ يَكُنْ بَقِيَّةً مِنَ الْوَثْنِيَّةِ الْقَدِيمَةِ بَعَيْنِهَا فَهُوَ عَلَى كُلِّ حَالٍ نَقْصٌ مِنَ الْإِيمَانِ، لِأَنَّ اللَّهَ وَعَدَ الْمُحْسِنِينَ وَالْمُتَصَدِّقِينَ ثَوَابَ مَا أَنْفَقُوا مَكَافَأَةً عَلَى فَضِيلَةِ الْإِحْسَانِ الَّتِي هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ فَضِيلَةُ الْإِحْسَاسِ، ثُمَّ أَنْ يُخْلَفَ عَلَيْهِمْ مَا أَنْفَقُوهُ أَعْضَاغًا مَضَاعِفَةً؛ إِذَ الْمُحْسِنُ لَا يَجُودُ بِدِرَاهِمِهِ عَلَى اللَّهِ وَلَكِنَّهُ يُقْرِضُهُ إِيَّاهَا قَرْضًا حَسَنًا مَتَى وَضَعَهَا فِي يَدِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْفَقِيرَةِ؛ فَمَنْ أَمْسَكَ عَنِ الْإِحْسَانِ بَخْلًا فَإِنَّمَا يَشْكُ فِي وَعْدِ اللَّهِ، وَإِلَّا فَبِإِقْدَارِ اللَّهِ، وَإِلَّا فَبِإِقْدَارِ اللَّهِ نَفْسِهِ؛ فَأَكْبَرَ الْبَخْلَ عِنْدَ أَكْبَرَ الْكُفْرِ وَأَصْغَرَهُ عِنْدَهُ أَصْغَرَهُ، وَيَوْمَ يَخْرُجُ الْإِيمَانُ مِنْ قُلُوبِ الْأَغْنِيَاءِ تَخْرُجُ أَرْوَاحُ الْفُقَرَاءِ مِنْ أَجْسَادِهِمْ فَيَمُوتُونَ بِالْجُوعِ وَبِالْعُزَّى وَبِالْمَرَضِ وَغَيْرِهَا مِنْ أَسْبَابِ الْمَوْتِ، وَكُلُّهَا مَظَاهِرٌ مُتَعَدِّدَةٌ لِسَبَبٍ وَاحِدٍ هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ كُفْرُ الْأَغْنِيَاءِ كُفْرًا فِي الضَّمِيرِ لَا كُفْرًا فِي اللِّسَانِ.

(١) تحريفهم السنة: أي الجذب، إذا نقصتهم وجارت عليهم، وتغرق العظم إذا لم يبق عليه شئنا من

ومن هنا يا بنى لا تجد الفقير فى أى عصر من العصور إلا جهة من الخلل فى نظام الاجتماع الانسانى، كما أنّ البخل جهة من الخلل فى نظام النفس الانسانية، والفراغ الذى يجده الفقير فى بيته إنما هو موضع النعمة الضرورية التى بخل بها لغنى، وهو فى الحقيقة موضع التفكك أو الكسر فى الآلة التى تديرها شريعة الاجتماع.

الإنسان إنما خلق اجتماعياً، وهو بشخصه لا قيمة له ولا منفعة إلا حيث يكون شخصه جزءاً من مجموع، لأن اليد الواحدة فى الجسم ولو كانت يد مَلِكٍ وكان فيها زمام العالم فإنها لا يفازقها عيبٌ أختها المقطوعة. وكلُّ خلل فى النظام الاجتماعى فإنما مرده إلى طغيان بعض الأفراد وجنوحهم إلى أن تكون شخصية الواحد منهم من الكبر والعظمة بحيث توازن المجموع كلاً أو أكثر المجموع: إن هذه الموازنة الفردية متى اتفقت كانت إخلالاً بالموازنة الاجتماعية، لأنها تجعل كل حركة من هذا الفرد زلزلة فى المجموع، كالثقل فى إحدى كفتى الميزان. إن خفَّ سقطت الكفة الأخرى وإن ثقل شالت، وهو السقوط إلى فوق...

والموازنة الاجتماعية لا تنتهياً إلا إذا تطبعت قوى المجموع^(١) فاندفعت فى تيار واحد إلى جهة معينة؛ ولكن الموازنة الفردية لا تستقيم إلا إذا جاءت من عكس هذه الجهة، فتصدُّ قوة المجموع وتبقى دائماً ذات قوة على صدها من الغلبة، فإن ضعف خصمه يعطيه منها أكثر مما تعطيه قوة نفسه، ولا يكون ضعف المجموع إلا من حصر الشخص العظيم قوة عقله ونفسه وضميره فى هذا السبيل الفردى، لتكون منه الشخصية الهائلة التى تشبه ما كان فى تاريخ الوثنية من شخصيات الآلهة وأنصاف الآلهة. وقد اضطر الناس لذلك من عهد اجتماعهم فى نظام أو شريعة إلى

(١) من قولهم: تطبع النهار إذا اجتمع ماؤه وعلا فاندفق أو كاد.



ابتداع الوسائل للتوفيق بين قوة الفرد وقوة المجموع، حتى لا يستشرى الداء^(١) في الموازنة الاجتماعية فيفسدها ويوقع الخلل في نظامها، ولكيلا تكون خيرات المجموع كلها في مَعْدَة واحدة، وحتى لا يبقى الناس أرقاما يعدُّهم الغنى المستبد كما يعد دراهمه لأنهم ثروته الحية؛

غير أن هذه الوسائل على اختلافها لم تكن ولم تنزل إلى عهدنا- عهد الاشتراكية العلمية^(٢) - إلا ثورات هي مهما كانت فإنها أشبه شيء بجموح الحيوان إذ يحمى أنفه فيحمح ثم يسترسل في جماحه ثم يشتد حتى يعتز صاحبها على راسه وبملك نفسه منه، ثم ماذا؟ ثم يسكن مكرها بعد أن جمح راضيا، فإن لم يسكنه الألم من صاحبه أسكنه التعب من نفسه؛ لأن التخلص من شيء في فطرة الإنسان وانتزاعه من مغرزه في نفسه؛ لا يكون بالتخلص من إنسان بعينه.

ومن هذا يابى ترى أن الإنسان لا يعيش فردا ولكنه حين يموت يموت فردا؛ فإذا رأيت فقيرا منبوذاً من الاجتماع منفرداً عنه، لا يساهمه في عمله وعيشه، بل كأنه يعيش في بقعة مجهولة من الحياة، فاعلم أن إهمال ذلك الفقير إنما هو نوع من القتل الاجتماعى.

ههنا قاتل ومقتول: لم يأخذ القاتل بحق من الحقوق ولا تآر لنفسه ولا قتل بيده، أما المقتول فإنه لم يُقتل في إثم اجترحه ولا هو على جنى

(١) استشرى الداء: إذا سرى في الجسم.

(٢) ليس في الوسائل الاجتماعية كلها ما يعدل نظام الزكاة في الإسلام، وفي هذا الدين الإسلامى العظيم أصول إنسانية عامة لابد أن تنتبه لها الأمم فتكون سببا في إقبالها عليه وظهوره على الدين كله، ومن هذه الأصول الزكاة، فلو أنه أخذ ربع العشرائتان ونصف في المائة، من ثروة العالم بأجمعه كل سنة وجعل في مصالح الفقراء لأصلح الفقر والغنى معا، ولكن الاشتراكية تحاول محق الربا بمحق رأس المال وتعمى عن نظام الزكاة وهذا من شرها

كتاب الهساكين

نفسه الضعف الذي أرهقه وبلغ منه حتى جعل إهمال القوى إياه كأنه حكمٌ عليه بالقتل، فُتْرى على من تكون هذه التبعة، وهى بالتحقيق ليست على القوى لقوته ولا على الضعيف لضعفه؟

هناك اثنان رجل فى الماء وآخر على الشاطيء؛ فأما الذى فى الماء فليس بينه وبين الموت غرقا إلا نفس واحدٌ مبتل ینسل بالماء من حلقة إلى رثييه وهو يرى بعينه الموت دائبا فى حفر قبره المائى، فليس الموج الذى يتكفأ به ويتناثر من حويليه إلا ما تُثيِّره بَدْ جبار الموت من غبار ذلك القبر وتحتوه فى وجهه بنزف وغضب، بعيدٌ عن الأحياء حتى بعد عن أن يكون له قبر بينهم ولا صلةً بينه وبين الحياة الأرضية إلا نظراتٌ ذلك الرجل القوى الذى يتراءى فى عين الغريق كأنه صخرة راسية على الشاطيء لها قوة وليس لها إرادة؛ ولكن هذا الذى يشعر بصلابة الأرض تحت قدميه ويحسُّ القوة من يده وعضلاته، يشعر أيضا بمعنى من الصلابة فى قلبه وقد جاء إلى الشاطيء ليتنفس من تلك السمات التى ينتهد بها صدر السماء فتكون أرواحا للأمواج تبعث فيها حركة الحياة. ماله ولهذا المنظر؟ سواد يطفوا على الماء كأنه هبة من المتاع الخلق أو حذاء قديم أو ريش تحسر عن طائره^(١)، أو رأس رجل يفرق؛ وما دفعه بيده إلى الماء فيكون حقا عليه أن يستنقذة، ولا كان الغوص من صناعته فيعتول فى إخراجها ليخرج معه أجر عمله، وهو قوى ولكنه قوى لنفسه لا للضعفاء، وقد جاء ليُرْوِّح عن نفسه، وإنقاذ الغريق عمل آخر وربما أنشبهه فى حلق الموت... أحدٌ فيما جاء له وما زال يموت فى جلده ويتنفس ماء صدره من الهواء ومن زفرات الإنسانية التى تنشق لها غيظا، ومن لعنات ذلك الغريق الذى بدأت حياته تذوب كما يئماتٌ فى الماء^(٢) حتى آن له أن

(١) أى سقط وتناثر.

(٢) إنمات الملح فى الماء. ذاب.



ينصرف وترك الرجل يغرق وهو يقول: لا بأس أن ينقّص عددُ أهل الأرض واحدا فهم كثيرا...

تُرى على من تكون هذه التَّبَعَةُ أيضا؟

إذا أردتم أيها الناس أن تعرفوا فإنكم تستطيعون أن تُحقّقوه بدون أن تكونوا شُرطة^(١) أو قضاة أو أهل قانون أو رجالَ فلسفة، ولكن بأن تكونوا من ذوى الإنسانية فقط؛ فإن الإنسانية لا ترى فى الأرض إلا الضمائر وما هذه الأجسامُ إلا أدوات صناعية ركبت هذا التركيبَ لتُصلح لحياة الضمير؛ فالرجل قد مضى برىء اليد برىء القوة؛ برىء العقل؛ إذ هو لم يقتل، ولم يجن على القتل، ولم يَحْتَلْ لقتله؛ ولكن الإنسانية حين تنادى الضمائر بأوصافها فتقول: أيُّها الطيب، وأيها الكريم، وأيها الشقى السافل، تصيح بضمير هذا الرجل قائلة: أيها القاتل:

إذا لم يُقرّ الأغنياء لأنفسهم بالضمان ولم يلحقوا بها التَّبَعَاتِ التى تناسبها فهل هم فى ذلك إلا كالمجانين لا تُقرُّ لهم الشرائع بالعقول وتُخلّهم من تبعَةٍ ما يَجْنون على العقلاء لأنهم مجانين؟... وكيف ترى ذلك الغنى الفظّ الذى يَهَرّ فى وجوه الفقراء ويؤمّجُر عليهم كأنه ينبههم بلغة من لغة الكلاب... ولا يفتأ يقذفهم بالألفاظ الجاسية المؤلمة كما يقذف المجنون بالحجارة... وإذا أعطاهم فإنما يُغطّيهم بقضية فارغة... وهو لا يُوفّر أبدا إلا من فوقه كأنه لا يرى فى الدنيا كلها أسفل من نفسه... ولا يبالي إلا بمن يطمع فيه كأنه جالس فى مكتب أحد المخدمين... وقد تساوى فى الدناءة والكلف بالدنيا وقذارة الطباع ظاهرة وباطنه كأن ضميره ليسه مقلوبا... وصار أمرُ رضاه وغضبه وإحساسه وحيائه موقوفا على ما يكون من

(١) هم رجال البوليس، والواحد شرطى.

أمر المعاملات، كأن أخلاقه ليست فى نفسه ولكنها فى أيدى الناس، أفليس مثل الغنى الدنىء رجلاً عاقلاً؟

بلى، وإنه لأعقلُ من كل من يمدحه ويُزكّيه ولو كان هذا المُثنى عليه أكبر علماء الاقتصاد؛ ولكنه على ذلك مجنون الضمير بحيث لا يَعْقِلُ إلا بحوائسّه!

ولو أنصفت القوانينُ لما لبست مثل هذه الحرية الإنسانية على رذيلتها ولجعلت من نصوصها القاطعة ما يَكْفُحُ مثلَ هذا الغنى^(١) ويتلقاهُ بلجامه، لأنه فى الحقيقة ليس رجلاً ولكنه دابةٌ اجتماعية!

قال "الشيخ على". ومن بديع حكمة الله أنه وضع للإنسانية أصلاً من أصول نظامها فى ضمير الإنسان فترك له أن يقتصرَ ما شاء من الإثم والمنكر ولكنه جعله من الإحساس بطبيعة الخير والشر بحيث يكون له من الذنب نفسه العقابُ على الذنب؛ حتى إن شرَّ المجرمين لِيُشتعِرَ على مُقارفة جُرمه فإقناع الضمير بدياً^(٢) وأخذَه بالحجة من هواه، فَيُخْطِرُ فى نفسه ما يَنْزُو بها، كالشجاعة والنَّخوة؛ أو ما يتوهَّجُ بروح الغضب فى دمه، كالانتقام ونحوه؛ وما يطمئنُّ له الضمير فى معنى الجنائية، كمُدافعة الضرر وما إليه!

وبالجملة فإن أول ظلمه أن يعتقدَ ظلمه عدلاً أو شبيهاً بالعدل، حتى لا يلتوى عليه أمرُ نفسه إذا خذَّله ضميره، فإن اضطراب هذا الضمير يتصل اتصال الكهرباءً بأيدي المجرمين فإذا هو فيها شلل، وبأرجلهم فإذا هو زَللَ وبنظامهم العصبى فإذا هو حَلل، وبعقولهم فإذا هو المس والخبل، وإذا لم يفلح الجانى فى إقناع ضميره أو التلبيس

(١) كضح الدابة إذا تلقى فاهها باللجام

(٢) فى بدء الأمر



عليه تخلّص منه ففصل بينه وبين العقل بالسكّر وما هو فى حكمه حتى لا يشهدَ من أمره شيئاً.

أفلا تجد فى تحدير أكثر المجرمين لضمايرهم ساعة الجنابة دليلاً على أن الضمير الذى يشهدُ الذنبَ إنما يتلقى العقابَ عليه؟ ولماذا تُدفع الجريمة إلى الجريمة غالباً؟ أليس ذلك لأنها إنما تقتضى عقابها الطبيعى؟ ثم ماذا يكون بعد أن تضرب الشقئُ تلك الحاسةَ الروحية التى نسميها الضمير ويرميها بالشلل - إنه ينحطُّ درجة واحدة، ولكنها درجة الضمير التى لو جازها الحيوان لصار إنساناً، ولو نزل عنها الإنسان لعاد حيواناً، فلا يبقى فيه من ثمِّ إلا الفطرة الحيوانية التى تجعل عقلَ الحيوان مرة فى القوة ومرة فى الضعف، فإن أحسَّ القوة على خصمه كان العقل فى الظلم بكل ضروبه وأشكاله، وأبى هذا العقل الحيوانى أن يترخّص فى شىء^(١١) هو من حقه بالقوة، وإن أحس من نفسه العجز والضعف ورأى أن لا قبل له بخصمه فكفى باتقاء الظلم عقلاً...

يا بنع! إن أفقر الفقراء ليس هو الذى لا يجد غذاءً بطنه، ولكنه الذى لا يستطيع أن يجد غذاءً شعوره فلا تحسبن أن مع جنون الضمير وجفوتته ومرضه سعادةً وراحة، لأن لذة المال لا تتجاوز الحواسَّ الظاهرة فهو يبتاع لها كل شىء مما تشتته ولكنه لا يستطيع أن يُبيل القلب شيئاً إلا إذا جاءه بالخير والفضيلة.

والغنى الذى يمنح الفقراء ما له يزيد فيه ولو حكماً بمقدار ما يمنع، بضعةً دراهم، أو بضعة دنائير، ولكنه يزيد ضميرَه جفاءً بالقسوة والغلظة ونسيان الفضيلة؛ ولا يزال على ذلك حتى يمرّ به يوم يفقد فيه ضميره كل شعور بالخير فيفقد معه كل شعور بلذة النفس التى هى أقرب المعانى إلى معنى السعادة...

(١١) ترخص فى حقه: إذا أخذ ما طغى له ولم يستقص.

... ويومئذ لو اشترى كلُّ لذات الدنيا بفأله ما زادته إلا ألماً من الضجر وضجراً من الألم، لأنه فقد قوةً من ضميره تقابل القوة التي يفقدها المريض من معدته.

فليُنظر الفقيرُ الجائعُ وقد أخذهُ كلبُ الجوع وسطع في عينيه وهجُهُ ودارت به معدته ذات اليمين وذات الشمال - إلى رجل غني مَمَعود^(١) في كفه معنى الحياة وفي جوفه معنى الموت؛ وقد ابتاع مما تشتهيه معدة خياله التي لا تشبع لأنها لا تنالُ شيئاً، وأسرف بالمال في ذلك حتى استجمع الكثير الطيب، ثم انقلب إلى داره بعين من ذلك الذئب تكاد أشعتها تُنضح الغذاء من حرِّ نظراتها إليه.

... سلوا صاحبنا الفقير يُقلِّ لكم أئج لذة يا قوم تكون في غير هذا الطعام يُقتل به داء البطن^(٢) وتنفق عليه الخواصرُ شبعاً وسيفنة. وهل هذه إلا رُوح مائدة من موائد الجنة فيها ما تشتهى الأنفس وتقرُّ الأعين؟ ثم سلو المعمود المسكين يقلِّ لكم وهو صادق صدقاً يتمنى بما ملكت يداه من الدنيا لو أنه كذب، يقلِّ لكم: تالله ما أجْدُ في هذا كله ولا في بعضه من لذة ولا سعادة، ولو أبْحثهُ جوفى لكان الموت بعينه!

إذن فلا بد في كل شيء إنساني من حقيقة باطنة في نفس الإنسان تعطيهِ بصحتها أو مرضها قوة اللذة أو الألم؛ وبهذا يقضى العدل الإلهي كل ذي حق حقه بالصفة والسويبة، لا فرق بين الغني في غناه وبين الفقير في فقره، فكل منهما لذة وألم؛ ولعلنا لو سألنا أغنى الناس عما هي لذة الغنى لرأيناه في حقيقة التعاسة النفسية كأفقر الناس إذا أجابنا عما هو ألم الفقر.

(١) مريض المعدة.

(٢) داء البطن هو الجوع.



وقد فُطر أكثر الخلق. لطبيعة الخوف المتمكنة منهم. على أن يتسعوأفى فهم الآفات وحدها، حتى صار الوهم الخيالى أكبر الآفات الحقيقية، فالفقير الذى لا يفهم حقيقة الفقر يتألم بإدراك ووهم وفلسفه، إذ يقيس حاضره على ماضيه وعلى ماضى غيره من الفقراء، ويقيس مستقبله على حاضر الأغنياء ومن فى حكمهم فقط، وبهذا يكون ألمه عملا عقليًا فى شىء موهوم، فما دام يتمنى أكثر مما يستحق فهو يتألم بأكثر مما يستحق؛ ولو تأمل الناس لرأوا أن نصف الفقر فقر كاذب؛ فآه لو كان مع ضعف الفقر قوة الإرادة! إذن لوجد الحكماء فى الأرض شيئًا حقيقيًا يسمونه الغنى.

أيها الناس، إن الفصل بين الغنى والفقر من الأمور التى تتعلق بالضمير وحده ورُبَّ غنى يزيد أهله بالحرص والدناءة فقرا، فانظروا فيهما فأفكار إلهية لا تطلب إلا الفضيلة التى يمكن أن تكون بلا ثمن، ولا يمكن أن يكون شىء ثمنًا لها، انظروا إلى بعض الأغنياء الذين تموت فى قلوبهم كلُّ موعظة إنسانية أو إلهية فلا تُثمر شيئًا حتى إذا ماتوا ثبتت كلها من تراب قبورهم فأثمرت لنفوس المساكين والفقراء عزاء وسلوة وموعظة من زوال الدنيا، انظروا بعين الحقيقة التى تعطى هذه الطبيعة النظر فتعطيها محاسن الطبيعة الفكر.

انظروا فى باطن الإنسان بالفضيلة التى هى نور الله، وبالحقيقة التى هى من نور الطبيعة، فإنكم لا ترون حقيقة الغنى تبتعد عن حقيقة الفقر إلا بمقدار شبر واحد، هو ملء هذه المعدة؛



مَسْكِينَةٌ! مَسْكِينَةٌ!

قال "الشيخ على" واسمع الآن يا بني ما أقص عليك، فإني محدّثك بخبر ليتنى ما علمته بل ليتنى إذ علمته ما وعيته، وليتنى إذ وعيته ما أثبتته ولا نفذت فيه كما نفذ فيّ.

ولكن الحياة كما تقضى علينا أن نشهد أموات الأحياء ونحملهم إلى أبواب الآخرة من تلك الحفر، تقضى علينا كذلك أن نشهد أحياء الأموات من أهل الرذائل ونحمل من أخبار ضمائرهم الميتة إلى أبواب السماء في أنفسنا!

فواها لك أيتها الحياة الدنيا! تقتلين بالشر وتجرحين بأخباره ولا تُؤتِينَ عسل الحكمة إلا بعد لسع كثير... وقد علمنا أن كل شيء يسير فإنما هو يذهب في طريق يتهدّى أو يعتسف^(١) وكأن الأسف على أهل الشر لم يجد له طريقًا في هذه الحياة إلا من ضمائر أهل الخير، وبهذا يضرب الشرُّ أهله وغير أهله.

كانت لنا يا بني في هذه القرية النضرة فتاة بائسة ضاق بها العريض من هذا البهر فخرجت إلى بعض المدن تستطعم الحياة، فحدثتني أنها استضاقت حتى كأنما كانت تنفذ إلى رزقها من شق في صخرة في غار في جبل، ثم استضاقت فكأنما وليجت هذا الغار فاندردت تلك الصخرة فسدت عليها فلا وراء ولا أمام وأعجزها حتى المعاش الملقق^(٢).

(١) على هدى أو غير هدى.

(٢) الذي يكون تليفًا من هنا وهناك فلا يستقيم ولا يطرد.



وخرجت يوماً على الناس وكأنها لقدارتها قطعة من الحياة البالية
مدرجة في بعض الأطنام، أو روح من الهواء تمشى ساكنة في أردية من
الغبار، وما تحصى العين تلك البقع المنتشرة في ثيابها، كأنها أرقام للفقير
بعدئها ليالي عذابها، وهي علم الله بقع، أشأم منها أنها في رقع، وقد اغبرر
شعرها الفاحم وتلبد، فكانه بعض ما وقع على رأسها من حظها الأسود،
ولاح من تحتته وجه كالدينار الزائف في صفرته وردّه، وكالقمر المحقوق
في استطلاته تحت الظلام ومدة. وهي فناة عليلة قد أخذ السقام من
حجمها كما أطفأت الأقدار من نجمها، وخفى من المرض في صدرها، أكثر
مما خفى بين الناس من قدرها وما تعرف من أسماء الأموات والأحياء
غير أسماء أهلها ولا تملك من الأرض كلُّها أكثر من غبار نعلها، وقد خرجت
تتحامل فكلما خافتت في مشيها قليلاً خافت العثار، فاستندت إلى جدار،
فإذا رايت ثم رأيت صورة البؤس ولكن في غير إطار^(١).

وإنها لتمشى وكأن لبس فيها دم ينتهي إلى قدميها فهي تجرهما جراً
وتقتلعهما بين الخطوة والخطوة وما تدرى من الألم أهما على الأرض
أم في الأرض تسوخان؟ وقد تزابلت أعضاؤها فما تحس أن فيها حياة
متماسكة وهي ما فتئت تحسب أن جسمها قد حُلق نعشا لقلبها فلا هذا
القلب يحيا كما تحيا القلوب ولا ذلك في الجسم ينمو كما ينمو الأجسام!
وفي رأسها عقل زاد فضل الله ورحمته في جهة منه ونقص عنف
الناس وقسوتهم من جهة أخرى، فبينما هي على ذلك تحمد الله، إذا هي مع
ذلك تلعن الناس؛ وهي مرة تنظر إلى الحياة فتري كل شيء في الحياة إلا
نفسها، ومرة تنظر إلى الموت فلا تری في الموت شيئاً إلا نفسها، ولم يكن

(١) هو ما يحيط بالصورة توضع فيه، ويسميه العامة البروان.

كتاب المساكين

يُمْسِك رَوْحَهَا بَيْنَ الْإِثْنَيْنِ إِلَّا حَيْطَانٌ : أحدهما من السماء وهو الأملُ في رحمة الله والآخَرُ من الأرض وهو إشفافُها على جثتها التي كانت تكدح منذ الصغرٍ لِقوتها، تلك الجدة الفانية التي كَبِرت وبلغت من الكِبَرِ حتى حَسَبَتْها الفتاةُ قد كَبِرت سن الموت^(١).

أما الآن فقد تبين لها الخيط الأبيض من الخيط الأسود، وانصدعت حفرة جدتها المسكينة ولم يبق لها إلا رحمة الله.

قال "الشيخ على": وكان خروج هذه البائسة أصيلَ يوم من أيام الصيف ذهب فيه طاوية على الجوع كما تغدو الطيورُ من وكنايتها^(٢) وملء بطونها هواء، غير أن الطيورُ تهزأ بالناس جميعاً وهي على ضَعْفها أقوى من الشرائع والقوانين، إذ تتبعُ وكأن كل طائر منها إرادة متجسمة تَقْذِفُ بها السماءُ فما تبالى على أى أرض تقع ومن أى حَبِّ تلتقط، ولا تعرف إلا أن هذا الإنسان يعمل على الشُّخْرة ليُخْرِجَ لها من الأرض رزقها رَغدا... أما الفتاة فكل الناس يهزأ بها، وهي ترى كلَّ إنسان على ملكه كأنه قانون وَّضِعَ لعقابها إذا حدَّثتها النفس حديثاً، فقد بلغت من الضعف والمرض والفاقة إلى حالٍ لا تجعل يديها تصلحان لعمل غير الأخذ؛ فإن اختلست قِبل سارقة فعوقبت، وإن سألت قِبل متشردة فكذاك! وياليت فى قلب هذا الإنسان من معانى الصفح بعض ما فى لسانه من ألفاظ القصاص، ولكنه حيوان متكلم فننصرفُ فطرته الحيوانية أكثر ما تنصرف إلى لسانه كما تتمثلُ هذه الفطرة من سائر الحيوانات فى حواسِّها التى تَبْطِشُ بها، وكلا النوعين سواء فى الافتراس والكَلْب والتوحش، فما

(١) كبر (بضم الباء)، عظم (وبكسرهما)، طعن فى السن

(٢) الوكنة كالوكن (بسكوت الكاف)، عش الطائر



اللسان إلا حاسة البطش العاقلة... وقلّما يؤذى الإنسان قبل أن يؤذى بهذا اللسان.

ولم تَز المسكينة أَرْوَحَ لنفسها المكدودة من الانتحار، وكأنما يُخالُ لها أن في الموت عيشاً، فخرجت تمشى بين الناس إلى قبرها كأنها فيهم جنازة وهم يشيِّعونها؛ ولئن كانت لم تُسَرَّ بالحياة فلقد سرها أن ترى تشييع جنازتها وهي حية تموت، ولا أقول وهي حية تُرزق؛ فإن العلة النازلة بها قد أخذت عليها مذهب الرزق حتى لم تترك لها في الناس "وجهاً"، وقبضت عنها الأيدي إلا تلك اليد الواحدة التي تأخذ دائماً ولا تعطى أبداً وهي يد الموت!

وإنها لتنفّيل وتلتوي على أحشائها من رجفة الجوع، وما تأخذ عيئها من الناس إلا من يَحِيلُ بطنه حملاً من شيع وريء؛ فكان نظرها إلى الناس أمّضَ عليها من الفكر في نفسها، وكأنها تُقتلُ من جهتين.

وكذلك أخذت سَمَّها إلى طرق النهر، وأمضت نيتها على الموت غرقاً، لتموت نظيفة، وتكون لنفسها غاسلة، وتُرسلَ روحها المتألّمة إلى السماء في دموع السماء!

ومشت تتساقط كأن الجوع والمرض يهدمان منها في كل عثرة زُكتا؛ أو كأنه كتب على كل بائس أن يموت في طريقه إلى الموت؛ وهي تتهصص من كل عثرة إلى أشد منها كما تتخطى العنكبوت في نسجها من خيط واهن يكاد ينقطع إلى خيط أو هنّ منه؛ وقد اجتمعت رُوحها في عينيها فهي تسيلُ على نظراتها الشاردة، وكلما امتدَّ بها المسيرُ قُصرت مسافة النظر حتى توهمت أن الموت باديء من عينيها؛ وإنما لكذلك إذ لَمَحَها طفلٌ قرويٌّ قد انقلب من المدينة إلى الضاحية التي غادر فيها أمه العمياء،

كتاب المساكين

وكانَ يَعْتَمِلُ طَوَالَ يَوْمِهِ فِي بَعْضِ مِنَ الْمَصَانِعِ أَوْ هُوَ يَحْمِلُ طَعَامَهَا الَّذِي لَمْ يَبْنِهِ إِلَّا بِبَيْعِ نَفْسِهِ يَوْمًا كَامِلًا، عَلَى أَنَّ الْمَسْكِينِ لَا يُحْسِنُ مِنَ الذَّلِّ أَنَّهُ اشْتَرَى نَفْسَهُ بِمِقْدَارِ مَا يُحْسِنُ مِنَ الْعِزَّةِ أَنَّهُ ابْتَاعَ إِدَامًا وَرَغِيفِينَ وَقِطْعَةً مِنَ الْحَلْوَى.

قال الشيخ علي: وَبَصَرَ هَذَا الطِّفْلُ بِالْفَتَاةِ، وَأَدْرَكَ أَنَّ رَوْحَهَا تَخْطُو فِي أَنْفَاسِهَا، وَأَنَّهُ الْجَوْعُ لَا غَيْرُ وَهُوَ مِنْ أَبْنَائِهِ، طَالَمَا شَدَّ عَلَيْهِ حَتَّى انْطَوَى، وَلَئِنْ لَعَمَزَاتِهِ حَتَّى التَّوَى، وَمَا يَعْرِفُ أَنَّهُ ابْنُ أَبِيهِ وَأُمِّهِ، أَكْثَرَ مِمَّا يَعْرِفُ أَنَّهُ ابْنُ فَقْرِهِ وَهَمِهِ، فَابْتَدَرَ^(١) إِلَى الْمَسْكِينَةِ، وَكَانَتْ حَرَكَةُ الْحَيَاةِ فِيهَا أَسْرَعَ مِنْ حَرَكَةِ أَضْرَاسِهَا فِي طَعَامِهِ، ثُمَّ ذَهَبَ لَا يَعْرِفُ مَا صَنَعَ، لِأَنَّهُ طِفْلٌ؟ أَوْ لِأَنَّهُ فَقِيرٌ؟ لَا أَدْرِي!

غير أنني أعرف أنه لا يَسَلِّمُ مِنْ لَوْمِ النَّفْسِ فِي صِنْعَةِ الْمَعْرُوفِ وَتَطْوِيلِ الْمَنْ بِهِ وَتَعْرِيزِ الْحَدِيثِ فِيهِ إِلَّا الْأَطْفَالَ وَإِلَّا الْفُقَرَاءَ، أَوْلَيْكَ لِأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْثِرُونَ الْخَيْرَ، وَهَؤُلَاءِ لِأَنَّ الْخَيْرَ مِنْهُمْ غَيْرُ كَثِيرٍ.

وانطلق الطفل وهو يلوى رأسه ويفكر في أي خديبه تقغ عليه اللطمة الأولى من أمه، لأنها لا محالة مُتَوَعَّرَةٌ بِهِ^(٢)، ستحسبه اقتنرف إثمًا فطرد من علمه، وانقطعت به طريق أمله وإلى أن يأتي الله بالصبا الذي يُنِيرُ بَرَهَانَهُ، وَيُثَبِّتُ لَهَا إِحْسَانَهُ، يَكُونُ هَذَا اللَّيْلِ، قَدْ صَبَّ عَلَيْهِ الْوَيْلُ، وَهَكَذَا جَعَلَ يُشْهَدُ عَلَى مَا سِيلِقَاهُ فِي سَبِيلِ الْخَيْرِ، بَدَلًا مِنْ أَنْ يُشْهَدَ النَّاسُ عَلَى مَا لَقِيَ غَيْرَهُ مِنْهُ فِي هَذَا السَّبِيلِ مِنْ إِحْسَانِهِ وَإِيثارِهِ، لِأَنَّهُ طِفْلٌ؟ أَوْ لِأَنَّهُ فَقِيرٌ؟ لَا أَدْرِي!

(١) أي عجل إليها

(٢) أي متشددة في معاملته كما يقولون.



أما الفتاة فأرسلت في أثره حية ولم تجزِهِ غيرها، بل جعلت جزاءَ عمله من عمله نفسه، لأن ثرثرة الفقراء في الشكر على المعروف كهذيان الأغنياء في التَّبَسُّط على المنِّ به: كلاهما لا يكونُ إلا من حُبث أولوْم، هي فتاةٌ أقدمتْ على الموت ولم تُقَدِّم على السرقة، وإنما لتعلم أن من أحيائها فكأنما أحيانا الناس جميعًا، ولكنها رأت الطفل غيرَ أهل لأن يعرفَ موقعَ إحسانِهِ من نفسها، لأنه طفل؟ أو لأنه فقير؟ لا أدري!

ولما أمسكتْ عليها النفس وراجعتْ الحياةَ بدلها فيما اعتزمتْ من الانتحار، فترددتْ وجعلتْ تُساوِرُها الظنونُ، وحُلِق لها من معدتها عقلٌ جديد يُبصِّرُها فرقَ ما بين الجوع والشُّبع، وكذلك تُعرِّضُ لبعض الناس حالات من الحرص يعقلون فيها ببطونهم، حتى إن أحدهم لو تحسَّس رأسه وهو يفكرٌ لحسبه بطنًا صغيرًا من العظم... فأنشأت الفتاة تستقيم على طريقها وهي تُؤامرُ نفسها على الحياة والموت، وقد بدأت تهضم في معدتها الطعامَ والعزيمةَ جميعًا، ومات الذي كان بينها وبين الموت!

وبينا هي تسير نظرت في عُرض الطريق سيدة لو لبس معنى الغنى لفظًا ما لبس غيرَ اسمها، ولو كان للكبرياء رسم ما رأته غير رسمها، وقد أورثها الغنى ذلك الغرور بنفسها، حتى توهمت أنها في الأرض أخت شمسها وبلغت في النعمة من الحق والبطر، بحيث جعلت نفسها كالسماة متى تعبس وجهها استهلَّت لعناتها كالمطر، وهي من أولئك اللواتي يخرج الغنى معهن في الطريق لا حارسا ولا منعما ولكن للكيِّد والفتنة، فتنة المساكين وكيِّد الحاسدين، فخرجت في زينتها وكأنها حانوت جوهرى... وهي نصف^(١) من النساء ولكنها تتصابى، فكأن في وسامتها وابتسامتها

(١) هي المرأة بين الحدثة والمسنة، أو التي بلغت خمسًا وأربعين أو خمسين سنة.

شَبَابٍ عَشْرٍ فِتْيَاتٍ جَمِيلَاتٍ!.. وقد ذهبْتُ في أوضاعِ جسمها مَذهَبِ هندسيةٍ بينَ المُستدِيرِ والمُستقيمِ والمنحني... حتى ظَهرت كأن نِصفَها من اللّهِ ونِصفَها من الخِيَّاطَةِ... وإذا رأيتَ جَمَلَتها رأيتَ روضةَ الجَمالِ بألوانها وأزهارها ولكن... مصورة، فإذا انتهيتَ إلى وجهها رأيتَ للحسنِ هناك شَهادَةَ عَلى اللّهِ ولكن... مُرَوَّرَةً؛ وعلى الجَملةِ فُقدَ جَعلها حَسَنًا المَالِي في رأَى نَفسها كَالشَّرَائِعِ: لا جَدالَ فيها إلا من زَنديقٍ...

ورأتها الفتاةُ كما تنظرُ المرأةُ إلى المرأةِ بعينِ جامدةٍ ليس فيها لغةٌ ولا فلسفةٌ ولا شعرٌ، فقالت: يا لها سعادةٍ أن تكون هذه "العجوز". لا تتقدم في عمرها إلى الإمام ولكنها ترجع إلى الوراثة، وإن تظهَرَ بين الناسِ حَسَناءَ وإن كانت من القبحِ بحيث ذهب نصفُ نهارها في النُحسِ، وأن لا تجد من همومِ الدنيا أكثرَ من همِّ الألفاظِ إن قال الناسُ غيرَ حَسَناءَ أو قالوا غيرَها أحسنَ منها؛ وبِالهِ من شِقاءٍ أن تكون هي كما هي وأكون أنا كما أنا!

ثم رمَتْ بعَينِها إلى السَماءِ وانحرفَتْ تُواجهُ تلكَ السَيِّدةَ، فما تَبَيَّنَتْها هذه وألَمَتْ بما في نَفسها حتى انقبضَتْ كأنما أثارت الأَرْضَ في وجهها دابةً جامحةً، وجعلت تَنحاماها وتلُو ذَهنها هَنا وهَنا وتَحَسَّتْ قَدَمِها كأنها لِقَاءَ خَطرٍ شَديدٍ؛ غيرَ أن الفتاةَ ملأتَ عليها الطَريقَ بحركاتها فكانت وجهها^(١) كيفما أمَّتْ أو انحرفت يَمَنَةً أو يَسَرَةً وكأنما تُطارِدُها مطاردة!

فلما عَيَّثَ السَيِّدةُ بأمرها وغازَ الفقرَ نَعمتها وهاجَ فُضولُ الفتاةِ حَتَقَها وكَبِرياءَها، وقفت لها وقفةً القِضاءِ عابسةً الوجهَ شامخةً الأنفِ

(١) أي أمامها، وكيفما أمَّت: أي استقامت.



يكاد يستيفضُ الناسَ طَرَفَهَا^(١) وتكادُ تَمَيَّزُ من الغيظ، وتدل هبئةً وجهها على أن وراء شفتيها امرتجتين كلماتٍ أحدٌ من أنياب الوحش؛ فلم تبال الفتاة وبقيت رثاها واسعتين للهواء^(٢) إذ ليس بعد الفقر خوفٌ، ودلَّقتُ إليها باسطة اليد وهي تكاد تُزلقُها ببصرها، حتى إذا وقفت بإزائها خفضت رأسها وقالت:

- سيدتى! أدام الله نعمته عليك وهناك هذه النعمة بدوامها!

- هي دائمة، وما أنت والنعمة؟

- سيدتى! وقاك الله ما أنا فيه من بأساء الحياة ولا كتب عليك أن

تعرفى ما هي!

- فلماذا أنتِ وأمثالكِ فى الحياة إذن أيتها الحمقاء؟ وهل يُكتبُ تاريخ

البؤس إلا فى صفحة من مثل هذا الوجه؟

- سيدتى! ألا مهلا مهلا وانظرى إلى ينظر الله إليك!

- قد نظر الله إليك من قبلى!

- سيدتى! هبىنى خادما أحسنتِ إليها!

- فلتكونى خادما طردتها إن بلغت أن تكونى خادما لمثلنا!

- يا وويلتا! ألا رحمة فى قلبك فتجودى على بما لا بأس عليك منه؟

- ولماذا أفضلكِ على سائر الفقراء؟ ينبغى أن أجود عليهم جميعًا إذا أنا

جدتُ عليك، ولو فعلتُ لطلبتُ بعد ذلك من يجود على!

(١) إذا رآوها أرددوا من هبئتها

(٢) إذا اشتدت الهبة على إنسان ضاق نفسه، ولذلك يقال: ارتفعت رثاها إلى حلقة: كناية عن الهبة.

- سيدتى! ألا فاجعلينى من نصيبك فى الإحسان وغيرى من الفقراء له غيرك من الأغنياء، على الموسع قدره وعلى المقتر قدره!

- إذًا فكونى أنت من نصيب غيرى ودعى غيرك لى!

- سيدتى! ليس فقرى عن خطيأ منى وليس غناك عن صواب منك، وما الرزقُ يا سيدتى من فضل الحيلة!

- وهل أنا أريد أن أعاقبك فتنتنفى من الخطأ؟

- رُحماك واتقى الله فى الإنسانية، فلعل فى قصرك البادخ كلبة جعلتها

أحسنَ حالاً منى!

- حينما تصيرين مثلها فتعالى إلينا ويومئذ تعرفين كيف تطرد الكلاب!..

قال "الشيخ على": فكبر ذلك على الفتاة وانتبهت فى نفسها فضيلة الفقر وحكمته، فرأت أنها تنظر من ضمير تلك السيدة فى مرآة مقلوبة من مرآتى الإنسانية؛ مهما جَهدت أن تستقيم لها لم تزدها إلا مسخاً، هنالك غلبتها عينها وانطلقت وراء دموعها ولم تجد لها عزماً.

أما السيدة الكريمة- كما يقال- فابتلعت ما بقى فمها من تلك الفلسفة؛ وافتر ثغرتها قليلاً عن ابتسامة السخرية، وسرّها أن يكون فى لسانها كل هذا المنطق... ثم أنغضت رأسها بكبرياء وقالت: "وسكينة، وسكينة!" ومرت بعد ذلك لا تلوى وما يخطرُ لها إلا أنها نفضت نعلها...

وسمع الله قولها إذ تجادلُ الفتاة وقد ربّت فى ثيابها من الغيظ وتنفشت كالإسفنج، فأطلق عليها دموع البائسة؛ وإن هذه لتأش راحة فى البكاء لم تعدها من قبلُ فانزوت إلى جانب من طريق وجعلت تبكى، ثم تبكى؛ ثم تبكى؛ حتى لو جُمعت دموعها لعمرت منها، وقد جمعها الله



وأرصدتها من أقداره لتلك الإسفنجة وقضى ربك ألا تُعصِرَ بعد اليوم إلا
دموعاً^(١).

كانت للسيدة فتاةً كطلعة البدر في الرابعة عشرة، لا نصفها إلا
مرآتها، وهي الدنيا مجموعة في قصرها، وكأنها في النعمة مستقبل
نفسها وماضى أمها؛ وكانت في هذه السيدة عقيماً ولكن شدت معها
الطبيعة لأمر أراد الله فولدت لها الفتاة وكأنما انشق لها القمر، ولم
تذكرها في نفسها إذ كانت تحاور تلك المسكينة بل ذكرت خادمتها
وأنت في هذه الذكرى. ومن شؤم الغنى على أهله أن لا يذكرهم في الشر
إلا بأنفسهم، ولا يُسبِّهم في الخير إلا أنفسهم، فلا يعلمون أن الفقر
أنواع كثيرة. وأن الغنى نفسه نوعٌ من الفقر إلى الله، وبذلك ينظرون
إلى المساكين تلك النظرة التي لا تخلو من بعض معاني القضاء والقدر.
كأن الألوهية درجات جعلهم الغنى في واحدة منها؛ فما ظنكم أيها
الأغنياء برب العالمين؟

وانكفأت السيدة إلى قصرها فإذا فتاتها تنتفض من وغكة الحمى،
وهي في سريرها كقلب أمها في اضطرابه والتهابه، وما تعلم من أين
اتصلت بها الحمى ولكن الله يعلم؛ ولئن كان البعوض مما يُعدُّ في أسباب
هذا المرض فلقد كان كلامها للفتاة يُنفِّرُ منها كما ينفر البعوض من
مستنقع... فخرجت المرأة عن رشدها وضاقت عليها الأرض بما رحبت،
ولقد تكون المصيبة جنوناً وإن لم يكن من أسمائها الجنون! على أنها لم ترَ
ملجأ من الله إلا إليه فابتدرت تدعوه! وضرب الذهول بينهما وبين اللغة

(١) يحسب المخلون من الأغنياء أنهم حين يهينون فقيراً لا يهينون إلا فقيراً ولا يدرون أن الله يمتحن
بمن يحمل حكمة من يحمل نعمته، ولو عرفوها لصلح هؤلاء وهؤلاء فإن الحكمة الإلهية في
الفقراء نعمة في بعض أشكالها، والنعمة الإلهية في الأغنياء حكمة في بعض أشكالها.

كتاب المساكين

ومُسيحت من وعيها فلا تردّد غير هذه الكلمات. يارب! يارب! ابنتى ماذا جنت؟ "مسكينة مسكينة!"؛ "مسكينة! مسكينة!"

وجاء الطبيب كأنما أطلق فى قبلةٍ مدّفع ضخم... فأسرعت إليه وهى تقول؛ ابنتى ابنتى أيها الطبيب "مسكينة! مسكينة!" ثم مرت أيام وبنيتها مريضة وهى مريضة ببنتها، فكانت كلما نظرت إليها ملتبهة ذائبة تخايل الموت فيها لم يُجر الله على لسانها غير هذه الكلمات: آه يا ابنتى! "مسكينة! مسكينة!"

قال "الشيخ على" وضرب الدهر من ضرباته وخرجت الفتاة البائسة ذات يوم وكانت قد أصابت عملاً فتردّم جانب من حالها؛ وبينهاى تمشى مطمئنة رُفَع لها شبح أسود فى عُرض الطريق، فجعلت تُدانبه حتى حاذته، فإذا هى بسيدة الأمس وقد حال لوئها، واستحال كوئها، وعادت من الهمّ كأنها ظل منتصب فى سواد، وظهرت من الحزن كأنها تمثال منصوب للحداد، وهى تلوح من الذلة والانكسار كأنما مات بعضُها وبقي بعضها، وكأنما كانت حياؤها من الأزهار فذهب ربيعُها وروضها، وبقي جذرها وأرضها!

فما تبيّنتها الفتاة ورأت ما نزل بها حتى نفرت دموعها حزناً، ثم رفعت عينيها إلى السماء وقالت:

ياربها! "مسكينة! مسكينة!"...

كذا يضح الإنسان الكلمة لمعانى الله فيكذبُها بمعانيها، وياربّ كلمة ملفوظة وفيها لله كلمة غير ملفوظة!

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تَوَكَّلْ عَلَى الْمَلِكِ مِنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكِ مِنْ تَشَاءُ وَتَعَزُّ مِنْ تَشَاءُ وَتُذَلُّ مِنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾



لؤم المال ووهم التعاسة

قال "الشيخ على":

وأنت يا بني ما إن تزال تُصِف الدنيا بلون لا أرى كيف أسميه، فلا هو
من وجوه أهل الحسد فأقولَ أصفر، ولا من قلوب أهل البغض فأقولَ
أسود، ولا من صدور أهل الدم^(١) فأقولَ أحمر، ولا من شيء أعرفه لأنه
ليس شيئاً يُسقى، وعلمَ الله أن من يَهوى في جهنم سبعين خريفاً وعيناه
تُدوران في رأسه، لا يُبصر من حيث ابتدأ إلى حيث ينتهي شراً من وجه
دنياك!

إنك يا بني تُصوِّر الأرض لا أرضاً ولا ماءً بل قلوباً ودموعاً، وتعرفها
لا دُولاً ولا أمماً بل آلاماً وحوادث؛ فكان هذه الأرض العظيمة تحتاج إلى
وقدتين من قلبك ومن الشمس، وإلى نعتين من خيالك ومن الفضاء،
قدريين من حزنك ومن الأبد؛ ومن ثمَّ فلا عجب يا بني إن كان مركز الثقل
فيها على وهمين: على محورها^(٢) وعلى ظهرها...

هَيْهَات لقد أسزفت على نفسك الضعيفة وجعلت هذه الخِصاة الهَيَّنة
تحت مطرقة الزمن فما تزال رُحوا مُنبعثاً مُستزسلاً في اندفاق ولبين،
كانك رجل من العجيين، وكم تقول لي: (فلان، وجاهه العريض. ودهره
المريض...

(١) أي النار

(٢) محور الأرض خط متوهم.

كتاب المساكين

... وانظر إلى (فلان) كيف جعله الكبر يذكُرُ منا ويَنسى، وكيف أصبح من الغنى وأمسى..

... (وفلان) كيف تَمُرُّ من فُرَج أصابعه سفنُ الآمال، في تيار المال، كأن يده قنطرة على نهر الأقدار، أو جسرٌ تعبُرُهُ حطوطُ السماء إلى أهل هذه الدار...
(فلان) قبحه الله! كيف صار شيطانه في لسانه، وطول عمره في لسانه، وكثرة ماله في قلة إحسانه...

... (فلان) أخزاه الله فما بَرَّ ولا تَفَع، بل تفرَّق بالحرص ما جمع وطمع في كل شيء حتى في الطمع...

... (فلان) الذي جمع وعَدَّد^(١) وخلقه الله واحدا وهو في الرذائل يتعدد، وقد انتفخ كأنه شفق إسرافيل "وامتد كأنه يد عزرائيل، واستكبر كأنه فرعون على النيل..."

... (وفلان) وما أدرك ما فلان؟ جبل شامخ والناس في سفحه رمال ومجد باذخ ولا مجد لمن ليس له مال، وهو في أهل الغنى الأليف والباء، وإن قيل في غيره (ابنُ نعمة) فهو في أهل النعمة أبو الآباء؛ على رأس عظيم كأنه ركن الكعبة الذي يتوجُّه عُبَادُ الغنى إليه، وقامة بائنة^(٢) كأنها لجاه صاحبها قطعة من المحور الذي تدور هذه الأرض عليه؛ وهناك أنف أما في السماء فله منزلة، وأما في الأرض فعطسته زلزلة، ينفُضُ الناس من رهبته نفصًا، ويفرش الوجوه من هيبتِه أرضًا، وكأنه في تلك الكبرياء ميزان معلق يرفع من ناحية ويخفض من ناحية بل كأنه في ذلك الوجه القفر جُحر للنحس تختبئ فيه الداهية!

قال "الشيخ على": وما أنت يا بني وهذه (الفلانات) وأمثالها؟ إن

(١) أي جمع المال وعدده.

(٢) ظاهرة بطولها أو جلالها أو نحو ذلك مما تبين به سواها.



هؤلاء الناس بعضُ أعمال الله في أرضه، فهو يخلقهم وينشئهم ويديرهم لتعلق طائفة من الأقدار بنتائج أعمالهم طردًا وعكسًا فما أشبههم بدابة الطاحون: تلزم دائرتها ولا تفتأ تدور إلى غير انحراف، ثم هي لعلها حين تسمع ذلك الهزيز وتلك الجعجعة تحسبها من نشيد الاحتفال بها...

فهم قوم مسخرون فرشهم الله أمرًا من أمره^(١). ويسرهم لما خلقوا له، فضرهم بالحرص والطمع ضربة جبار لو نالت السموات والأرض والجبال لأشفقن منها، وجاءهم الحرص بهذا المال، أما الطمع فجاءهم بماذا؟ جاءهم يا بني؟ لو قلت بصدأ القلب، وهرم النفس ودناءة الطبع، ولو قلت بكل ما في الحشرات من القذر. وبكل ما في السباع من الضراوة، وبكل ما في الدبابات من السموم- لكنت عسى أن أقارب الوصف؛ ولكن المعنى الذي يتلجلج في نفسى أكبر من ذلك كله.

غيرَ أنى أقول لك يا هذا: إن ثلاثة من المتجاورات يفسر بعضها بعضًا: الحرص مع الطمع؛ ثم المالُ وردائله، ثم ما في المعدة وما في الأمعاء... أتحسب أن هذا العالم يحفل برجل من الأغنياء قد أجحف^(٢) به الدهر وطحنته النوائبُ بأرحائها، وجاءه بعد الدنيا الموثثة يومه المذكور^(٣)، وتركته الأقدار أسودَ الحظ لا بيضاء ولا صفراء^(٤)؟ فلم لا يعدو الغنى شيئًا دون المال ويحسبونه كلَّ شيء مع المال؟ لعل الحقيقة أيضًا ذات وجهين في الناس!...

هو المال، المالُ وحده لا غير؛ فنحن نحتاج إلى الغنى صاحب المال

(١) أوسعهم إياه ومكنهم من التقلب فيه.

(٢) أجحف بهم الدهر واجتحفهم استأصلهم، والمراد هنا استئصال النعم.

(٣) يقال يوم مذكر: أى شديد صعب، وقد زدنا عليه الدنيا الموثثة. أى اللينة المواتية المقبلة السهلة

(٤) لا درهم ولا دينار أو فضة وذهب.

كما نحتاج إلى بائع الملح... وما أشبهنا في إطرانه وفي الزلفى إليه بأطفال القرية إذ يتزلفون إلى بائع الحلواء التي تُلَفُّ بالعصا، وإذ هو واقف بينهم بعصاه وحلوائه كأنه الهبلُ الأعلى^(١)؛ هو- مَنْ تعلم- دَسَمُ الثوبِ ترب اليد قِذْرُ التفصيل والجملة، يصلح أن يكتب على وجهه "متحف الميكروبات المصرى"؛ ولو رآه طبيب لجعل عصا الحلواء على رأسه تفاريق، ولكن أين لا أين الطبيب فى هذه الاجتماع؟

كل أطباء الاجتماع ألسنة وأفلام ومحابر؛ أما اليد التي تزيل المنكر أو تغيره فلا أراها تمتد إلا من جانب الأفق ولا تعمل إلا بعون من الله وملائكته وقد انقضى عصر الأنبياء!

قال "الشيخ على". فإن لم يكن الغنى إنسانه من الناس يواسيهم ويسعدهم ويتخذ من المال سبيلاً إلى أفئدتهم بالإحسان والمساعدة، ويأخذ لنفسه بقدر ما لها ويُعطى من نفسه بقدر ما عليها؛ وإن لم يكن وجهه مرآة الفقراء يبصرون فيها ابتسامَ الدهر على وجوههم العابسة، ولم يكن ذهبه عند دموع البائسين وعند أنفاس المحزونين، ولم يكن اسمه فى دَعَوَات المحتاجين وفى ألسنة الشاكرين- فقد أصبح عندي كأنه لا شخص له، بل هو شخص له لعنة من لعنات الله والملائكة والناس نُفخت فيها الروح، وهى اللعنة أى مُنْقَلَب تَنْقَلَب.

ما أشبه المال أن يكونَ آله من آلات القتل، فإنه يميثُ أكثر أصحابه موتاً شراً من الموت- إلا من عَصَمَ الله- موتاً يجعل أسماءهم كأنها قائمة على ألواح من العظام النَّخْرة، ويُرسلها كل يوم إلى السماء فى لعنات لا عداد لها، ثم يُثبتها فى التاريخ آخرًا لا بأعيانها ولكن بعددها، أو كما تثبت

١١ صنم كان فى الكعبة.



الحكومة فى كل سنة عدد البهائم التى نُفقت بالطاعون... فهذا الشخص الميِّت وهو بعدُ فى الأحياء لا يبلغ فى قدر نفسه على الحقيقة أكثر من مقدار حجمه من... من... من جيفة حمارا...

يا بنى! ربما كان الرجلُ نباتَ نعمةِ الله لأنه سيكونُ حَصَادَ نِقْمَتِهِ، فهذه، منزلة من البؤس و الخذلان يُستعاذ بالله منها، وكم رأينا من أناس تُحَصِبُ أبدانهم حتى ليضيقُ بهم الجلدُ كِدنةً وسمناً ويكاد أحدهم ينشقُّ مرحا ونشاطا، ثم لا يكون هذا الخصبُ الذى استمتعوا به شَطْرًا من العمر إلا سببًا فى أمراض مهلكة تستوفى الشطرَ الآخر * ذَرَّهُمْ يَا كُفْرًا وَيَتَمَتَّعُوا وَلِيَهُمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْمَلُونَ *

وإن خطأ كبيرًا أن تقضى لفلان من (فلاناتك) بمتاع الدنيا، فإنك لا تدري أشر أريد به أم الخير، وكيف تحكم وبيك على غناه بفقرك، وعلى أماله بياسك، وعلى شخصه بظلك، وعلى نهاره بليلك، وعلى عمره كله وهو بعدُ حى يُؤوِّفُ عمره ولا تدري ما عسى أن يكون له فيما بقى؟

ألا دَعُهُ حتى يستنفد أيامه المكتوبة ويستوفى أنفاسه المقدرة، فلعل مصيبتَه قادمة فى الغيب وكان غناه مقدماتها؛ وعلى قوة المقدمة تقاس قوة النتيجة؛ فإذا مات الغنى ولم تعرف فى جملة عمره هما ولا عما يعدلُ بؤس الفقرِ مهما اشتدَّ الفقر، فكفى حينئذ بالموت من تلك الجملة، وإنما الحياة مدة ستنقضى، فسواء انقطع الخيط من أوله أو من وسطه أو من آخره، فقد انقطع^(١)!

تقول إن لهم متاع الحياة؛ ولو أنصفت لقلت إن لهم بؤسها الممتع!

(١) إذا مات الغنى وطوته الأرض، فأفقر من على ظهر الأرض أغنى منه؛ فهذه جهة من غنى الفقراء لا يساويها غنى ومع ذلك لا ينتبهون إليها.

فإنهم يجمعون المال من طرق لا تؤتية إلا نكدًا ثم يرسلونه فى طرق أخرى ليجمعوه، وهلم كما تدور دابة الطاحونة، وهب أنهم لا يألمون كما تألم فإن يد الله غمزتهم من مكان قريب غمزة مؤلمة، وما أحسب الضجر من اللذات قد خلق إلا للأغنياء وحدهم، وناهيك من بلاء يغمر النفس بالنعيم صنوفًا وألوانًا حتى يتنكر لها معنى النعمة فتراها وقد تابرت عليها، الضجر متكرهه ولكن لا تريد الكراهية، ومتسخطة ولا ترغب فى السخطة، ومتألمة ولا تعرف ممّ ألمها، ولا تبرح دائبة تلتمس نعمة لم يخلقها الله، لتحدث منها لذة لم يعرفها الناس.

ولولا هذا البلاء وأنه ما وصفك لك، لما أصبت على الأرض غنيًا كهؤلاء الوارثين: تضرب به كل لذة وجة أختها فتسلمه الواحدة إلى الأخرى ويجذبه بكل حروف الجرّ، من وإلى وفى وعلى، وبين الخمر والقمار والفسق وما لا يحسن أن يسمّى، حتى تسلمه اللذة الأخيرة إلى الفقر أو القبر!

ولو أن (ضجر اللذات)، يصنع بكل الأغنياء هذا الصنيع لفسد الكون، بيد أن الله أراد عمرانته فجعل فى طباع أكثر الأغنياء لؤمًا خاصًا، لؤمًا ذهبيا يكسر من سورة هذا الضجر، كما يفتأ الماء البارد من الماء الحارّ حين يمتزجان^(١).

فالقوم إما كريم يضجر فيسرف، وإما لئيم يضجر فيمسك؛ وكلاهما يحد لذته ويضجر من لذته، فهم كما هم ونحن كما نحن وكلنا سواء كما ترى وكان أمّ المصيبة حين ولدت وضعت بنتين: المصيبة التى تؤلم، والنعمة التى لا تُلذ!

(١) كلهم بين اثنين: لؤم النعمة فى أولئك، ولؤم المال فى هؤلاء.



وليس أشقى ممن مُنِع السعادة وأعطى الرغبة فيها إلا الذى أعطى
السعادة ومُنِع اللذة منها!.

فلا تقل يا بنى إن العصا لظهور الفقراء وحدهم، فإن هناك السوط
أيضاً، وهو رتبة عالية فوق رتبة العصا؛ ولذلك حُصَّ بشرفها... الأغنياء!
وانظر وبلك: هل ترى الفرقَ بعيداً بين الضجر من شىء لأنه موجود،
وبين الضجر من ذلك الشىء لأنه غير موجود؛ وبين عدم الشعور باللذة،
وبين الشعور بعدم اللذة؛ بين ألم الغنى الذى لا تجده أبداً إلا على شكٍ فى
أنه سعيد، وبين ألم الفقير الذى لا تجده أبداً يشك فى أنه تعس؟

قال "الشيخ على" وتسالنى عن التعاسة: ما هى؟ وكيف هى؟ وتريدنى
على أن أبتغى لك مما بين ظاهرها وحقيقتها؛ ألا فاعلم يا بنى أن هذه
الكلمة حقيقة بأن تُنسى نفسها، وما أدعى أحد معرفتها إلا لأنه لا يجد
أحداً يعرفها، وكل شىء مجهول فما أسهله أن يكون من علم كل جاهل،
وما اصعبه أن يكون من جهل كل عالم، وإنى لأرى الناس يأتون فى وصف
التعاسة بكلام كثير، وما أهونها إذن لو أن كل إنسان يُحسُّ من وصفها
بهذه السهولة.

لقد أَلَفَ هذا الإنسان من عهد القبائل فى الاجتماع الأول أن يطوى
العالمَ كلَّه فى قبيلته، ويجمع القبيلة كلها فى نفسه، فيزعم أن "كل
الناس" يعرفون كذا، "وكل الخلق" يقولون كذا وأن "الدنيا كلها" و"كل
العالم"...

وعِلِمَ الله ما فى الدنيا ولا فى العالم من يعرف أن يقول غيرُه أو هو
مع غيره من ذوى جماعته إلا اثنين أو ثلاثة أو جماعة منهم، ثم بقى ذلك
ميراثاً فى أخبار الجهلاء وأوصافهم وفى كلام أهل المجازفة إلى اليوم!

ولكن إن شئت أن تعرف التعاسة- ولا أقول ما هي (حَرَ سَكَ اللهُ) ولكن ما عِلْمُهَا- وإن شئت أن تسمع لها وصفاً آتياً من جانب السماء، فالتمس في دار الهموم من لم يبق له هم يحمله إذ يكون قد احتمل كلَّ هم، فإن مثل هذا المخلوق- الذي لا تعرف أهو حى فى ثيابه مَيِّتٌ فيما وراءها أم هو مَيِّتٌ فى ثيابه حى فيما بعدها- متى استفرغَ دمعَ أجفانه ومات البكاء فى عينيه، خلق الله لسانه ألفاظاً كالدمع ولغةً كالبكاء ومعانى هى فى جملتها أوصافُ التعاسة على الحقيقة؛

وأين تحسبك واجدا هذا المخلوق الملهَمَ المسخَّرَ الذى كأنما ينضغُط بين الأرض والسماء لشدة ما يجد من حطمةِ هذه الدنيا- حتى تكتبَ من تاريخه فصلا فى ذلك المعنى، وحتى تُخْرِجَ من لغة الأقدار ما يصححُ لفظا واحدا من لغة الناس؟

ألا إن الأرض لا تشهدُ كلَّ يوم نبيا مثل أيوبَ يَمْتَحِنُ اللهُ صبره امتحانَ الألوهية للنبوة، وإذا لم تكن المصيبة- رعاك الله- كأنها فى باب النعمة تاريخ غير إنسانى؛ فإن بينهما وبين معنى التعاسة الذى يَضْحُجُّ الناسُ منه كالفرق بين رؤية السيف مسلولا على العنق وبين رؤيته فى العنق^(١).

ولقد أعرِفُ رجلاً من أهل الفقر النظيف أعطى ابنته قطعة فيها، عشرة قروش، وأرسلها تبغى بها رزقا من الطعام، فأضاعها فكأنما أضاعت عقلها، ضاقت عليها الدنيا، وحَيَّلَ إليها أن ليس على الأرض ما يَسْعُ طفلة... فلم تجد لها غِوَاثًا إلا فى الموت يَحُولُ بينها وبين أبيها، فجرعت

(١) فرق الإرهاب يخيف ولا يقتل وبين القتل يخيف ويمحق، والغرض من التاريخ غير الإنسان: ذاك الذى لا مكان فيه لرحمة الله؛ وهو تاريخ يتوهم ولكنه لم يقع ولن يقع.



من "الفنيك" جرعةً كانت فيها نُفسُها، وابتعدت عن أبيها ولكن بُعد ما بين الدنيا والآخرة!

فهذا مثالٌ مما يجلبُ الضعفاء على أنفسهم من التعاسة: تموتُ الفتاة، وتسيرُ الجنازةُ، ويفتحُ القبرُ، لعشرة قروش...

ويحدثُ في العالم هذا الفراغ، وتُخرِجُ الدنيا إحدى عجائب التعاسة، ويشهدُ الناسُ ذلك المنظر القاتل؛ وكل هذا لعشرة قروش...

ويقعُ للفتاة أمران أهونهما الموت، وأصعبهما الذي لا يُحتمل ضياع عشرة قروش!...

وما عشرة قروش يا بني؟ إنها قوْث حمار في يوم أو يومين، وتُسوة سكير في ساعة أو ساعتين، ولذةٌ فاسق في لحظة أو لحظتين، ولعنةُ الله على غنى لئيم في نفس من حياته أو نفسين!

ولكن يعلمُ الله كيف كانت في نفس تلك المسكينة من غلظة أبيها وقسوته وما تحشيت من بادرته وما حسبت من اضطغانه عليها، وكيف استحالت هذه القطعةُ تاريخاً طويلاً من الوسوس والأوهام حين أضععتها، فالناش ناشٌ لولا الوهم، وكان الوهم وهماً لولا الناس!

ولعمري ما الذي يجعل المرءَ جبانا في لقاء الحوادث حتى يخاف الحياة فيعودُ بالموت؛ ويضرب ما أقبل من دنيا بالذي هو مُدبر؛ أو يخشى الموت فيتعذب بالحياة ما أدبر منها وما أقبل؟

أما إنَّ ذلك ليس من فقر ولا غنى؛ ولكنه جِرْص على الحياة يُخالط بعضُ الأنفس ويستمكنُ منها حالةٌ بعد حالةٍ، فإذا هو قد انقلب في آخرة الأمر خوفاً من الموت، ثم لا يزال يحورُ ويئسى وهو ذلك يخلعُ القلب من

الإيمان الذي يَزِيْبُ عليه^{١١} واليقين الذي يَثْبُثُ به، حتى يبلغ بعد حين أن يكون خوفاً من الحياة نفسها؛ ومتى كان الحرص على الحياة قد صار خوفاً من الموت، ورجع الخوف من الموت مع ذلك البلاء خوفاً من الحياة، فهذه - أصلحك الله - حالة من الجنون تستلبُ العقل، وسواءً مَنْ أصيب بها ومن حُولط في عقله، وليس معها لهؤلاء الضعفاء كما يشهدون على أنفسهم إلا موتُ الجُبْن الذي يسمى انتحاراً، أو حياةُ الجبن التي تسمى ذلاً وخيبر للمراء أن يكون حماراً من صنعة الله وتعرفه الحمير، ومن أن يكون حماراً من صنعة نفسه وتكره الناس...

إن لنا على هذه الأرض حياةً واحدة علم أهل العلم أنه حقيقة مسرعة بين أوهام، فهي ما تبحر تجاهد كل شيء ولا تثبت أطول من مدة جهادها إلى أمد غايته أرذل العمر^{١٢}؛ وعرف أهل الجهل أنها تتقدم إلى الموت وأن الموت يتقدم إليها فهما لا بد ملتقيان. لا العلم ولا الجهل يرتاب أو يشك في الموت. ولا الفقر ولا الغنى، ولا الصحة ولا المرض ولا شيء عن خصائص الأحياء؛ لأنه ليس على الأرض حي قديم...

ولكن العالم والجاهل، والفقير والغنى، والصحيح والمريض، وكل هؤلاء يخافون الموت ويحرصون على الحياة إلا قليلاً منهم، فليتهم علموا أن النفس روحية وأنها تألم لهذا الخوف ولا تقار عليه؛ إذ هي لا تعرف الموت لأنها خالدة، ولكنها تعرف الألم لأنها في غير دار خلود؛ ومعنى ذلك أن الإنسان يخاف الموت، فيصل الخوف بالنفس، فترده إلى

١١ ربط الله على قلبه: ألهمه الصبر وقواه

١٢ الهرم وارتفاع السن



حوادث الحياة فتُخيفُهُ هذه الحوادثُ فيذلُّه هذا الخوف، ويأتيه الموت من كل ماكن وما هو بميت^(١).

ونحن إنما نَنصِبُ الحبالَةَ^(٢) ثم نرتبُك فيها ونضطربُ فكأننا لا نصيدُ إلا من أنفسنا، إذ لسنا نجهلُ أن للنفس حظا ليس للجسد، وأن الفارس لا يُربطُ في الإصطبل وإن كان جواده فيه، غير أننا مع ذلك نحاول أن نغذو النفس من اللذة الجسيمة، وأن نعلِفَ الفرس والفارس من طعام واحد... فهذا التناقضُ الذي نُسئُ به إلى أنفسنا هو الذي يجعلُ النفس خائفةً من الحياة إذ لا تجدُ فيها غيرَ ألم التعبُّد للأهواء والشهوات، ولا يصيب من الحياة إلا ما تستنذِمُ^(٣) به الحياة إليها؛ فلا يكون من ذلك إلا أن تُسئُ إلينا هذه النفوس بتناقضٍ آخر، فربما كان الرجلُ في النعمة السابغة قد أيقنت خضراؤها ثم لا يشعر منها إلا ما يشعر من المصيبة الماحقة؛ ومتى قزعت النفس من الحياة كما عرفت فلا هناة على ذلك الفزع، ولا تكون الحياة من ثم إلا موتا مستمرا أو خوفا من الموت لا ينقطع^(٤).

قال "الشيخ على": يا بني إن الحرص جبن، والجبن ذل، والذل استعباد، وما يدخل من هذه الأبواب إلا الشر، فكن حرا من الأهواء كما خلقت وكما

(١) إذا خفت عاقبة طريق أنت سائر فيه قطعت الطريق كله مضطربا خائفا وإن كنت موقنا أن ما يخيفك لم يأت بعد، ولكن علمك أنه آت هو سبب ما أنت فيه؛ فإذا مشيت في نور وروح وفضائلها لم يخفك شيء، وإذا مشيت في ظلمة شهواتك خفت من كل شيء: طبع لا تدري سببه، وسببه في نظام الروح ونظام الجسم ونظام الكون.

(٢) الحبالَة: شبكة الصيد، وارتباك الطير فيها. اضطرابه حتى يقع.

(٣) أي تدعو به إلى ذمها

(٤) المخ في الإنسان هو المسلط على أعضائه، والروح هي المسلطة على المخ؛ فإذا سخرته الروح في أعمالها استقامت الحياة، إذا سخرته الأعصاب انعكست الآية، وهذا هو الواقع، ودليله حسي لا مكابرة فيه، فالصالح ضعيف الشهوات هاديء مستريح، والسافل بالعكس، وكأنه من تعب الحياة يمشى في الأرض على رأسه لا على رجليه.

خُلقت الحرية التي لا قيد لها من رذائل الدنيا، فإنك لن تُزاع ولن تعرف مما يسميه الناس تعاسةً أكثر مما تعرف مما يسمونه سعادة، ولن تجد في مصائب الحياة ما يموت دونه الصبر الجميل؛ فإن عمرَ هذا الصبر أطولُ أبداً من عمر الصابرين!

لذلك لا يغضب الفيلسوف ولا يخاف الشجاع، ولا يبخل الكريم، ولا يذلُّ الأنوف، ولا يُنافق الرجل الحر، ولا يكذب الرجل الشريف؛ وإنما هذه مظاهر محدودة من حرية النفس، فكيف بالنفس إذا كانت حرة من كل أقطارها؟

وقديماً علم الناس أن من لا يُبالي بشهوات جسمه هو الذي يستريح وادعاً ويَتعب التعب في البحث عنه، وما علمت ولا علم الحكماء والأطباء غذاءً تَسمن عليه المصائب والأحزان إلا الحرص على الشهوات!

وليت شعري ما هي هذه الشهوات؟ أما إنها في الحقيقة نزعات طبيعية لا بدَّ منها بمقدار، لأن الطبيعة الإنسانية تعالج نفسها بما يُعيئها على البقاء^(١) وما يجعلها صالحةً له على الوجه الأفضل، فهي تُغري الإنسان مرة وتؤلمه مرة، وكلُّ ذلك ليُجلب لها أو يدفع عنها. فما تسميه لذة من لذات الجسم إنما هو علاج طبيعي من ألم طبيعي لا أكثر ولا أقل... كالأكل مثلاً: فما كانت الطبيعة تُغري به هذا الإغراء حتى فات عند أكثر الناس حدُّ اللذة. لولا أن الجوع إنحلال في الجسم، فإن هو أسرف عليه أو استمرَّ به أوقع فيه الفساد وركبه بالضعف علة بعد علة.

(١) ولما كان البقاء محدوداً بمدة، فالشهوات يجب أن تكون كذلك محدودة بمقدار؛ لتقع الملاءمة في موقعها ويحمل شيء شيئاً وتنتفع النفس بمدتها الحياة، فإذا خرج المرء عن طبيعة نظامه زادت طبيعته، فلا يزيدا ولكنها تنقصه ولا يصلحها ولكنها تفسده ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظُنُّمُ النَّاسَ سَعِيكًا وَكَذَلِكَ النَّاسُ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّمُونَ ﴾.



غير أن الإنسان بما فيه من شبه البهيمة ينجذب إلى طبع البهيمة غالباً، ونسى أن للبهائم وازعا طبيعياً وهو فضيلتها الخاصة بها، فأقبل يَزْتَعُ ما شاء، وجد به الحرص بمقدار ما يطمع فيه، وغلبه الطمع على بصيرته، فلا يكون في إنسانيته إلا بهيمة تتخيل وتتفنن ما لا ينفن إنسان ولا بهيمة، وما تجد من مستهتر بالشهوات إلا وجدته من أجل ذلك راضياً مغتبطاً يتمنى لو أنه في هذه الشهوات بهيمة البهائم كافة...

أف لهذه الدنيا! يحبها من يخاف عليها، ومتى خاف عليها خاف منها، فهو يشقى بها ويشقى لها، ومثل هذا لا يكاد يطالع وجه حادثة من حوادث الدهر إلا حُيِّلَ إليه أن التعاسة قد تركت الناس جميعاً وأقبلت عليه وحده، ولولا الخوف يزلزل قلبه لأدرك الفرق بين النَّسْمَةِ والعاصفة، وعلم أن اللفظة لا يلزم منها أن تخلق معناها، وأن ليس كل ما نسّميه تعاسة يكون في حقيقته من التعاسة.

وترى الواحد من هؤلاء لا يزال يُلوكُ لسانه^(١) في كلمات من التأميل والسخط والألم والثفرة وغيرها مما هو من لغة الحرص على الحياة، فهو على الأرض وكأنه يعيش في سحابة تجرى بها الريح، ولعمري كيف تهنأ الحياة مثل هذا إلا إذا كان أديم الأرض من ورق الزهر، وكانت مزابل هذه الدنيا رباصاً غنّاء، وعُدّت الطيور الجميلة من كلاب هذه المزابل...؟

كذلك لا يسعد أكثر الناس بالحياة ولكنهم يُشقون بالحياة والموت؛ ومن ثمّ ظلموا التعاسة فجعلوها أصغر مما هي، كما ظلموا السعادة فتوهموا أكبر مما تكون.

قال "الشيخ على": واعلم يا بني أن القدر وإن كان من السماء ولكن

(١) يحرك لسانه

تاريخه ثابت فى الأرض؛ وما كانت المصائبُ جديدة فى الحياة وهذه المحابرُ التى كتب منها تاريخُ الإنسان لا تزال كما كانت من قبلُ تَشْرِقُ بالدماء وبالدموع، ولا يزالُ الدهرُ يمد منها ولا يزالُ يكتبُ من هذا المداد: فمَمَّ يخاف هذا الإنسان الجديد وليس فيما ينزل به إلا ما نزل بمن قبله، وما هو بخالد ولا هو بمتروك لما يحاوله؛ ولقد علم يقينا أن الله لم يخلق مِقْرَاضاً يُقْلَمُ أظفارَ الموت؟ يريدُ من قَدَرِ الله زللا صافياً كأنه ماءٌ مُرْشَحٌ يصب من حياته فى كأس من البلور...! ويبتغى أن يكون فى الأرض تاريخاً جديداً سَلِيساً مُتَّقِماً ليس فيه شىء من تلك الألفاظ الجافية فى بُبُوها وُحْشونتها ألفاظِ التخريبِ والتدميرِ والتفتيلِ والجوعِ والمرضِ والأحزانِ والهمومِ ونحوها.

فأما أن يكون من ذلك التاريخ القديم الذى تُملِيه قدرَةُ الله على الطبيعة، ثم لا يكونُ إلا كالطبيعة نفسها فى النظم والنسق ولا يجرىء الإنسانُ الجديد فيه إلا طباقاً أو ناسخاً أو منسوخاً- فهذا موضعُ الثَّوْرَةِ ومكانُ الأذَاقِ ومنه مَثَرُ الهَمِّ وإليه مَشَرَبُ الدمع، وذلك والله معنى إن لم تنشأ منه تعاسة الإنسان فهو على كل من تعاسته.

الإنسان كلُّه يا بنى مُنْطَوٍ فى رأسه، وما هذا الجسمُ إلا أداة، منها ما يحمل الرأس، ومنها ما يحملُ إليه ومنها ما يحملُ عنه، فالجسمُ دابَّةٌ من الدوابِّ لا أكثر ولا أقل؛ والرءوسُ لا يمكن أن تُورَنَ بميزان حتى يُعلم فرقُ ما بين رأسٍ ورأسٍ آخر، فالإنسانُ مختبىءٌ مُحَجَّبٌ، وكأنه لا يزال منه جزء عند الله فما ينفك يجد من نفسه ما يبعثه على الثُّرُوعِ إلى الغيب والفكر فى المستقبل لأن هذا المستقبل تمام له، ولا يبرُحُ يشعر بالحياة شعورَ المتألم أو المتعب أو المكدود أو المغيظ أو المفرَّع أو أى ما



يكون من أشباهها، لأن هذا الحاضر غير تامّ به ولا كامل معه؛ وليس ذلك بعجيب، ولا من العجيب أن يألم الإنسان لحياته؛ ألا يرى أنه في جسم لا راحة للروح إلا بعد تحطيمه؟

ومن ههنا تَفَاوَتْ الناس؛ فمنهم من تراه كأنه يحاول أن يكشف عن جزئه الذي في الغيب ويَصِلُ بينه وبين حاضره، فيتوهم في الحياة ما ليس فيها ويُسَخِّرُهَا لأوهامه باطلا، ومنهم من يقبل على شأنه ويأخذ الحاضر بما فيه ويعرف أنه حتى ولكن على شروط لا بد منها للحياة.

فأما الجاهل الأحمق المخدوع فكأنما يرى في مرآة تحياله الغيب كلّهُ، أو ما يظنه الغيب كلّهُ، فلا يعدو أن يَسْتَرِيْلَ في ظنونه وأوهامه امترسالا أشبه بالأبد الذي لا حدَّ له، ومن ثم لا يرضيه شيء ما دام في هذه الحياة شيء لا يرضيه، لا يُقْبِعُهُ شيءٌ ما دام في الدنيا شيء لا يناله، وكلُّ مصيبة يخشاها أو يتوقعها فكأنما هي نازلة به أو قد نزلت، وعنده أن كل ما يمكن أن يكون فينبغي أن يكون، وما هو جائز فليس ما يمنع أن يكون واجبا، وما قيل إنه غير جائز فهو غير مستحيل، وما الذي يمنع أن يخسف به الأرض أو تقع عليه السماء، أو ينحدر إليه رجم من الشهب، أو يَنْهَتْكَ حجاب قلبه^(١)، أو يَسْلُ البلاءَ خيطَ عظامه أو يخالط جوفه كلِّ داءٍ دوى، ثم ما شئت من "أو" بعد "أو"... إلى أبعد حد مما انتهى إليه أهل الفقر في الفقر وأهل الأمراض في الأمراض وأهل الأحزان في الأحزان وأهل المصائب في المصائب، فيذهب العمر باطلا بالذي عليه، ويجنى هذا الإنسان على نفسه من أثر الخوف والطمع ما لا يستقبله أبد الدهر، فلا يهنأ بوجوده. ولا يطمئنُ إلى مَرَجْو، ولا تكون آماله إلى

مخاوف مستبهمة لا مأتى لها من الحقيقة، فيجد روح التعاسة فى أشياء كثيرة ولا يكاد يصيب العزاء فى شىء قليل!

وهنا يا بنى الحفرة التى يقبر فيها بعض الأحياء ليعيشوا عيشة وهمية، أو ليموتوا موتاً وهمياً، تلك الحفرة التى يقضى الأحق شطراً من عمره واثبا فى الأوهام بين شاطىء الدنيا والآخرة حتى إذا انتهى إليها تزدى فيها وكان الرأى لو أدخر لها بعض تلك الوثبات...

وأما الحكيم الذى يعرف الحياة كما يمكن أن تكون، ويعرف أن كل حى من الناس فإنما هو حى على شروط لواهب الحياة، ثم للحياة نفسها، ثم لأهل الحياة- فهو أدرى بالمصائب من ذلك الأحق، ولكنه لا يثيرها ولا يبحث عنها ولا يمتلق لها العلل^(١) من نفسه ولا يعترضها فى غيره؛ وما نزل منها فإنه يفتح لها من قلبه سبيلاً تمر فيه بين العزيمة والجرأة، وإلا فبين الثبات والصبر، وإلا فبين التوكل والإيمان، وما أهون مصيبة تفتح لا نصرافها ثلاث طرق واسعة!

وهذا الحكيم يجد فى محتته لذة تشبه لذة الدرس لمن همته الحكمة واختبار الأشياء ومعاناة خواصها وأسرارها، كأنه من مصائبه فى "معمل" للتجربة والاختراع، فإنما هو يتلقى عن الله ما لا يصيبه به إلا هو، وما لا يصرفه عنه إلا هو، وإنما يستعمل رأسه للفهم لا الوهم، وهو يعرف أن علم الله أزلنى يسع الأزل كله، وأن الأقدار من علم الله فهى مقسومة على الدهر كله، وأنه هو فى جانب الدهر لا يبلغ أن يناله ما تنال الشرارة من ماء البحر إذا هى انطفأت فى البحر.

هذا الحكيم يعرف أن الحياة ليست هى الانتهاء إلى الموت على

(١) يخترع ويستنبط.



أى وجه، ولا هى بالهرب من الموت فى كل وجه، فهو لا يبالى الموت ولا يخافه، ولا يعبأ بالحياة ولا يبرجوها، ولكنه يمشى على صراط من فضائله، وعلى نور من ربه فما دامت فضيلته لا تنكره، وما دام قلبه مطمئنًا بالإيمان، فكل ما بين الأرض والسماء بين الآخرة والأولى هو مادة العزيمة فى نفسه، ومادة القوة فى روحه، ومادة الابتسام على شفثيه؛ فإن نزل به هُم وأدركه حَوْر الطبيعة وضعف الإنسانية فلم يستطع أن يَخْلُص منه، صرفه إلى جهة غير جهته، واستخرج منه معنى غير معناه؛ وقابل بين راحة الرضا به وتعب السخط عليه، ونظر فى مبلغ شرّه وما عسى أن يكون حاله لو نزل به ما هو شر منه، وجمع بين الدعاء لله أن يصرف عنه ما وقع؛ وبين الحمد لله على وقايته مما كان يمكن أن يقع، ثم لا يزال يعالج الهمَّ مستأنيا ربيطًا جأشه تثوب إليه القدرة على نفسه فتسكن إليه النفس من نفرتها وحتى يرى هذا الهمَّ كأنه مما لا بد منه فى رياضة أخلاقه، وتنزيه شمائله، وكأنَّ صدغ الجايب الذى بينه وبين الناس أوبينه وبين نفسه إنما كان لتقوية الجانب الذى بينه وبين الله.

وأشقى الناس من يتوقع الشقاء وهو لا يعلم من حاضره ما الله صانع به، ولا من مستقبله ما الله قاض فيه، وكأنه يتطنى بالله فيرى أنه تعالى قد وكله إلى نفسه وأياسه من رحمته وصرف عنه تيار الغيب المتدفق بالحوادث والأقدار بين شاطيء الليل والنهار، فلا يدفع إليه جديدا ولا يصرف عنه قديما وكان الزمن كله يتحرك وهو ثابت قار قد حصره الهمُّ من هذا الفلك فى زاوية؛ ووضع الدهر من بيت الأحزان موضع القافية، والمصيبة فى مثل هذا أكبر من كل شىء لأنها لا شىء... ولا ينفع المرء أنه من الناس إذا لم يكن من نفسه، وهذا لا نفس له أو كأنه لا نفس له، إذ لا ثقة به ولا قوة فيه، ولو كان وجهه جلدة مما بين عينى الأسد لما ظهر

إلا جبانًا، ولو اختلط الحاضر بالمستقبل على شيء لما اجتمع منهما ما يجتمع من غضون جبهته في تعاسته التي يبطن أنه خص بها فهو يتوهم؛ الخوف، ثم يخاف مما يتوهم، ثم يخاف أن يكون الأمر أكبر مما توهم، ثم يخيفه أن تخذله الأقدار فلا يقوى على ذلك، ثم يكون أشد خوفه من يستمر له ذلك فمن خوف إلى خوف، وهو تتابع يصور الرعدة التي تعتبره لجبنه كما يصور ضحك القهقهة من هذا الجبن^(١).

وذلك يا بني صَّرب من ضروب استحالة النفس، كأنها ليست في صاحبها أو ليست له، فهو يمر على الحقائق فزعًا كما يمر الطائر على الأخيلة التي تنصب له على الثمر، ويجزع منها كما يجزع الطفل من أرواح المردة والشياطين التي تسكن ألفاظ التهويل ونحوها يُفزع به، ثم هو من المصيبة الواحدة في مصيبتين: أما الأولى فشدّة الخوف التي تفقده لذة ما يكون فيه من النعم- والنعم لا حصّر لها- فلا يشتهيها، ولا يجد لها مساعًا بعد أن لبسه مرض الهمّ؛ وأما الثانية فقوة اليأس التي تضعف قدرته على الحيلة للخلاص مما نزل به، فكأنما شدّ عزمه وثاقًا، ثم لا يكون من اجتماع المصائب الثلاث^(٢) معًا إلا أن يورثه الذلّ وسقوط الهمة وتخلخل الفؤاد واضطراب النفس، حتى كأنه من هذه الوسواس بين جدران وثيقة محكمة لا نافذة منها على فضاء الغيب، والغيب ملء الأبد، فيصبح جلدًا بلا جلادة، وعظما أوهنت منه البلادة، ورجلاً لو أطاعته كلُّ قوة في الدنيا لما أطاعته الإرادة وصنمًا من أصنام الحياة يعرفه العاقل للنحطيم ويحسبه الجاهل للعبادة..

(١) من المقرر أن الأفكار تتداعى، فالخوف لا يجلب على الفكر إلا ما يشبهه إن استمر به، فتكون المصيبة واحدة ولكن الخوف يكون بها وبما تتصل به وبما يمكن في العقل أن تتصل به؛ فكان

النفس قدر ركبتها رعدة.

(٢) هو نفسه مصيبة ثالثة..



وهم الحياة والسعادة

قال "الشيخ على": ولقد عرفنا الحياة ما هي، لأننا نحن أمثلة عليها، ولكن البحث في معنى هذه الحياة لم يَنْتَه بعدُ، لأن هذا المعنى لا يزال كما كان فوق السموات، ولو استطاع الكاتبون من أهل العلم أن يَحْطُوا في كتبهم بمداد من أضواء النجوم التي يَسْكُبُهَا الحُلُودُ كلَّ ليلة على الأرض ملءً مخبرة الليل، لكان عسى أن تستنير مباحثهم في ظلمات الحياة، وأنى لهم ذلك وليس وراء النفس الإنسانية إلا الذي هو وراء السماء، ولا وراء السماء إلا الذي هو وراء النفس؟

إلا فاعلم يا بني أنه ما دام هؤلاء العلماء يتعاقبون على تفسير المعاني الإلهية ولم ينتهوا بعدُ، فمعنى ذلك عندنا نحن الجهلاء أنهم لم يبدؤوا بعدُ...

وما هي الحياة؟ أما إنها ليست طريقاً مسافته كذا، ولا قياساً ذرعه كذا، ولا وزناً مبلغه كذا، ولا شيئاً من هذه المعاني التي تضرب الأقاليم والألسنة في مفاصلها، بل هي فيما وراء ذلك من عالٍ إلى بعيدٍ إلى غامضٍ إلى مبهمٍ، حتى تنتهي إلى منبع النور الذي تلتطم على ساحله موجة الأبد.

وإن أُبَيِّتَ إلا ما هو دون ذلك وُضُوحاً وانكشافاً وبسطاً في التأويل فقل إنها في كلمة واحدة: فتح السماء بفكر واحدة^(١).

(١) يكاد يكون المخ مادة سماوية أو دعنها السماء هذا الإنسان تصل روحه - بها وتصله هو بروحه، فلو وقف على سر الحياة لفتح السماء، ولكنه يتقدم أبداً ليكشف عن الروح من ورائه... فهيات

ولتدعنى يا بنى من لغة هذه الكتب، فإنها متى انتهت إلى السماء رأيتها أكثر ما تراها ألفاظا لا معنى لها، إذ ليس هناك من جلال الله إلا ما يشبه أن يكون معنى لا ألفاظ له.

ودعنى أحدثك عن الحياة بما أفهمه- أنا الرجل الطبيعي- من فلق الصباح ومن روعة الشمس، ومن إقبال الليل وإدباره، وبما أعرفه من هذه اللغة التى تُنزل بها السماء ما يتصل بنا من معانيها، لغة القضاء حين يسألُ ولغة القدر حين يُجيب، وبما استوحيه من معانى هذه الإشارات التى تتحرك بها جوارح الطبيعة، وهى مزيجٌ من لغة البقاء الأرضى الذى يريد أن ينتهى ولغة الخلود السامى الذى يريد أن لا يفنى، فالحياة يا شاعرى العزير لا تخرج من الدواة ولا تُقَطَّر من القلم، بل أنا أحسبُ هذا المدادَ الكثير الذى أراقه عليها الناس هو الذى جعلها كما يقول الناس سوداء...

ولا يكفى أن يعلم الرجل كيف يسوق المقدمات وكيف يُحسن القياس وكيف يُخرج معنى من معنى حتى تكون النتيجة على توهم والحقيقة على ما يقبض والصواب كما يستخرج. وفى علم الحياة خاصة- وهو العلم الذى لا مادة له إلا من الحوادث- أن بناء من المنطق لا يتخذة بيتًا إلا ساكنٌ من الخيالات...

ولستُ أعرفُ الناس قد غالوا بشيء قط مغالاتهم فى قيمة هذه الحياة، فقد والله استجمعوا لها كلَّ ما فى الرغبة من الحرص، وكلَّ ما فى الخوف من الحذر وكل ما فى الأمل من الترقب، وكلَّ ما فى الحب من الخيال؛ واستجمعوا فوق ذلك تلك المعانى التى لا قرار لها فى الأرض ولا فى السماء: معانى النظرات الوهمية التى يرسلها المخلوق من أرضه إلى عرش الله، كأنه لا يجروء على أن يشكَّ فى نهاية الحياة إذ هى تنتهى



على أعين الناس، ولا أن يجزَمَ بهذه النهاية إذ هو لا يريد الموت وكأنَّ الحياة لا تكفيه.

وما دام للحياة غدٌ يرتقب وهو الذى يسمونه المستقبل، فكلُّ وهم يسهل على الحقيقة أن تهلكه أو تمرِّضه أو تضعِّف منه، إلا تلك المغالاة الممقوتة، فإنها أبدًا فى خِصْب وعافية ما بقى لها غذاءٌ من ذلك المستقبل المحبوب.

قال "الشيخ على": وأنت إذا سألت رجلا عن مسألة فسدَّ الجواب وأحكم الصواب، قلت: هذا جوابٌ يَحْسُن السكوت عليه، ولكنك إذا سألتنى أنا: ما هى الحياة كما يفهم الناس؟ قلت لك: هذا سؤالٌ يحسن السكوت عليه... لأنَّ للغة هى التى أسمتها (الحياة)، واستخرجت لهذا الاسم العذب معانيه من أوهام الأحياء، وكم فيما وراء السماء من معانى تملأ الأبد ولعلها لا تملأ سطرًا أو سطرين فى معاجم اللغة؛

ولكن دع هذا وسلنى: ما هو الذى يقضيه الإنسان من يوم يولد فلا يقدر أن يرفض هذه الدنيا إلى يوم يموت فلا تستطيع هذه الدنيا إلا أن ترفضه؟ وما هو هذا المَهْد الذى يكثر شيئًا فشيئًا حتى يصيرُ فى الآخر قبرًا؟ وما هو هذا العمر الذى يمتلىء قليلًا قليلًا حتى ينتهى إلى الفراغ فيغيَّب فيه؟ وما هى هذه الحوادث التى تزلزل الناس^(١) فى طريق القدر حتى يَجْروا على وجوههم فتتحول أجسامهم فى الأرض إلى تراب فى طريق المنفعة، ويتحول تاريخهم ترابا على طريق الموعظة؟...

... سلنى كذلك يابنى أجيبك: هذا الفناء المحترم، وهذا الشقاء المفضىء، وهذا الأمل الباطل، وهذا النَّصْب الضائع، وهذا العمل الذى لا يبراد لنفسه

(١) تسوقهم بعنف، يقال: جاء بالابل يزلزلها.

ولكن لما بعدة- كلّ ذلك هو الحياة؛ أفلا ترانا نخادع أنفسنا إذا سألنا عن الحقيقة التي يسوءنا أن نعرفها فُحرف السؤال إلى جهة بعيدة لكيلا نرى الجواب الصحيح مُقبِلًا علينا ولكن مُدْبِرًا عنا؟

فما عسى أن تكون هذه الآمال، وهذه المنافسات، وهذا النزاع، وهذا الصراع، وهذه الأفراح، وهذه الأتراح، وكلّ ما إلى ذلك مما هو من مدلول الحياة- إلا باطلا نستمتع به قليلا ثم يظهر أنه متاع الغرور؟

ما عسى أن تكون الحياة بكل ما فيها إلا مدة محدودة على ظهر الأرض تجعلها أوهام الإنسان ومطامعُه وحماقتُه وجهله وكبريائه كأنها الأبد كله؛ فيكذب ويكيد؛ ويعمل ويُدخِر، ويهنأ ويحزن، ويطعم ويحرص؛ على نسبة من ذلك لا من نفسه، أي نسبة أبدية لا إنسانية.

ألا إنما مثل هذا الإنسان المغرور مثل رجل جمع الله عليه المصيبتين في باصرتِه وبصيرتِه؛ فضلّ في مكان، فهو يُقيل ويُذِير في دائرة من فضاء الأرض لا يهتدي إلى الوجه ولا يذهب على السّمت، فيتوهم أن الطريق لا ينتهي وأنه وقع في صحراء لم تدرّسها عكّازته... وليست من علم رجليه في جغرافية هذه المسكونة... وكما لا تكون الطرق عند هذا الأعمى إلا عن علم رجليه، فأكثر طرق الحياة عند هؤلاء المغفلين الذين يطمس الله على بصائرهم هي من علم بطونهم، وما أدراك ما علم بطونهم! وما رأت الحكماء أحدا قط جهل حقيقة معنى الحياة إلا وجدوا هذه الحقيقة في بطنه... ولذلك قالوا: من كانت هَمته ما يدخل جوفه كانت قيمته ما يخرج منه... وإنما البطنُ جوع فشبع وشبع فجوع؛ وعلى هذا القياس لا تكون حياة هؤلاء إلا جوعا في الشهوات والآمال؛ فلا يُطفئه إلا ما يُسغره، ولا يجلب الراحة فيه إلا ما لا بد أن يُرجع التعب به، جوع في الشهوات والآمال بالعقل لا بالبطن، لأن علم الحياة عندهم علم



بالبطن لا بالعقل، وكلاهما مُثَلَّة بهذا الإنسان^(١)، وبالله كيف يريد الإنسان أن يحيا كما يحبُّ ثم يحب مالا يتفق مع سنن الحياة؟

من أجل ذلك شقَى أكثرُ الناس بالعقل، إذ يقبلون به الأمورَ، ويحتالون منه الحيلَ، ويكرهونه أن يعمل على الشُّخرة في لذة الجسم، ويُحضرونه من همِّ الشهوات الحيوانية مالا قبل لهذا الروح الإلهي أن يَسْتَكَلب فيه^(٢)، وإذ يخضعونه بدلا من أن يَخضعوا له، ويسيروا به بدلا من أن يسيّر بهم، فكان من ذلك طغيان الحواس وطمسها على الروح، وتعفيتها على آثارها الإنسانية، ولا جَرَم كان من وراء ذلك طغيان هذه الفوضى المترامية في الاجتماع وانبتاقها بالشر من كل ناحية، وتداخلت حدود المطامع بعضها في بعض فصار الناس كالأمواج: لا تقوم القائمة إلا من سقوط الساقطة.

وكان الناس يتعلمون كيف يَسبحون في بحر الدموع ليأمنوا الغرق فيه وليستنقذوا الغرقى منه^(٣)، فجذَّت بهم الحوادث حتى تعلموا القتال عليه وصار من لم يستطع أن ينقذ نفسه يجتهد أن يُغرق غيره.

الإنسان حيوان لولا العقلُ، فلما أخضع لشهواته العقل صار إنسانا لا حدَّ له في الحيوانية، فهو من هذه الجهة لا إنسان ولا حيوان وإن كان الشيطان مطرودًا من رحمة الله فخير ما يقال في هذا الإنسان إنه شيطان فيه موضع للرحمة!...

(١) المثلة التنكيل

(٢) أي يظهر من الحدة الحيوانية كأنما أصابه الكلب. بفتح اللام. وهو جنون الكلاب.

(٣) كناية عن المواساة في الأحداث والمصائب والأحزان ومساعدة بعضهم بعضا، وهي من شروط

ولقد خلق الله هذه الحواس ولا ضابط لها إلا العقل يُحكم تحديدها ويتولى تسديدها، ويستعين في أمرها بكلّ على كلّ^١ ومن ثمّ يستقيم من هذا الإنسان شيء معقول، ويصبح قد صُربت عليه الحدود لا يتعداها، ورُسمت له دائرة في الإنسانية لا يجاوزها، فيقرُّ كلُّ امرئ في حيّزه وقد صار عنده من الناس وعند الناس منه وثائق من العقل وبيّنات من الحق إذا هو حاكمٌ إليهم ضلالةً منهم أو حاكموا إليه ضلالةً منه^(١) وهنالك يرى كل عمل طيب ثواب نفسه، لأنه هو من فضائله كأنه شريعةٌ لنفسه؛ ومتى كان العمل الطيب مما يجزئ في ثوابه عند الرجل من الناس أنه عمل طيب، فقد أصبح ولا غرور من سعاداته؛ إذ لو لم يجد به سعادة لما لقي منه ثواباً، وبذلك - وحده من دون كل الوسائل الأخرى - تصبح السعادة عملاً من الأعمال يمكن أنه يُمارسه الإنسان فيسعد ما شاء الله أن يسعد، ثم تكون الحياة على ذلك واجبات يقضيها، فإن تحققت أو لم تتحقق فإما دخلت على نفسه بسرورها وإما خرج منها بعذره وقد أبلى عُذراً.

ومتى صارت حياة رجل من الناس إلى أن تكون واجبات يتنجّزها ويستقضيها من نفسه، فما لشهوات البدن موضع إلا كموضع النار من يدي

(١) متى لم يكن إنسان في حيّزه وطغت به شهواته وأسرفت عليه حواسه، وانقطعت الصلة بينه وبين الناس من جهة أو من جهات، وحينئذ لا يجد في الرذيلة معناها، إذ هي رذيلة في تحديد الناس وفيما تواضعوا عليه من معناها وحدها، فيضع هو لها تعريفاً جديداً تكون الرذيلة فيه كل ما لا يوافق هواه ولا يساعف أغراضه، ويصبح كأنه وحده هو دنياو كان الناس دنيا أخرى، فكل ما اعترضه أو صادمه من مصالحهم ومراشد أمورهم عده عند نفسه رذيلة...

ومن هنا ترى بعض فلاسفة الشهوات، في التمدن الأوربي الفاسد يعدون - حياة المرأة المحصنة - ضعفاً، وعفافها مرضاً من أمراض النفاق، ووفاءها لزوجها أثراً من العبودية، ثم يرون الأديان كلها أوهاماً يقيد بها الإنسان نفسه، ويتتابعون يمثل هذه الآراء في كل ما اصطاح الناس على أنه فضيلة أو إنسانية، ولوهم حققوا ورجعوا إلى ماتى ذلك في أنفسهم لرأوه أثراً من أعصابهم المريضة ولرأوا أنفسهم في جنون الشهوات صورة أخرى من مجانين العقول...



المصطفى: لا يراد منها إلا حرها، ولا يُطلب من حرها إلا قدر معلوم، ولا بيتغى هذا القدر إلا مدة بعينها، ولا تكون هذه المدة إلا بمقدار ما يصلح أو يدفع الأذى، لا سرف في كل ذلك ولا هوان ولا مضيعة.

قال "الشيخ على": ولكن كل شر العالم يابنى في لفظ واحد: هو طغيان الحواس؛ وبمعنى واحد: هو إذلال العقل؛ ولغرض واحد: هو هذا الموت الأدبي الذي يسميه المغفلون سعادة الحياة.

منذ طغت الحواس أصبحت الحدود بين مطالب الإنسان من فضائله إلى رذائله ولا أثر لها، لأن الشاطيء لا يُعرف تحت السيل إذ طم عليه⁽¹⁾ فما أنت ولا أنا ولا أحد يدري ما هو حد الكفاية في رغبات هذا الإنسان وأهوائه؛ بل صارت هذه الكفاية وما ينطوى تحتها من ألفاظ القصد والقناعة والرضا وما إليها- ألفاظاً خيالية يسائرُ ظلها ظل الإنسان، فلا حد لها ما دام هو لا يُثبت لنفسه حداً، ولا تتأخر ما دام هو يتقدم، وأصبح أكثر الناس في رغباتهم الخيالية وما يعملون لها مدة الحياة

(1) كل الشر في هذه الدنيا أو ما نعتبره بشراً يرجع إليه نكد الإنسان وبلاؤه إنما يأتي من زيغ الحاسة في فرد من الناس فتكون الطاقة محدودة بحدود كثيرة من قوة صاحبها ومن أحوال الناس ومصالحهم، ولكن الرغبة تجري مطلقة متخطية كل هذه الحدود؟ ومن ثم يقع الاختلال بين مقدار القوة وغاية القوة، وبين الحقيقة الواقعة التي لا تتغيرو الحقيقة المتوهمة التي لا تتحقق، ولا يبالي الناس من ذلك شيئاً، لأن الحدود قائمة بينهم برسومها، والحقائق مقدرة بمقاديرها فلا يحل ضرر ذلك إلا بصاحبه لا بعده، وهذه مادة السخط والهلم والنكد والتعاسة في أكثر الناس حين لا يتحقق لصاحب الدرهم من قوة الملك في درهمه ما يتحقق لصاحب الدينار من دينار؛ ومتى ما طغت الحاسة، وفانت مقدار الجهد والطاقة، وتزامت إلى البعيد البعيد منهما كان هذا البعد هو بعينه مسافة انحراف الفضيلة عن نهجها وسبيلها فتخلطها الرذيلة على مكانها؛ وهنا عمل الإيمان وفائدته فهو تحديد الشهوات والرغبات والتخليّة بين كل إنسان وحدوده التي بلغت إليها فضائله ومواهبه: فلسفة الإيمان والسعادة والفضيلة تجدها كلها في قوله تعالى ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾.

كتاب المساكين

كرجل ائتلى^(١) أن يخط دائرة مركزها ليس فى محيطها؛ فكلما رسم دائرة رأى المركز فى داخلها، فيجتاز به وراء المحيط ثم يُدير يده، فإذا واحدة أخرى تقاطع الأولى ولم يصنع شيئاً صحيحاً مما يحاوله؛ ويمضى على ذلك ما شاء الله ولا يصنع شيئاً، فلا هو يُخطئ رأيه، ولا هو يرى من عمله شيئاً صحيحاً، وما بقى من الأرض فضاء لم يخط عليه بعدُ فهناك... هناك يرى الأحمقُ الدائرةَ المتوهمة التي يخرج مركزها عن محيطها...

من هذا ونحوه أصبحت السعادة وهما من الأوهام؛ إذ لم تعد فى إشباع العواطف وتغذية الشعور، وليست فى موضعها الذى هو بين الضمير والعقل ولكنها فى إشباع جسد لا يشبع ما دام حياً، وفى تغذية حاسة لا يزيدُها الغذاء إلا شرها وضراوة؛ فلن تكتفى إلا إذا بطلت، وفى موضع مجهول بين هذه الحواس لا حد له إلا كالحمد بين ما يجدُ المعدم وما يتمنى، فالسعادة على ذلك هى دائماً فى الاستعداد للسعادة... وكفى بهذا عبثاً.

ولعمري ماذا تكون الحياة، بل كيف تكون؟ أليس يعلم الإنسان أنه سائر إلى الموت، ويعلم كذلك أنه طالب ما لا يموت؟ فلا جرم كان شعوره بهذا التناقض مؤلماً، وكان هذا الألم هو منشأة الهموم التي لا تدعه لنفسه ولا تدع نفسه له، وكانت حقيقة هذه الهموم التي يجمعها كلها هى شعور الإنسان- شعورًا فطريًا جرى منه مجرى العادة- بالمنازعة بين ما يطلبه هو فى الحياة وبين الحقيقة التي تطلبه هو من الحياة، أى الموت، ومن ثم يضطرب كيانه العقلى. فيؤثر كل شيء فى نفس هذا الإنسان تأثيرًا أكبر من حقيقته، لأن حقيقة هذا الإنسان لم تعد فى نفسه، بل فى مطامعه،

(١) حلف وألى



فهو يا بنى كالوعاء المثقوب: تصب فيه البحر ولا يزال فارغا! والحياة عنده هي طلبُ الحياة، وكفى بهذا عبثا!

ولا تحسبن أنه لا يبالي بما مضى من عمره، بل هو يستشعرُ فوق ذلك الخوفَ من أن يكون الذى مضى هو أكثرُ العمر وأطيبه؛ ولذلك لا يبرح شقيا بما يُحاول، إذ يُحاولُ أن يجمع طبيبات الحياة ويستحوذ عليها فى القليل من عمره، ليستمتع بها فيما وراء ذلك؛ كأن الحياة التى قوامها من الغذاء لا تفارق الإنسان ما دام الغذاء فى بيته، وكأن الله يبيعُ المستقبل لمن اجتمع له من الدنيا ما يتوهم أنه يقوِّمُ ثمننا للمستقبل..

لا يبرح هذا الإنسانُ شقيًّا، وهو ابدأ من الهم والغىظ والتوقد واشتعال الأمل والاضطرابِ فى أسباب الحياة كالسكة المحماة^(١): يحسبُ ذلك من نفسه قوة وفضلا وسعة فى الحيلة، ولا يدري أن هذه النار المشبوبة فى صدره تقطع منه أكثر مما تقطع به؛ وأنها كما تعطيه قوةَ المضى فى هنات الحياة وهيناتها، تعطى الأقدار الصلبة مثل هذه القوة عليه، فلا تكاد تصدمه من أى أخطاره^(٢) حتى يتثلم وينفَل.

وهل تحسبُ مثل يكون عداؤه فى أهل السعادة، وهو من الحرص على الحياة يكاد يشمُّ ترابَ قبره فى كل حادثة تلمُّ به، ولا يزالُ يُصلب على كل باب من أبواب الأيام حين يفتحها الصباح وحين يُغلقها الليل، ويرمى بالنبل المسموم من فُضوح الدنيا وشهوات النفس الدنيئة، ويُقتل ضميره كل يوم قِتلة الكذب والغدر والإثم، لأن ذلك من وسائل الحياة التى تبسط عليه الدنيا؟

(١) نصل يحمى فى النار فيكون ذلك أشد نعضائه.

(٢) أى من أى جهاته فى الحياة كالصحة والغنى والأمن ونحوها.

وما ظنك بسعادة أولها حب النفس وآخرها بغض الناس، ومن مقدماتها منازعة الفرد للمجموع، ومن نتائجها منازعة المجموع للفرد، ومن مبدئها درس الشر علماً، ومن غايتها مزاولته الخبيث عملاً، ولها اسم السعادة وفيها معنى الشقاء، ومن شروطها على صاحبها أنها لا تمتعه إلا بما يَمَله، ولا تتبرج له إلا فيما لا يناله، ولا تُظهر للناس أبداً إلا ليروا فيه رذيلة من الرذائل؛ ثم لا تكون مع ذلك موضعها إلا كالفقر في موضعه: هذا يوازن بين نعم السماء التي تنزل على الضمير وبين هموم الأرض، وتلك توازن بين هموم السماء التي تنزل على الضمير وبين نعم الأرض، وآخر أمرها أن لا يعرفها صاحبها إلا على الضدّ مما يعرفها الناس: فهم يسمعون لها الأصوات العالية من الأمر والنهي والجاه وما إليها، وهو يعلم أن هذه الأصوات لم تخرج منها إلا لأنها كبيرة فارغة... قال (الشيخ على): وبذلك يا بني خسر الناس لذة الحياة، فلا أدري أهم بشرٌ أم آلهة، لأنى أرى كلَّ حي كأنما يريد أن يَرمَّ صدعا في الكون، وأن يُصلح من هذه الدنيا ونظامها ما لم يَصلح له، ولماذا؟... لأن الدينار الواحد نواة ذهبية، ولكن هذه النواة لا تخرج إنسان نخلة من الذهب...

ولماذا أيضاً؟... ولأن أكل هذه النخلة حين تُؤتى أكلها لا يكون إلا مُرّاً! ولكن أليس في الأرض غيرة المال ما يمكن أن يُستلذَّ وأن يسمى نعمة؟ وأين هي تلك السوق التي تعرض فيها النعم الهنيئة ويقف على جانبيها ملائكة الله يبيعون بالدرهم والدينار، يبيعون للمريض من أولئك الأغنياء عافية، والضعيف قوّة، والحزين مسرة، والخائف آمناً، والغزغز اطمئناناً، والهرم شباباً، والمهزول جسماً رويّاً؛ والميت رجعة أخرى...؟



ألا فليعلم الإنسان أن هذا العالم لا يصلح على غير ما هو عليه وما لا بد منه لنظام الحياة، فسيأتى إن خيرًا وإن شرًا، فكلنا يسمى الصعاب التى تعرض له فى طريق الحياة عقبات: لأننا لا نبصر ما وراءها ولا نعرف فى أى موضع نقرُّ من نظام الحاضر أو نظام المستقبل، وهى لو تعلمون وسائل لما بعدها، فما تراءد لنفسها أكثر مما تراءد لغيرها، وهى بأن تكون مقيدة بهذا أحرى من أن تكون مقيدة بذاك؛ ورب صخرةٍ حالت فى طريقك لتلفتك إلى هاويةٍ من ورائها، أو تتقى بها عدوًّا يهدف إليك من ورائك!

والأعرج الذى يتأبَّطُ سناده^(١) ويتخذ منه رجلا تبدأ من الكَيْف لا يكاد يعرجُ بضع سنين حتى يستفيض صدره ويكتنز عضله ويتفتل ويصبح لحيما بادنا كأنما جمع فى زنده حجمَ يده إلى حجم رجله التى رُمى فيها، وكان مرهفاً دقيقاً منهتدِّم الصدر بارز الأضلاع خاوى العروق مسموحا فى جملته، ثم أنت لا تراه إلا ساخطا متبرِّما يكاد يتحطم غيظا ويلعن سناده وما حمل... واليوم الذى حمله فيه، والسبب الذى حمله به، ويرى كأن العرج هو الذى قطعه عن شأو المعالى وكان سباقا... ويظن عند نفسه أن هذا العرج قد جعله فى مشيته الممثل المضحك على مسرح الحياة!

ولا كلَّ هذا يا رجل، فهل نسيت ويحك أن الشعال كان ينفضك نفضة الموت، وأن البرد كان قد اتخذ من أضلاعك سقفا يأوى إليه، وأن الأمراض لم تبرح ترميك آونة بعد أخرى كأنها تلين عظامك الفاسية للضجعة الأخيرة، وأنك كنت لا محالة هالكا تنفث رثيتك من شفتيك،

(١) وضعناها لهذه الحمالة التى يعرج عليها من أصيب فى رجله، لأنها تسانده

وتبصق روحك تحت رجليك، وأنه لولا الداء الذي يسمى العرج، لهلكت
بالداء الذي يسمى السل^(١)؟

هذه واحدة يا بنى، وما من واحدة إلا هى أختها، وحكمة الله لا
تختلف، بل هى فى كل شىء وإن كنا لا نعلم، وما خلق شىء عبثاً،
فتعالى الله الملك الحق، ولقد أعرف أن ما لم يُقَصَّ لى فهو مقضى لغيرى،
وأنه لا بد أن أذهب فى هذه الحياة بقسط من مصائبها، لأنه جزء من
نظامها يتوقف على وجودى ويتوقف وجودى عليه؛ وهل أنا بدن يملأ
الأرض ورأس طبّق السماء، فيكون الفلك عمامتى، والقضاء عمامتى،
وكل خير لهامتى؟ إن أنا يا بنى من هذا الناس فى أقدار الحياة المكتوبة
إلا كالجنديّ فى العسكر نصبته الحرب آلة حية تحركها الأفاض وإشارات
من حيث تأتي! فهو يندفع إلى الموت ويَشوى من لحمه على النار متى
أرادت خطة الحرب أن تبتعث وتتحرك، وإنما هو بجسمه وروحه وعقله
نقطة صغيرة فى خط صغير من حُطط كثيرة مثله رشمت بها فكرة
أمير الجيش على صفحة الميدان؛ فليس للجنديّ أن يسأل عند الحركة:
لماذا...؟ إذ هو لا يجد عندئذ من يقول له: لأن...! ولكن متى أُرقت الآرفة
وُحقت النهاية بالنصر أو الهزيمة، رأى العمل الذى وراءه كأنما انقلب
أحرفاً وكلمات يستوضح منها فكرة القائد كما رسمها!

قال "الشيخ على": ومن الأسئلة فى هذه الحياة ما يؤكد حين يموت
جوابه كما رأيت^(٢)، فهو حُقم من السائل ومضّبعة، لأنه لا جواب عليه،
وربما اعتده الأحقق مُعضلة من المعضلات وكّد ذهته فيه وقصر همه

(١) انتهى الطب اليوم إلى معالجة النسل بأحداث الملاريا.

(٢) أى فى مثل الجندي وسؤاله "لماذا؟" عندما يؤمر بالحركة الحربية.



عليه وجعل يلقى به الناس وَيَفْتَحَ له الأحاديث، وذلك سُخْف لا يوجَد به الجواب الصحيح ولكن يضيع فيه السائل، إذ يستنفد من وُسْعه وعمله وحيلته، ثم لا يرد عليه من كل ذلك سوى الخيبة؛ وهذا- أعزك الله- سر من أسرار ضيق الناس بالحياة وتَبْرُمهم بأقدارها، لأن أكثر أعمالهم وآمالهم من جنس ذلك السؤال، فما أقلّ من ينتهز من يومه قبل أن يذهب يَوْمه، وما أكثر من يريد غذاً قبل غد...

ولكأنى بهذا الإنسان يود لو أسرع الفلك في دَوْرته وجعل يَزْتَمي به المرامى البعيدة لينهب ما فى الغيب نَهْبًا ولينال الممكن كَلِّه وشيئًا من المستحيل أيضًا... فيحيا بعد ذلك حياة طيبة عذراء لا تلد لبايها من مواليد الغيب قليلا ولا كثيرًا...

دونك آمال الناس فانظر هل تجد فى هؤلاء الحمقى من يَصُبُّ آماله إلا فى قالب يَسَعُ ضعفيها على الأقل، وهو يحسب أنه بتوسيعه لها يُخفى جانب الاستحالة فيها ولا يدري أنه يُخفى جانب الممكن المعقول أيضًا... يصبُّها فى قالب التمنى، وما موضع التمنى فى عالم الجسّ وفي هذه الحياة الأرضية التى لا تزال تضرب جيلًا بجيل، وتدْفنُ قَبيلًا بأيدى قبيل، ويُهملها الإنسان فى الكثير وهى لا تَهمله فى القليل؟ وهل التمنى أن تكون حوادث الحياة ما أريد أنا وما تريد أنت وما يريد فلان، إلا كما يتمنى كلُّ إنسان من هؤلاء أن تكون غير نفسه، وكما يتمنى الطفل حين يُجيب معلمه خطأ ويعلم أنه أخطأ. أن يكون الجواب حقيقة كما أخطأ...؟

وقد يقال إنه ليس فى العلماء أحمق ممن يكد ذهنه فى ابتكار جواب غريب لمسئلة لا تقع لإنسان ولا يحتاج أحد إلى جوابها، فكذلك لم أر فى الجهلاء أحمق ممن يسأل الحياة سؤالًا لا جواب

عليه أو لا يفهم الجواب عليه، كل ذلك حمق، وكل ذلك سخف، وكل ذلك عبثٌ وباطل، ولكن يا أسفا على الناس! كل ذلك أيضًا من مذهب الحياة، وكلُّ ذلك من الواقع!

فالناس من بين طامع جرىء إن نفعته الجراءة ذهب بمنفعتها الطمع، وقانع ساكن إن أفادته القناعة ذهب بفائدتها السكون، ومتحيل على الغيب يستجمع له والواقع قد نفذ فيه؛ ومتبرم بحاضره يبني على السماء والأرض تهدم منه، وقليل من الناس المؤمن الوثيق الذي يشعر بقوة الله في كل ضيق، فإن لم ينصره الله على الحياة لا يخذُّ له فيها، وتراه لا يشك فيما يعرف ولا يريد أن يعرف ما يشك فيه، وهو يعلم أنه ليس شيء من المصائب والنعم يمكن أن ينزلَ في غير موضعه المهيأ له، إذ ليس في هندسة الله مكان مختل^(١)، وإنَّ النعمة الصحيحة ليست في لذات الإنسان الحي ولكن في حياة هذا الإنسان؛ إذ الحياة الصحيحة هي التي توجد اللذة، وأن القوة التي تسمو بالحياة حتى تسخر لها الطبيعة تسخيرًا إنما هي قوة العقل، فإن وهن العقل صارت الحياة طبيعة حيوانية لا لذة فيها مما حُص به الإنسان دون الحيوان من رُوح الله، بل تكون اللذة كل اللذة هي فقدان الألم أو إطفاءه إن تسعر^(٢).

(١) لو أن الله تعالى مد في نظر الإنسان فاحترق الكون كله وأصبح إن يرم بعينيه ييصر كل ما وسعته الأرض ثم بسط من سمعه مثل ذلك فعادت الأذن الانسانية وعاء لكل صوت يتكلم به متكلم أو يصبح به صائح في كل ما وسعت الأرض- لو كان ذلك لما عاش الانسان لحظة واحدة. ولو عاش لكان من كثرة ما يرى وبسبح لا يرى ولا يسمع فكذلك هو في الشهوات: يحدها الله بحدود من رحمته - فيما يوسع أو يضيق... وما يعطى وما يمنع ويأبى الانسان لحماقته وجهله إلا أن يمددها ويبسط منها أنواعا وفنوننا وما يدري أنه بذلك يزحزح الحجر الذي هو أساس بنائه شيئا فشيئا فيهنك نفسه ويفقد سعادته ويضيع إنسانيته ويخر على أسفله

(٢) من سنن الطبيعة أنها تجعل اللذة شرطا في كل عمل لا يقوم الكيان إلا به، فإذا لم يحدث هذا العمل ضربت الآلام على الجسم. فالطعام ضرورة من ضرورات الحياة إذا فقد كانت آلام الجوع. وإذا =



وتالله لو أفرغت طبيبات الدنيا فى جوف هذا الحيوان الإنسانى الذى وصفث لك ممن يسمونهم الأغنياء والمستمتعين وأهل الحظ والهناءة، ما زادت فى لذته على ما يكون من إفراغ حَقْل من البرسيم فى جوف حمار...؟

قال "الشيخ على": وكما يفقد أكثر الناس السعادة فى كثرة الاستعداد لها والإغراق فى وسائلها، يجدها بعضهم فى إهمالها حين لا يبحث عنها ويذهب باحثًا عن حقيقة الحياة.

ويا عجبا للناس! كأنهم ملكوا الأعمار، وصَمِنوا لأنفسهم دولتى الليل والنهار، فقلما يفكر أحدهم إلا فى زاد الدهر البعيد والحياة المتطاولة والأُمِد الواسع، وهو لا يرتابُ فى أنه لا يعيش غير عمر واحدٍ محدود، ولكنه لا يدري أنه يحمل على نفسه من تلك الأَطْماع شقاء بضعة أعمارٍ طويلة عالية السن ويسوقها بين يديه طالعة عرجاء تطلبُ السعادة فى طريق لا آخرة له، فهى تسير لأن بين يديها غرضا ما ينفك ماثلا على بعد منها، ثم تتبعثُ لأن الطريق لا تنتهى، ثم تقف عاجزة لأن الحياة قد كلت، ثم تقفُ وما بها حركة لأنها انتهت إلى الحفرة المجهولة التى تنشقُ تحت قدمى كل إنسان فى الساعة التى هو رهن بها ولو كان طريقه فى النعم واللذات على وأدى الجنة بين الشمس والقمر!

كل شىء ما شئت أن تتوهم، ولكن الحياة هى الحياة: هى الحقيقة التى تريد أن تعرفَ، والمدة التى تعمل على أن تنقضى، والمعنى الذى يطير حوله الأقدارُ وتقع لتلفت الناس إليه، هى الحياة التى لا تتسعُ لأكثر

= تيسر كانت لذة الأكل، فكأن هذه اللذة ليست فى حقيقتها شيئا غير انطفاء الألم. وقس على ذلك

من قضاء الواجبات، ولا تحملُ جسدها إلا ريثما تبليه، واسمها الحياةُ ومعناها النجاح؛ وهى الحياةُ لا المالُ، والحياةُ لا الشهواتُ، والحياةُ لا المطامع، وإنما قيمةُ الحياةِ فيما فيه نذهب لا فيما يذهب بها، فكل لذة لا تجد لروحك أثرا فيها لذة ميتة، وحقيق بك عناها أن تحسب أن شيئاً من عقلك أو من فضيلتك قد مات فيها^(١)!

ولقد نقلوا فى أساطير الأولين عن "ميداس" أنه بلغ من فرط الغنى أن لا يلمس بيده شيئاً إلا استحال ذهباً، فأرادت آلهةُ الخرافات أن لا يندخ الناس فيه ولا يسحر أعينهم أو يسترهبهم، وأن يعلموا أنه إنسان، وأن فرط الغنى مثله به، فسمخ "أبولون" أذنيه فكانت... أذنى حمار... ولعل فرط الغنى يا بنى لا يكون فى الأعمّ الأغلب إلا مع هذه الآذان... وما ألمحها نادرة وأبدعها إشارة وأحكمها ملحة! فإن كل ما فى الحمار لا بد منه لتكوينه حماراً سوياً، إلا أذنيه الطويلتين^(٢)؛ فلو حملها إنسان كميداس رُزق غنى الحيوانية فهما برهانان على أنه ليس بإنسان صحيح ولم يستطع أن يكون شيئاً حتى ولا حماراً من الحمير! وأئى شىء هذا الغنى يأكلُ ويتمتع ولا يرتعى من لذات الحياة إلا

(١) السعادة فى رأينا: هى كل ما استشعرت النفس أنها زادت به أو زادت فيه، وهذا التعرف يجمع كل أنواعها لا يشذ منه شىء على ذلك تكون فى الأخذ وتكون فى العطاء ألا ترى الأصل الطبيعى فى الحب يجعل سعادة ما يناله المحب من حبيبه كسعادة ما يبذله له؛ حتى أنه ليبدل روحه فى ذلك إذا علم أن نفسه تزيد بها شأنًا عند من يهواه؟

ومن هذا فالتعاسة فى كل ما استشعرت النفس أنها نقصت به أو نقصت فيه ومن ثم فكل فضيلة هى من السعادة وكل رذيلة هى من ضدها ولو كان الالم والحرامان فى الأولى وكانت اللذة والصالة فى الثانية، وهكذا قال الشيخ على،

(٢) يتنايز الناس بأذنى الحمار الطويلتين ويجعلون طولهما مسبة، ويقولون مثلاً: فلان حمار بأربعة آذان؛ وماذا لو نقص الحمار طويل الأذنين؟ لا شىء إلا اعتباراً أديبا يندخ الناس فيوهمهم بأذنيه القصيرتين المرهقتين أنه يشبه الجواد الكريم. فى حى هو لا يشبه إلا... إلا البغل العقيم...



الخضراء الناضرة، وقد سُلط على هلكة ماله أو سُلط ماله على هلكته^(١) فإن ذهبت تعتبره إنساناً لم تر فيه من الإنسان إلا النصف الأسفل...

أهو حيوان؟ فأين عمله الطبيعي إذن، فإنى لا أرى هذه الحيوانات^(٢) كلها إلا عاملة لنظام الطبيعة كما تعمل الطبيعة لها.

أم هو إنسان؟ فأين عمله الاجتماعى الذى يُسنى منزلته إذا أصبح الناس على منازلهم، وأين الحدُّ الإنسانى الذى يصله بمجد الماضى أو يدل عليه فى عمل الحاضر أو يُلحِّقه بأمل المستقبل؟

إن الطبيعة يا بنى لا تُغفلُ خطأ ولا تنسى مُذنباً ولا تصفح عن إساءة، ولكنها تضربُ بيدٍ أطف مَساً من الهواء وأخفَّ موقعا من الصَّوء، على حين أن صفعتها زلزلةً لا يقوم لها بناءً حين؛ فلو أن مثلَ هذا الغنى قد أعطى مَعْدَةَ حمار أو أعصابَ بغل أو قوَّةَ فيل أو نحو ذلك. لتَمَّ تمامه بالمال فوجد فى هذا المال مَسَدَّ حاجته كيف مَسَّت، غير أنه أعطى شِرةَ الحمار دون معدته، وأعطى فى هذا الباب من البغل والفيل وغير البغل والفيل دون ما يَحْمِلُ ذلك وما يبعثُ عليه، فكأنما مُسيخٌ من باطنه مَسَّحاً على حين أن طبيعته الإنسانية لا تخلو على هذه الأبواب من هذه الشهوات^(٣) ولا تصلح بها ولا تُطعمُ فيها من الحياة. وقد حدَّثوا عن امرأة من ذوات النعمة الفاشية فى أمريكا اتخذت كلباً فوق وقع منها بموضع محبةٍ شديدة، فاستصفته وتحققت به وذهبت كلَّ مذهبها فى ترفيهه وفتحت عليه من دنياها العريضة، فنصَّت له السرير؛ وفرشت له الحرير وأبدلته

(١) يريد أنه متلاف أو شحيح.

(٢) لم يعرف العرب الحيوان بالمعنى الذى نعرفه به ولم يجمعه على حيوانات وإنما ذلك على قياس

كلامهم فهو إذن من كلامهم

(٣) أى لا تقوم عليها ولا تصح بها.

سَمَاعُ الْمَوْسِيقَى مِنْ سَمَاعِ الْهَرِيرِ وَمَنْعَتُهُ الْعَظْمُ يُعَالِجُهُ وَيَقْرُضُهُ، وَحَرَمَتُهُ عَلَى الْجُوعِ يُقْعِدُهُ وَيُثْهِّضُهُ؛ وَمَا زَالَتْ بِهِ تَرَامُهُ وَتَحْنُو عَلَيْهِ. فَإِذَا هُوَ يَذْوَى ثُمَّ يَضْعَفُ ثُمَّ يَمْرُضُ ثُمَّ هَلِكٌ؛ وَكَانَتْ الْمَرْأَةُ كَأَمَّا تَقْتَلُهُ بِالنِّعْمَةِ شَرًّا قِتْلَةً، وَتَصَبُّ عَلَيْهِ الْعَذَابَ صَبًّا مِنْ أَلْوَانِ ذَلِكَ النَّعِيمِ؛ فَكَيْفَ بِصَاحِبِنَا الْغَنَى حِينَ تُبَالِغُ الطَّبِيعَةُ فِي تَرْفِيهِهِ عَلَى مَا يَشَاءُ لَهُ الْهَوَى مِنْ سُنَّةِ الْحِمَارِ وَالْبَعْلِ وَالْفَيْلِ وَجَمَاعَتِهَا كَمَا بَالِغَتْ صَاحِبَةُ الْكَلْبِ فِي تَرْفِيهِ كَلْبِهَا عَلَى سُنَّةِ الْإِنْسَانِ؟

قال "الشيخ على": الحياة يا بني مدة، والمدة ضائعة لولا العمل، والعمل على مقدار المنفعة، والمنفعة بآثارها وهذه الآثار هي تاريخ الحياة، فالأحمق الشرة الذي يعيش مقبوراً في باطنه، والغنى اللئيم الذي يعيش مقبوراً في خزانته، والفاسق العاهر الذي يعيش مقبوراً في رذائله ومخازيه، والدنيء السفلة الذي يعيش مقبوراً في جرائمه وآثامه - كل أولئك لا تاريخ لحياتهم ولا حياة لتاريخهم؛ فهم أناس خلقوا بخصائصهم لتمثيل ألوان العذاب وأصناف العقاب؛ يقع ذلك عليهم من الله ثم يقع منهم على الناس، وإنما يُعَانِ الْمَخْذُولُ مِنْهُمْ عَلَى احْتِمَالِ أَمْرِهِ بِمَا هُوَ فِيهِ مِنَ الْغُرُورِ وَمَا يُطَوِّعُ لَهُ؛ وَمَا كَانَ الْغُرُورُ وَصَاحِبُهُ فِي عَاقِبَةِ الْحَيَاةِ وَرَجَعَ الْأَمْرُ كَرَجْلَيْنِ مِنَ الْحَقَقَى ضَمَمَا طَرِيقَ فَاصْطَحَبَا، ثُمَّ أَفْضَى بِهِمَا السَّيْرَ إِلَى جَبَلٍ قَطَعَ عَلَيْهِمَا، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: أُنَى أَرَاكَ شَدِيدَ الْأَسْرِ قَوِيَّ الْبِضْعَةِ، وَمَا أَرَى إِلَّا أَنْ تَحْمَلَ هَذَا الْجَبَلَ وَتَلْقِيَهُ بَعِيداً مِنْ هُنَا، فَلَا مَذْهَبَ لَنَا إِلَّا مِنْ وَرَائِهِ... قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: أَمَا إِنِّي كَمَا وَصَفْتَ، وَإِنْ بِي لِقُدْرَةٌ عَلَى حَمْلِهِ، فَمَا عَلَيْكَ أَنْتَ إِلَّا أَنْتَ تَضَعُهُ عَلَى ظَهْرِي^(١)... فإلا الحامل

(١) سألنا بعضهم عن هذا المثل وما أخذه يظنه منقولاً؛ فهو من كلام "الشيخ على" وقد وضعنا أمثالا في كتابنا "المعركة".



أطاق فحمل ولا المغيث استنطاع فأعان، وإنما هما كحماري العبادي الذي قيل له: أي حماريك شر؟ فقال: هذا ثم هذا... وهكذا يُعين الغرور على طلب الدنيا ويُدِين للمغرور فلا تراه أبداً إلا على زينة من أمره^(١) حتى تذهب الحياة في باطل كالحق أو حق كالباطل، فإذا حَسَمَ الموت عنه مادة غروره وجاءه باليقين الذي لا مزية فيه! قال: ويحي! لو رجعت لعلّي أعملُ صالحاً فيما تركت! وآه لو عرفت حقيقة الحياة قبل الموت، أو عرفت حقيقة الموت وأنا بعدُ في الحياة!

أبها المغرور! ما أراك إلا دائباً في طلب الحياة حتى تفقدها من شدة الطلب فلا تكاد تستوضح ما هي؛ فإياك وإياها، لا تأخذ معنى الحياة من نفسك إن لنفسك أغراضاً حية تريد أن تكون هي الحياة؛ ولا من الناس، إن فيهم أغراضٌ نفسية؛ ولا من مدة عمرك، فإنها لا تبلغ طرفة واحدة من عين التاريخ.

ولكن أعد نظراً على ما وراءك وخذ معنى الحياة من ستة آلاف سنة عرفت من تاريخ الحياة نفسها^(٢)، ثم من عمر الأرض كلّها، ثم من تاريخ الموت المجهول أوّلُه وآخره؛ خذ معنى الحياة من هذه الأفواه الصامتة التي لا تكذب لأنها تحفظ الحقيقة الإنسانية؛ من هذه القبور التي تملأ الرّحَب؛ من هذه الهاوية التي ينصبّ فيها فراغ الحياة دائماً دائماً لأن تحتها مجرى التيار المتدفّع من النهاية الأرضية المعروفة إلى الأبد الذي لا تُعرف له نهاية، خذها من هذه الكلمة التي وضعتها السماء للأرض، وهذه الكلمة الأزلية التي تحقق الإخاء والمساواة في الناس جميعاً بلا

(١) أي فرحاً بما لديه.

(٢) الغرض: من التاريخ العمران، وهو فيما كشفوا لا يتجاوز هذا الدهر أمامة ما قبل التاريخ فيقدرونها في الحياة الإنسانية بنحو مئتي ألف سنة، أكل إنسانها التاريخ فيما أكل

شُدُوذٌ وَلَا تَأْوِيلُ، الكلمةُ التي يكون القبرُ زاويةً في معناها، كلمةُ الله عز وجل في قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿١٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾.

أيها المغرور. خذ الحياة حقيقةً لا وهماً، وعملاً لا علماً؛ واسمع للحياة إن كنت تعرف لغتها، أو اسمع للموت الذي يعرف كل إنسان لغته، فإن كل ذلك يعلمك أن الرجلَ الحرَّ لا يعرف على أي حالةٍ يعيش إلا إذا قرَّر لنفسه على أيِّ حالةٍ يموت: وأن الحياة ليست في الوجه الذي توجد عليه من الغنى إلى الفقر، ولكن في الوجه الذي تنتهي عليه من العمل الصالح إلى العمل السيئ؛ وليست في ترفيه الحواسِّ الغليظة، ولكن في النفس والضمير: الضمير النقي، لثواب الدنيا وجمال الحياة ولذة الخير؛ والنفس الطاهرة، لثواب الآخرة ونضرة الخلود ورحمة الله.

قال "الشيخ على": فلا تسأل يا بني ما هي الحياة؟ ولكن سل هؤلاء الأحياء: أيُّكم الحي؟...





سحق اللؤلؤة...

قال "الشيخ على": "وإني محدّثك الآن حديثًا يَشْفِي نَفْسَكَ مِنَ الْخَبَرِ، ويفتح عليك أبوابًا من العبرة والموعظة ويَحْضِرُكَ طَرَفًا مِنَ الدُّنْيَا بِأَقْدَارِهِ وَعِلَلِهِ وَمَذَاهِبِ حِكْمَةِ اللَّهِ فِيهِ كَأَنَّمَا أَنْتَ شَاهِدٌ أَمْرَهُ؛ فَلْتَعَلِّمْ أَنْ الْمَالِ مُشْغَلَةٌ عَمَّا سِوَى الْمَالِ، وَأَنْ الْحِرْصَ عَلَيْهِ حَقُّ الْحِرْصِ لَا يَدَاخِلُ أَمْرًا مِنْ أُمُورِ الْحَيَاةِ فَيَعْتَرِضُ بَيْنَ وَرِيدِهِ، وَصَدْرَهُ الْإِسَاءِ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا"^(١) وفسد الأمر فعسى أن يتصل بما هو أجلُّ منه خطرًا وأسنى منزلةً، فلا يكون ذلك الحرص إلا مضيعةً" ولا تكون الرغبة فيما يستخلف إلا سببًا في ذهاب ما لا يستخلف.

ولتعلمنَّ أنَّ الْمَالِ شَيْءٌ غَيْرُ الْحَيَاةِ، وَأَنَّ الْحَيَاةَ شَيْءٌ غَيْرُ الْمَالِ، وَأَنَّ مَا يَخْتَدِعُ الْإِنْسَانَ فَيَتَلَوَّنَ لَهُ مِنْ سَرَابِ هَذِهِ السَّعَادَةِ إِنَّمَا يَكُونُ أَكْثَرَ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنْ بَرِيقِ الْمَالِ يَحْسَبُهُ شَيْئًا حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا؛ وَعَسَى أَنْ لَا يَكُونَ فِيهَا أَقْبَلُ مِنْ نَعِيمِ الدُّنْيَا إِلَّا مَا يَدِرُّ بِصَاحِبِهَا، وَأَنْ لَا تَصِيبَ فِيهَا زَوْىَ عَنكَ مِنْ حَظِّهَا إِلَّا مَا يُقْبَلُ بِخَطِّ نَفْسِكَ عَلَى نَفْسِكَ.

ثم لتعلمنَّ أنه إن كانت للقدَّر فترة عن رجل من الناس فقيرا أو غنيا أو وبين ذلك، فما هي غفلة ولا معجزة؛ ولعل الرجل إنما يُقَدُّ لَهُ فِي الْغَى مَدًّا طَوِيلًا حَتَّى إِذَا جَاءَ يَوْمُهُ انْفَجَرَ عَلَيْهِ بِمَا لَا يَطِيقُ لَهُ سَدًّا وَلَا يَسْتَطِيعُ لَهُ رَدًّا. وَأَنَّهُ رُبَّ كَلِمَةٍ تَعَارَفَ النَّاسَ مَعْنَاهَا وَأَجْرُوهَا عَلَى مَذْهَبِهَا فِي كَلَامِهِمْ فَإِذَا هِيَ نَزَلَتْ بَعْضَ مَنَازِلِهَا مِنَ الْحَيَاةِ كَانَ لَهَا مَعْنَى آخَرَ لَا تَفْسِرُهُ

(١) أى الورد والصدر، وهما كناية عن مبدأ الأمر وغايته.

إلا الحياة نفسها، ثم لا تفسره إلا على ضد مأخذهم ومقصدهم؛ فيقول الناس "فلان الأمير" ومعنى ذلك فيما نراه من حوادث الحياة وأقذارها فلان التذلل؛ ويقولون "هذا الغنى" ومذهب الحياة أنه الشقى بغناه؛ وفلان أعزه الله وإنما هي أخزاه الله بعزه؛ ويحسدون فلانا إذ يرون أن الله عز وجل قد مكن له وآتاه من بسطة المال والجاه فهو يستعد للحياة بأفضل عُدتها ثم تقع الواقعة ويتغشى فلانًا هذا ما شاء الله من الحوادث والأقدار فإذا هو إنما كان يستعد للموت بأقبح عدته!..

ولتعلقن كذلك أن الغاية من هذه الحياة كمالُ الحى فى جسمه ونفسه، فإن تم بالفقر فذلك غناه، وإن نقص بالغنى فذلك فقره، ولا شأن لاصطلاح الناس فيما هو خاص بين المرء وذات نفسه؛ وهذا معنى بسطته لك آيًّا ولكنى متلقيك بمثاله من رجل وامرأة، ولا عليك أن لا تسمع حديثًا عن الباشا و"هانمه" أو أبى زيد وأم الخير، ولا على أن أحيئك بالمثاليين على باخرة^(١) أجعل ذلك من صرف الكلام وتزيينه^(٢) وما بلادنا من هذه المخازى بمنتزج، ولكنى أردت إمتاعك من لذة الحديث على مقدار إمتاعك من حكمة الحادثة؛ والكلام عن رذائل الحياة فى بلادنا هذه كلام غث يتجافى عن الرقة فى أكثر مناحيه، وإذا وجهته إلى أكثر قومك فإنما أنت تشتمهم به أوهم يتلقونه من هذه الجهة، ولا مناص أن تقع بك ظئمة السباب وإن كنت واعظا، ويقال عاق وإن كنت براء، وغاش وإن كنت من الناصحين.

(١) من خارج البلاد، لأن الرواية عن (فكتور ولوزين)

(٢) صرف الكلام: أن يزداد فيه ويحسن.



الرجل البخيل

أما فلان هذا فهريم بخيل لو مسخ حجراً لتحطمت من غيظها الأحجار، ولو كان على بخله حديدًا لما لان الحديد في النار، ولو صوره الله طينا أجرف لما طن في يد أحد على نُقْر، ولو خلقه مرة أخرى من تراب لما جمع هذا "التراب" إلا من ثياب أهل الفقر...

وهو نبيُّ أمة البخل؛ أما معجزته فهي قدرته على أن يستنبط غير المألوف من المألوف، ويستغل الصفر فيخرج منه ألقًا إلى ألوف وإنه على ذلك لآية، فما رآه المؤمنون إلا قالوا: اللهم غَفْرًا، ولا رآه الجاحدون إلا زادوا عتوًا وكفْرًا.

وكم تمنى وهو يتهالك حرصًا أن يكون كإبليس في أنه لا يموت إلا متى هَرِمَ الدهر، ولا يذهب من الأرض إلا حين لا يبقى في تاريخ الأرض ولا شهر، وإذا خوفته الموت والحساب قال ويك دغ عنك، وإذا علم أنه سيعطي كتاب أعماله في الآخرة قال ياليت صحفة من "ورق البنك"!

على أن يرْهمه في أيدي الناس هم واسمَه في أفواههم سَم، وكم لأمواله من قتيل فمن (استلَف)؛ فقد ذهب به التلَف؛ ومن اقترض؛ لقد انقرض!

وكم من بائس فشعت غمامته، ثم غالت هامته^(١)؛ وقضت دَيْتَه، ثم أبكت عينه، فو الذي نفسى بيده إن دراهم هذا الخبيث لثُعد من اللصوص، وإنها لثُيْمَة على العموم أما هو فليهم على الخصوص؛ يرسل الدرهم في يد المحتاج فيذهب فيه دينار، ويقدم فكره الملتهب فلا تقع إلا في

(١) أي قتلته، والمعنى أنها تنفس كرب المحتاج حينًا ثم تكون له كربًا لا نفس فيه، لأنها دراهم تاكل دنائير، ودنائير تاكل أرضًا

بيوت الفقراء ناره، ولو كان مخلوقًا يوم عَزَصَ اللهُ الأمانة على السموات والأرض والجبال فَأَتَبَيَّنَ أن يَحْمِلْنَهَا، لحمل وحده الأمانة؛ وإذا كان مبلغ القول في وصف كل غنى كريم أنه "صراف" في جزاة الله فجهود القول في هذا اللئيم أنه لَصَّ الجزاءه^(١)!

وهو على غناه كأنه في الناس بؤس المفلس في القمار. وكأنه لِحِقَارَتِهِ ذيل الحمار؛ إن طلع عليهم فطالع زحل، وإن غاب عنهم فوباء زحل، ومتى ذكروه، فكأنهم نكروه، وإذا قضى عليهم أن يسموه فكأنما شتموه. وإذا وصفوه قالوا وجع الأظفار، وذنوب بلا استغفار، اللهم فإنا عذاب النار! أما وجهه فلو أنزل الله مرآة من السماء فنظر فيها لَصِدَّتْ من قبح خيائه، كصدأ ذلك المخزون من ماله؛ وأما روعته فلو خرج على الحسان لا يتلاهن بما يفجأ الأطباء من رؤية الفهد، وامتلكهن بما يعترى المرضع إذا كشفت عن طفلها فأبصرت الثعبان في المهدي؛ وأما جهامته فلو نظر إليه البدر لغرَّب، ولو اطلع عليه الفجر لهرب، أما روحه الخفيفة.. فلو بعث خلق آخر لما كانت إلا بقعة سيف، في رقية ضيف، أو بعوضة تسلع العاشق المهجور فتوقظه وقد ظفر بالطيف، وحيائه كالبلاء المحتوم، وغناه كالكنز المحتوم، أما هو فكالقبر الكتوم.

وأحسب لو رسمه أمهر المصورين بأبدع خططه^(٢) وألوانه، وأنطقه من عينه وعنوانه، وجعله آية فنه وافيتنانه، وترك من يراه لا يحسب إلا أن المصور قد سرقه، أو أن الله تعالى مسخه على ورقة لبقى مع ذلك في

(١) الفنى الكريم الذى حق الفنى عليه إنما يعرف أنه مؤتمن على مال الله لانفاقه فى وجوه الخير على نفسه وعلى الناس، ولكن البخيل يدخر ولا ينفق، وقد ظن بعضهم أن الصراف عامية عربيتها "الصيرف" ولكنهما صحيحتان، فصيحتان.

(٢) أى الخطوط.



رسمه مغمز لا تصليحه إلا يد الشيطان الرجيم! ولا تلونه إلا شعلة من نار الجحيم. ومن للمصور بشرارتين من الصاعقة ينزلهما فى الرسم لتظهر بهما عيناه^(١)، ومن له برقبتى البخل والرذيلة يطبق عليهما يسراه ويمناه، ومن له بلونين من غضب الله ونقمته يظهر بهما فى الصورة معنى فقره وغناه؟

ولست أطيل فى القول، فما أنا ببالغ من القول بعض صفاته وهبهات أن يصفه على الحقيقة إلا من يعلم لغة الملائكة فينقل إلى لغة الناس كتاب سيئاته. قال "الشيخ على": ذلكم هو "الكونت فيكتور" رجل أملق أموال الناس وزادها فى ماله، وجمع بين سوء حمل الغنى وسوء حمل الجاه، وعرف النعمة ونسى المنعم بها، فكأنما فتح الله عليه من هذه الدنيا ومكّن له فى أبوابها وافشى جاهه ونعمته على ما ابتلاه به فى خاصة نفسه من المحق، ليجعله واحداً من أولئك الذين يُخرج للناس من توارихهم قصصاً فى الأخلاق محكمة السبك فى نسق التأليف الإلهى المعجز الذى يأتى بالحادثة فى موضعها حية وميتة، ويُنزل الكلمة فى مستقرها من الموعظة ولو أن فيها زهاب نفس وإدبار نعمة ويُدير المثل والفلك بأسلوب واحد.

وقد أسند هذا الرجل فى حدود السبعين وكادت تحطمه السن، ولا يزال متأبداً^(٢)، ولم يستر سقُف بيته امرأة؛ ولا ضحكت الشمس فيه على وجنة طفل يتبسم وقد نشأ على أن حب المال لا يستقيم إلا ببغض النساء، أنه أكثر ما يُجمع لهن وأكثر ما ينفق عليهن، ولا يرى المرأة إلا

(١) أى جعل خفيات نفسه ودخائل طباعه ظاهرة فى نظره ومعارف وجهه من الصورة. وعنوان الشيء: ما استدللت به مما يظهره على حقيقة هذا الشيء.

(٢) يقال: تأبداً إذا طالت عزيبته وقل أربه فى النساء، ويقال: حطمته السن إذا أبلاه الهرم

أنها "ثورة مالية" و"سوق في البيت"، و"أزمة يحتال الرجل للخلاص منها بالوقوف فيها.. ويقول إنها منذ أكلت من الشجرة الملعونة في السماء جعلت الرجل شجرتها الملعونة في الأرض، فهو ما عاش ينبث وينمو وهي ما عاشت تحصد وتأكّل...، وقال مرة: إن الرجل لا يزال عاقلاً حتى ينزوح، فإذا هو فعل فقد صار من زوجة وأولاده سلسلة بطون... فقيل له: ولم لا يكون يوماً من زوجة وأولاده سلسلة عقول؟ قال: إلى أن يصبح أطفاله القدماء رجالا يكون هو قد صار طفلهم القديم!...

وجاءه يوماً سمسار يساومه في أرض له وجعل يراوغه ويترقى إلى خديعته بما أوتى السماسرة من خبث ودهاء، ويُقْبِلُ به مرة يدبر به مرة، والكونت في كل ذلك يعبث وينمي له^(١)، ثم صرفه على طمع كاليأس، فلما ذهب مدبراً قال: ويحي! لو أن هذا السمسار كان امرأة جميلة إذن لأدارني في يده كما يرقص الدينار على الطُفْر، فالحمد لله إذ خلق النساء على نظام رحيم فجعل في هذا الشر المحتوم موضعاً للهرب...

ولما بلغ الخمسين - بعافية من الله - قال أحسبني لو كنت متزوجاً يوماً فإن امرأتى في هذه الساعة تلتقم ثدي أمها... فسأنتظر حتى تصلح لي! فأجابه بعضهم: وحتى تصلح لها أيضاً!...

وتواصفوا عنده الجمال مرة وأفاضوا في حديث النساء والنعمة بهن- وقد تعالِم الناس ذلك البغض منه- فلما أضجروه قال: حسبكم يا قوم، ما أراكم إلا تخلقون إفاكاً إن هذه المرأة في حقيقتها غير تلك المرأة في وهم الرجل؛ فهي هي حتى يبعث عليها وهمه ويصبغها بألوان نفسه وتستضيء به فكأنها منه أمام الفانوس السحري... إن المرأة خصم عنيد

(١) يتركه في قليل الخطأ حتى يبلغ أقصى الخطأ.



لا يقتل بالغضب ولكن يَقتل بالضحك، وشر ما فيها أنها لم إن لم يكن منها قتل فليس معها حياة^(١).

تقولون إن الرجل محتاج إلى المرأة، فقد كان ذلك أيام كانت المرأة كأنها في عملها للرجل رجل آخر... فتلك حاجة اليد إلى اليد، وحاجة الظهير إلى الظهير، وألهي مناقلة طبيعية في الجنسين بين قوة تحتاج إلى ضعف يخفف من سورتها، وبين ضعف يحتاج إلى قوة تشدُّ منه؛ فلو كان للعالم كله رجالاً؛ إذن لطالت أنيابهم كثيرًا ولما وجد على الأرض من يخترع مقصًا للأظافر.

أنا لست أنكر أن المرأة شيء طبيعي، وما هي بهولة من الهول^(٢) ولا مسخ من المسوخ، ولا أنا آسف على خروج آدم من الجنة بذنبها؛ فإني رجل اقتصادي، ولقد كان من هذا الذنب رأس مال كبير، فإياكم وإيائي، لا تظنوا أنني أكابر أو أماري، ولا تحسبوني جلفًا يكره الجمال ويريد أن يكون للمرأة بديلا من رأسها النحيل المكلل رأس جاموسة... وبدلا من يدها الرخصة الناعمة ظلف بقرة^(٣)... حسبكم يا قوم- حسبكم الله- لا أطيق هذا العبث بي، ولكني أسمعكم تقولون المرأة وتصفون المرأة ولا أرى المرأة نفسها كما تحدّثون وتصفون، بل أرى مخلوقة غريبة الأطوار في هذه المدينة، وأرى خرقاء إن لم يكن معها الإفلاس فلا أقل من أن يكون معها الندم أو الغيظ أو السخط، وربما كانت بلائًا ماجفًا يُرْف إلى الرجل يوم زواجه باحتفال... يُخَيَّل إليها من الفكر في المال أن الرجل هو مال

(١) يريد بالتى لم تكن منها قتل: المرأة لا تكون جميلة وفاتنة، فاذا هي لم تكن جميلة لم تطلب معها الحياة في رأيه

(٢) الهولة: كل ما يفرغ به الصبيان

(٣) انظر كتابنا - السحاب الأحمر -

أيضًا، وتريد أن تتزوج، ولماذا؟ لأن المحراث لا يلتصق بصله إلا بعد أن يجدوا له الثور... امرأة متأنفة لا تريد أن تطلع الشمس كل يوم على زئٍ جميل ليكون لزوجها كل يوم همّ جميل، ثم هي أحسن ما تكون حين تخرج من بينها كأن بيتها منخل لا يُمسك منها إلا الخثالة...

إننا ياقوم لقاء المرأة لا تلقاء مُعجزة من معجزات الأنبياء فنحن نستطيع أن نقول هذا خطأ فيها وهذا صواب منها، ولكنها على أي أحوالها لا تريد أن نكون معها أبدًا إلا على حالة واحدة؛ تريد أن تشبه نفسها، لأنها لا ترى أكمل من نفسها؛ أما الرجل فهو إذا رأى فيها نقصًا فذلك عندها لأن عينه عين رجل وتكاد أهدأها بها تكون من شعر اللحي والشوارب^(١)... فمن ههنا لا يرى الخبيث تلك الحسنات النسائية التي تترقرق من المرأة في كل شيء صافية جميلة كنور القمر.

تري هذه المرأة أن كل حسن في أعمالها لا يكون إلا أحسن شيء لأنها حسناء؛ ولكنها لا تقرُّ أبدًا أن كل قبيح في أعمالها ينبغى أن يكون أقبح شيء، ولماذا؟ لأنها حسناء أيضًا!

هذه المرأة الجميلة قد ظنت عند نفسها أنها شيء مقدّس، ولذلك لا تريد أن تعمل عملاً، كبقرة البراهمة، فياليت الرجل كان شيئًا مقدسًا أيضًا كعجل المصريين القدماء... ولكن البقره المقدسة في المرأة لا تعرف العجل المقدس في الرجل!

يا هؤلاء، إنما الرجل مخلوق قوٍ، ولكن معظم قوته منصرف إلى حواسه؛ فمن ثم كان في يد المرأة ضعيفًا، لأنها على ضعفها ينصرف ما

(١) مبالغة، في خشونة الرجال، لأن اللحي والشوارب من خصائصهم، فكان العين التي هي من أسرار الجمال في الجنسين هي في الرجل أيضًا خشنة.



فيها من القوة إلى عواطفها، فلا يلتقى الخصمان إلا كانت الهزيمة على الرجل، وقد كان لولا بسفاهُ رأيهِ في منظرٍ عن هذا ومُستمع^(١)، فما رأيتُ قط رجلاً يهوى امرأة إلا اعتد سلطانهُ في أنه يشعر بسلطانها عليه، وكان رضاه في أنها راضية عنه؛ فهكذا هكذا.

جعل الرجل حاجته الكبرى في المرأة، وبالغ في توهم هذه الحاجة، وافتن في تصويرها ألواناً وضروباً، فجعلت المرأة حاجته إليها سبب كل حاجة لها، وبالغت في الطلب، واحتكمت فيما تطلب، وانصاع الرجل في يدها كالبهيمة السائمة، وجعله التمدنُّ الفاسدُ في رأيها كآلة الساعة. علامةُ ضبطها وإتقانها "أن لا تقدم ولا تؤخر"!!... وإن تعجب فعجب أن هذا الرجل نفسه إذا هو كبها مرةً عن حاجة تطلبها، أرضاها بحاجة أخرى لم تطلبها، فكأن هذا المسكين إذا تعبد لها يأبى إلا أن يكون عبداً بشهود وأدلة... وتحسب المرأة اليوم أنها غيرُ المرأة من قبل، وغيرُ ما كانت حالها، كأنها رُقى في التاريخ، فقد غيرت نفسها بالفنون والعلوم والأزياء، وبهذا التحكم الباطل وبهذه الدعوى الفارغة، وأنا أول المؤمنين أنها غيرت نفسها ولكن هل غيرتها الطبيعة^(٢)؟

أبها السادة، إن كلمة "هات" كلمة "خذ" لولا كلتاها لخربت الدنيا وتناصرت الأمور والأحوال، وكل عمل عامل وكل عامل يتركب منهما، فالدنيا كلمتان: "هات، وخذ"، والحياة كلمتان: "هات، وخذ"؛ والمرأة التي تصفونها كلمتان أيضاً ولكنهما: "هات، وهات"...

قال "الشيخ على": ومرَّ الكونت في فلسفته يمضغها مضغ الماء وربما

(١) المراد: بعيداً عنه.

(٢) أنظر في كتاب (السحاب الأحمر) رأينا في مثل هذا من مثل هذه.

أصاب شيئاً، ولكن ماذا تنفع كلمة الحق يراؤ بها الباطل؟ وهذا رجل يتكلم كأنه ابن شجرة لا ابن امرأة...! على أن من تعلق شيئاً من أمور الحياة وكل إليه؛ وهو بعد لم يعرف المال يجمعه وبذخره، وقد خلقه الله رجلاً مالياً ويسرة لما خلق له؛ وكثيراً ما رأى وجهه في المرآة فكان يعجبه من منحزيه أنهما في تفرطحهما "كحافري حصان الجنيه الإنجليزى"...

ولما استوفى عمر السبعين وأصبح في يئسه وموته كأنه جذر قرن من الزمن، خرج في عيد مولده إلى سواد المدينة^(١) منحدرًا إلى قرية يملكها، وانطلق يجتلى مناظر الطبيعة، فكان لا يرى في السائمة والطير والنبات والأزهار إلا شبابًا وطفولة، وكان وحدة منظر الهرم المستमित في هذه الطبيعة كلها، وأعجبه شجرة قائمة على مسيل الماء؛ وأعجبه أن يتفياً ظلها وقد تحفى بروحه المتعبة برؤها ونسيمها، فانطرح ينتاب هنيهة وأحب أن يسافر إلى شبابه البعيد على مطيه النور، فكبس رأسه على ذراعه فإذا هو نائم كأنما جرّع السم فحمده من فورهِ...

ورأى فيما يرى النائم كأن الأرض ترقصه على أعشابها لتمسح عن أعضائه التعب، ثم أبصر السماء فى مثل تحاسين الطاوس من ألوانها وأصباغها كأنما أشرف على الأرض فجر يوم من أيام الجنة، ثم نظر فإذا ضوء رطب يتندى وقد تفرق فأصاب شفثيه الذابلتين، ولمخ على إثره وجه حسناء كأنها فلقة القمر، فكان ذلك الضوء قبلتها وابتسامتها، وكان على قلبه "بردًا وسلامًا" فنصب لها يديه يتناولها فإذا هى تتخطى الغمام هابطة إليه، وإذا هى على الأرض نحوه مقبلة، وإذا هى أمامه ضاحكة، وإذا هى ملء صدره وذراعيه، فارتحف جسمه رجفة شديدة كأن فيها

(١) ريفها وما حولها من القرى.



شوق سبعين سنة من الهجر، وما لبثت عُقدة أجفانه أن انحلت فنظر فإذا
بِذِّ فتاة قروية ناعمة تهزه برفق!...

فانتفض الكونت كأنما نشط من عقال ولما تصحَّ عيناه من سكرة
الحلم فكان يخيل إليه أنه يرى جمال السماء والأرض معًا في طلعة هذه
الفتاة وعلى عُرتها، ثم كشف لها عن رأس كفروة الأرنب البيضاء، وانحنى
متأدبًا وقال بلطف: أشكرك يا سيدتي!

أما هي فابتسمت له وقام في نفسها أنها هي ردّت عليه روحه؛ وأنها
لو لم تنبهه لما انتبه آخر الدهر، كأنما حسبته ميتا وظهر هذا الفكر في
ابتسامتها فأكسبها شيئًا من قوة روحها، وجعل لشفتيها الحمراوين جمال
كجمال الشفق إذا افتقر عن نور الفجر.

وتأملها الرجل بمبلغ ما في نفسه من لذة الحكم وما في صدره
من ضجعة تلك الحورية التي تلوت عليه وتقلبت فيه، وبعث عليها
وهمه وصبغها بألوان نفسه واستضاءت به، فكأنما منه أمام الفانوس
السحري!...؟ وما خلق الله لذة أهنا للنفس من لذة الأحلام، فكأنها ترى
فيها النفس شيئًا من تحقيق المستحيل، وأن في أعقاب هذه اللذة بعد
اليقظة ما يُشعر المرء بالأمانِ كيف جاءت وكيف ذهبت، فكأنما كان في
حياة أخرى، وكأن نفسه تنمسك بهذه الحياة ولا تريد أن تُسَلِّمها، فتكون
ذكرى الخلم أروح للنفس من الخلم نفسه على الحقيقة، لأنها نتاج ما بين
لذة لم تكن شيئًا ولذة صارت شيئًا.

وثبتت صورة الفتاة في عينه على ما انتهى، وكانت زهراء اللون،
حوراء العينين، ساجية الطرف، أسيلة الخد، باسمة الثغر، حسنة
التكوين كأنها ريحانة تُرف رقيقًا، وتكاد من فرط رقبتها تتكلم ابتسامًا

حتى لا يحسب من رآها أن الشمس طلعت يوماً على أبدع من ثغرها واللؤلؤ، ولا أحسن من خدها والورد، وكان الطبيعة يعترتها أحياناً من سوء الحرص وسوء الخوف وسوء الحيلة بعض ما يعترى الشحيح الذي يخبأ نفس ذخائره في أحسن الأمكنة وأقبحها منظراً وفيما لا حفل به من الأداة والمتاع. فكانت "لويز" على ما وصفنا من الجمال والطرف ولم تكن مع ذلك إلا قروية!

وأما صاحبها فما أشبهه بعنق النسر، شيخ مضعوف، كالعزق المنزوف والعظم المفلوف؛ ممسوخ العضدين^(١)، ناسل الفخدين، كأنما يتوكأ منها على غصوين... غير أن له عينا يتوقد فضاءها ويستيفض الناس طرفها^(٢) فلا يملك من تقع عليه أن يضطرب؛ وكذلك اضطربت الفتاة، وما كاد الرجل يلمح اضطرابها حتى طبع الله على بصيرته فحسب ذلك معنى من الغزل، وانطلق وراء خياله يمر به على آمال الشباب الفانية، وكان لحظ الفتاة ينساب في عروقه دماً يغلي؛ فحسب أن جسمه قد ثاب إليه^(٣)، وأنه بعث خلقاً جديداً لهذا الحب الجديد.

... وبيالغ في التنظرف ويجلس قريباً منها يستنبتها وهي تُظرف له من أخبارها^(٤)؛ فعلم من روايتها أنها شريفة النسب خالصة العرق، وقد نبأها المنزل وانحط الدهر على أهلها فهي ذاهبة إلى المدينة تلتمس حياة التقوى في دبر العابدات... وعلمت هي من رؤيته أن في هذا الموت المائل أمامها حياة، وأنه لا مذهب لها من ورائه إذا هي أفلتته إلا مذهب

(١) ليس عليهما لحم، وكذلك ما بعده.

(٢) إذا رأوها أرددوا هيبة.

(٣) رجع إليه بعد الهزال مما أثر في أعصابه ودمه.

(٤) تذكر له طرفاً منها وتخفى عنه ما بقى مما لا تحب أن يظهر عليه.



القدر المجهول؛ ورأته كأنما يتشرب لفظها ولا يسمعه، وأبصرت هواها فى حماليق عينيه، فجعلت حيناً تبسّم له وتلحظه وحيناً تلحظه وتبسّم له، وما تلفظ من أنه فى بَث حزنها إلا أحس المسكين أنها نقرة على أوتار قلبه، ولعل الإنسان لا يمكنه أن يُحب إلا هيات له الطبيعة مجلس الحس على ما يشتهى وعلى ما هو مذهب الحب فى نفسه!

وقد مذعت له الفتاة من خبرها^(١)، وكتمت عنه أنها طريفة منبوذة استزلها فتى من عشيرتها على أن يتحللها وكان منها مقعد فؤادها زماً، ثم طوّح بها عاره وغدرة ولؤمه جميعاً، فخرجت هائمة على وجهها ولفظها قومها كما تُطرح الثمرة إذا دب فيها الفساد من عبث الطير!

قال "الشيخ على": وإنقلب الاثنان كلاهما صيد وصائد. أما هى فأصابت رجلاً مجنوناً بها يحبها حب الجد والأب والزوج والعشيق، فإن تاب إليه عقله من جهة بقى مجنوناً من ثلاث جهات؛ وحسبت أن الموت مصبّحه أو مُفسيه فهو همّها عشيه أو ضحاها. ولقد كانت من الضائقة والعوزِ وشدة الاختلالِ بحيث لو عهد إليها أن تغسل الزنجى حتى يبيض لقاء درهمين لطمعت فيهما...؟ وأما هو فقد ظفر فى زعمه بالمرأة الطبيعية التى نبتت مع الأزهار، وطلعت فى سماء الحياة مطلع ضوء النهار؛ وحسب أن هذه الفتاة التى تناهز العشرين إنما هى زيادة عشرين سنة فى عمره ينتهبها من القدر انتهاباً ويقضى بها ذين الحب طفولة وشباباً ولست أدري كيف عزّب العقل عنه، ولا كيف خذله رأيه، ولا كيف وهى ركن فلسفته وكان من قبل وثيقاً وكيف أحب منذ الساعة وقد

(١) ذكرت له قطعة منها دون سائرها.

كان يتصاوَرُ عن النساء ويحسب أن بغضهن عقد لا يحلّه إلا من يحل
عقدة نفسه^١...

ولكن الحب يا بني لا يكون عجيبيّاً بلا شيء يُعجّب منه، وكثيراً ما
يتملأ الرجل بغضا ليحب بعد ذلك بمقدار ما أبغض^١، فمثله كمثّل من
يبحث عن البرهان بطريقة من طرق المغالطة التي لا تؤدّي إليه، فمتى
أصابه كانت قوة البرهان بطريقة استخراجة العجيبة أشدّ منها في
البرهان نفسه.

وهي الأرواح ما يزال بعضها يتسلط على بعض، وما إن يزال في كل
روح معنى هو الوسيلة إلى هذا التسلط ومنه مَساعُة ومأتاه؛ فلو قلت إن
في مسلاخ ذلك الرجل معنى الحمار لما كان في الفتاة إلا معنى العصا؛
وكذلك انطلقت وهي تسوّقه في طريق مصائبه، وعند العصا تفرغ حيلة
الحمار ولو كان الحمار أبيعاً.

في الحب

من هذه الهيفاء التي تستميل ولا تميل، وقد استبدت بالجمال فلا يرى
في غيرها شيء جميل؛ طالعة كالضحى فكل نجمة من ضوئها كاسفة،
لاهية كالنسيم وفي كل قلب من حبها عاصفة، وقد عبّدها العشاق باطلا
كما يعبد المجوس الشمس، وتمنّوا في دلالها المحال كما يتمنى المرء من
أمس، وكتب عليهم هواها المحتوم: "جند ما هنالك مهزوم"

وكم تمنوا لو أن لين أعطاها، يتعدى إلى انعطافها؛ ولو أن بعض
ابتسامها؛ يُشرّق على ظلمات اليأس من غرامها؛ وهي تقتل منهم برضاها

١) انظر فلسفة الحب والبغض في "رسائل الأحزان" و"السحاب الأحمر".



وغضبها على السواء كأن خبها الموت: متى قِضى جاء به الداء وجاء به
الدواء؟

فى الحفلات

ومن هذه الطالعة فى غَلائها، المعروفة فى الحسن بدلائها؛ المشرقة
كالبدر فى ظلمة الحلك، الضاحية كالشمس فى رقبة الفلك، تعترف
بالهوى فى ألحائها، وتُكره فى ألقائها ويُقبل بعينها سائلة عما بين
جَنبيك، وتلتفت بجيدها مائلة عن جوابِ عينيك؛ وقد حَسرت عن زُنديها،
ووضعت رمزًا للحب تلك الوردة على نهديها، فلاحت للمحبين كأنها روح
القبّلات من خديها؟

فى الرقص

ومن هذه الزهراء كالنار المشبوبة، الحسناء كالدُمية^(١) المنصوبة؛
المشرقة فى زينتها كغزة الدينار، اللائحة فى ميناء الدموع كما يلوح
المنار؛ وقد شَفَّ قلبها عن الجوى كما يشفُّ الزجاج، وتدافعت من طرب
الهوى كما تتدافع الأمواج؛ وهى ترقص على حركات القلوب فى الضلوع
وتسترسل فى سهولة كأنهم جسمٌ خُلِق من الدموع، والأبصار قائمة
على قوامها، والنفوس حائمة منها على جمامها، وما هى عين المحب إلا
خطرات الطيف، أو رقة نسمات الصيف، ولا رقصها إلا معركة فى الحب
قام فيها اللحظ مقام السيف؟

(١) التمثال الجميل.

فى الموسيقى

ومن هذه الباسمة كالأزهار، الساجعة كالأطيبار، التاركة عشاقها كالشمس بين طرفى الليل والنهار، القائمة كالكأس فى اليد، الناعمة كالحمرة فى الخد. وهى تحبى بالصوت لأنه يخرج من صدرها، وتسكر باللفظ لأنه يمر من ثغرها ويكاد يخلق من سحر القلب المفتون، ومن حركات أناملها العقل المجنون، وإذا صدحت فحمامة! وإذا رقصت فغاممة، وإذا أرسلت من يدها (صحية) الأوتار أقامت للطرب (القيامة)؟

تلك هى درة الصدف المطروحة على ساحل الموت، وهى حمامة ذلك القفص البالى المصنوع من العظام، وهى خطيبة الكونت فيكتور...
وتلك هى "لويز" القروية الساذجة، كانت تبتة فى الطين، فأصبحت زهرة فى وعاء ثمين، ولأن تكون نبتة مهملة وتنمو، خير من أن تكون زهرة مرعية وتجف.

ولقد رأى الكونت- أخزاه الله- أن أحسن ما يكون الاستمتاع بالجمال حين يكون الجمال فنا وفتنة، فأما الفتنة ففى عينى لويز وجمال تكوينها، وأما الفن فلا سبيل إليه من هناك ولا من فلسفته، وليس إلا أن يبسط يده كل البسط حتى تنبت له تلك الزهرة من أعضان الذهب والجوهر؛ فأنفق واتسع فى الإنفاق، وجعل آمال شيخوخته كلها مقترحات فى زينة الفتاة؛ فبرعت البراعة كلها فى الرقص والموسيقى وأحسنت من الفن النسائى فى أساليب الظرف والجمال والزخرف على جسمها، ما ترك هذا الهرم المتصابى المفتون يفاخر الناس كافة بأنها خارجة من قريحته.

وأعجب ما فى أمره أنه على كثير ما أنفق وطائل ما بذل، لم يكن يرى أنه أنفق على لويز ما لا بد منه لمثل لويز...! وهو منذ أصبحت فى كنفه،



استبدل من الحرص على المال بالحرص على الحياة، وعرف أنه لا بد في الحب من وسيلة، وأن قلب المرأة ليس في يد أحد ولا في يد المرأة نفسها، بل هو يحتكم فيما يختار، ويختار على ما يحتكم؛ وأنه ليس أشدَّ عُنفًا من هذا القلب، فهو إن لم يُحَيِّ قَتْل: يحبُّ المرأة عاشق غير محبوب منها، ويريد مُراغمتها على حبه فيقتله قلبها لوعة وضنى بما يطوِّع لها من صدّه أو بغضه؛ وتحبُّ المرأة ثم يمنعها قومها ويُرغمونها على غير من تحب، فلا يقتلها إلا قلبها!

وإن (فكتور) ليعرف أنه فارغ الخلقة... من وسائل الحب كلها، ويعرف أنه في أحمض أنواع الهوى لا يعدل أكثر مما تعدل قشرة الليمونة المعتصرة، فكيف به في الثمر الحلو، وكيف به في حب لوز!

لم يبق إذن إلا أن "يخرج الوسيلة من يده"، والمال أضعف الوسائل في الحب الصحيح وإن كان أقواها في الحب المكذوب، على أنه لا يجعله قويا من ضعف إلا أن يظلَّ يمد بعضه بعضا، فإذا أنفضت اليد أو أمسكت فلأن يقبض المحب على الريح أيسر من أن يضع يده على ظبية شاردة... ومن أجل ذلك توسع الكونت البذل حتى كأنه كيس مخروق ولم يعرف لها طبا إلا بلغ فيه رضاها وحسب أن في رضاها محبتها فكان يأتي بالحاجة التي نطلبها والحاجة التي لم نطلبها، ويجعل كل شيء شبيهاً، "وأبى إذ تعبد لها إلا أن يكون عبدا بشهود وأدلة"

وبقيت "لوز" تنربص به الأجل، فكانت له كحرف التسوية؛ ولا تزال تدافعه عن نفسها؛ وتروضه على الصبر، وتمنيه أنها تستتم فنون الجمال من أجله، وأن هذا القمر متى تم فسيدخل معه في المحاق... لا محالة.

وتظن باطلا أنه لم يبق منه إلا كما بقى من ذئب الورَّغَة^(١) تضرب به يميئاً وشمالاً ثم تموت؛ بيد أن الموت لم يستنقذها منه، وأن كان يرأف بها أحياناً وتدخله الرِّقَّة عليها فينيب عنه (الروماتزم)^(٢) ليريحها بضعة أيام!.. وكان الرجل يخشى غضبها ويطمع في رضاها فكان يستعين ببعضه على بعضه، ويعلم أنها ترى الصبر أحسن ما فيه فيترك أقبح ما فيه جانباً ويصبر؛ فلما استتوت فتننتها ولم يبق من باطلها ما تتعلل به أو تمتلق به علةً، ورأها قد أخذت زُخْرُفَها وازَّيَّنت واهتزت وزبث، صار منها كحرف الجر^(٣) لا يريد إلا أن يكون الجار والمجرور (متعلقين).. وفرغ صبره واستيقن أن له آخرة وأن صاحبتَه لا تزال في أول دلالها، وكانت تحسب الدهر نائماً عنها فإذا عيئه قد انتهت في أجفان هذا الشيخ فنظر إليها نظرة لا صواب فيها!..

وباغتتها الرجل فخيرها بين أمرين خيرهما شر: إما طريق إلى صدره وإما طريقة من غدره؛ ومع الأولى الوصية بالمال. ومع الأخرى أن تذهب في الحال!

وكذلك غلبها على أمرها وانتصر في معركة كان لابد أن يخسرَّ فيها أحدهما صريعا، وقد استحال أن يكون المغلوب غيرَها، وإن عثرة تنتهض منها بعد حين خيرٌ من عثرة لا تستقيئُها؛ ورأت الظبية أن لا مَنَاصَ، فوقعَت في يد القنَّاص...!

(١) هي دويبة معروفة، وهي وسام أبرص جنس واحد، ولكن سام أبرص كباره، وهذا الأخير هو ما يسميه العامة "البرص" وإذا قتلت الورَّغَة حركت ذنبها قليلاً ثم ماتت.
(٢) هو في العربية الرثية (بفتح الراء وسكون التاء) ولكننا آثرنا هذه اللفظة لموضعها.
(٣) سبق أنها كانت له كحرف التسوييف..



باليل

الليلُ منسدلٌ كأنه حجابٌ مضروب بين الحياة والأحياء، مجتمعُ الظلمةِ كأنما هي ذنوبُ الناس في نهارهم جعلت الملائكة تُرسلها إلى السماء، وتغشى الأرض معنى من خشية الله فنفرت له دموع المساكين، وأقبلت عليه أنفاس المحزونين، وبرزت له في آثار الظلم دعوات المظلومين، وقد ارتفع إلى الله صوتٌ يتقطع زفرات، ويتهلج حسرات، ويسيل من الدمع قطرات؛ وكان صوت "لويز" وهي تزفر الزفرة تكاد تنشقُّ لها، وترسل الأنة تكاد تدفقُ فيها؛ وما بها الغيظ فتسكنه عنها، ولا بها الحزنُ فتمسحه بدمعها، ولا بها الهم ولا بها الغضب ولا أمرٌ مما يتواصفه أهل البلاء ويبثونه في شكوى أحزانهم وإنما ذلك شيء إن يكن من الحياة فليس بالحياة، وإن يكن من الموت فليس بالموت؛ ولعله منازعةُ الحياة على قبلها!

ما بك يا لويز وقد بئ زوج الكونت الذهبى وهو عما قليل آخذ ما أمامه وتارك ما وراءه، وما بك أيتها المسكينة وقد كنت فقيرة بائسة لا تملكين قوت يوم فقبضت على أعناق سبعين سنة تجمع المال وتكنزه، وما بك - عمرك الله - وقد خرجت من الكوخ إلى القصر، وصعدت من العريش إلى العرش، وإن كانت حواء قد طردت من الجنة فقد طردت أنت إلى الجنة... وفى الجنة قومٌ يقادون إليها "بالسلاسل"...

قالت المرأةُ وهي تناجى ربها: إلهي! ماذا قضيت عليّ؟ لقد وضعت الدنيا فى راحتى وكأن مملكة آمالي مرسومةٌ فى كفى؛ ولكن أئى فرق بينى وبين تمثال من الذهب الخالص فى منزل هذا الرجل! لقد رددتني

من فقرى وذلتى إلى رجل رددته أسفل سافلين^(١) فما يرينى الدنيا التى
أعرفُ أنها الدنيا ولكنه يرينى الآخرة...

يا ويلنا! إن لم يخجل الرجلُ من شىء أفلا يخجل من أنه لا يخجل؟
أبى هذا الموتُ لشقائى إلا أن يتخذنى زوجته، وكنت خليفةً أن أجعله
أسعدَ رجل فى الدنيا لو اتخذنى ابنته!

اللهم إنك رزقتنى العافية فى كل جوارحى ولم تُصبنى إلا فى القلب!
يا ويلنا! ما أنا إلا لعبة فى يد هذا الطفل، لا يلذه شىء أكثر من
تحطيمها فى طرُق لذته، وقد خلقت ياربُّ من يحطم القلوب الصحيحة،
ولم تخلق من يستطيع أن يجبر القلوب المكسورة؛ وإنه ليس فيما برأت
وذرات مخلوق أشد تعبا ممن يفتش فى قلبه عما ليس فى قلبه، وهل
فى الممكنات أو فى أشباه الممكنات أن أجد فى ناحية من قلبى حبَّ
هذا الزوج؟

لقد عرفَ الناس أن قلب المرأة كثيرة العبث، وهذا الذى يسمونه دلالا
ويحسبونه فى الحب أنما هو شىء من عبثه؛ وأن هذا القلب إنما خلق
ليحب، ولذلك أعطى قوة يخلق بها الحب من العدم؛ غير أنهم جهلوا فيما
يجهلون من أسرار المرأة أن ذلك القلب إنما جاءه العبث بالرجال من أنه
لا يطيق أن يعبت به أحد من الرجال ومتى وجد من هؤلاء من يريده
بنادرتة ويجعله من هزله مَعْرَضَ السخرية وموضع العبث، لم يكن فى
الدنيا أحد أبغض إلى المرأة منه، وإن كانت الدنيا كلها فى طلعتته، وإن
كان مخلوقا من رونق الشمس.

(١) أى بلغ الغاية من الهرم أو الضلال أو ما إليها.



أليس النساء يُحببن حتى الكلاب ويُرفهنها ويغالين بها ويُنزلنّها منزلة الولد في الحب والانعطاف والتوجع والتحرُّن؟ فسبحانك اللهم! إن هذا القلب الذي يسع حبَّ الكلب يضيق عن حب كثير من الرجال إذ يحبون المرأة حبًّا ليس فيه شيء من روحها- حبَّ الزانية أو الاستمتاع أو الخدمة- فكأنهم بذلك يبغضونها بغضًا فيه كل روحها.

يا ويلتأ! أعجزت أن أجد في هذه العاجلة نفساً أرى فيها نفسي؟ وهل حرّمت على كلمة الحب فلا يفيض بها صدرى ولا ينطلق بها لساني؟ وهل خلقت لؤلؤةً لأكون في عقْد من الحصى، ورسمنى الله بهذا الجمال ليعذبني بهذا القبح؟ وما عسى أن تُزِدَّ على هذه النعمة ما دمّت لا أجد لها سبيلاً إلى قلبى، وما دام هذا القلب لا يأكل ولا يشرب ولا يلبس ولا يُعامل بالمال...؟

ضلُّ ضللكم أيها الناس إذ تحسبون النعمة حق النعمة في الغنى وحده، وتمضون الأمر على ما تخيلتم من ذلك، ولا تدرون أن الله ينتقم بالغنى أشدَّ مما ينتقم بالفقر؛ فلو أنى ابتليت بالمصيبة وأنا امرأة حامل لا حتملتها وقلتُ خمول عرفته فما يبلغ بى ولا يزيدنى بنفسى ولا بنفسه معرفة ومن رحمة الله بالفقراء الخاملين أن فى كل بلاء يعترئهم ما يُعينهم على حمل بلاءٍ أشدَّ منه، ولكنَّ الضربة اليوم لا تصدع الصدفة بل تستحقُّ اللؤلؤة؛ فاللهم لا قوّة إلا بك!

وما أشبهنى إذ قتل هوائى هذا الكونت، بزنجى من زنوج أمريكا اغتال سيداً من البيض، فلم يجدا له عذاباً إلا أن يشدوا قتيله فى وثاقه، وتركوه يَبَلَى تحت عينيه ويسيل جوفه تحت أنفه ويتناثر لحمه على صدره... وهكذا يقتله القنيل وحده بالرعب والجنون قتيلاً لا وصف لها فى لغة الحياة.

ولقد كنت بائسةً يطير بها القضاء ويقع فلا تزال دهرها تحت جناح مخفوض من رحمة الله أو فوق جناح منشور من الأمل في رحمته؛ فلما وجدتُ الغنى واستشرفتُ للسعادة، شغلني الله بهمّ نفسي، فشغلتني نفسي على النعمة، فلا تزيدني النعمة إلا همًّا! وقد كتب الله على أن يقتلني بغضّ هذا الرجل فوهبني الغنى من يده وحسب الناس أن ذلك لكيما أستمتع به وعلم الله أن ذلك لكيما اتصل بقاتلي! فاللهم قد أحبط بي وليس ورائي منفسحٌ، فمن حيثما التفت لا أرى غير ما قضيت على أن أرى؛ وهذا امتحان أينما أتوجه في الحياة لا تقابلني الحياة إلا بمسألة من مسائله المُعضلة؛

إن كلمات القضاء لا تقرأ لأنه لا ينزل بالناس إلا معانيها، على أن الكلمة الأزلية التي يكون معناها هذا الزواج وهذا الزوج لا بد أن تكون جملة كاملة من غضب الله في السماء، لا يقابلها إلا سيرة كاملة من ازدراء الناس في الأرض.

قال "الشيخ على" ونقرت دموع هذه المرأة تخفف من بأسها، وإنه ليأش أكبر مما تحتل نفسها من الصبر لو أنه من وجه الزوج وحده.. فكيف به ومع ذلك الوجه شبائبها الهالك، وآمالها الضائعة، وعصّة من شماتة الناس وازدرائهم، وبلاءً من نعمة سابغةٍ ستقلب فضيحة وسخرية؟

وأها لك أيتها المسكينة! إن مصيبة الأغنياء لتكشف نفسها فهم يحملونها ويحملون آراء الناس فيها، وإن المصيبة لتكون واحدة ولكنها ترتدُّ إليهم من قلوب الشامتين من أعدائهم والمتربصين من حُسادهم والمتوجّعين من سائر الناس وكأنها مصائبٌ كثيرة لا تُعدّ.

والمرء لا يأخذ من الله بشرط ولا يعطيه الله على شرط؛ فإن كان في



الغنى تلك النعمة ففى الغنى هذا الهم؛ وما رأيتُ أيسرَ اضطراباً من الماء
الراكد قُذِفَ بحجر؛ إلا الغنى الغافل قُذِفَ بمصيبة!

ويحكم أيها الأغنياء! متى رأيتم ثمرة لا تسقط أبداً من غصنها
الأخضر وثمره تسقط من الغصن ثم تُردُّ إليه فتعلقُ به وتُنضح عليه،
فاعلموا يومئذ أن غناكم هذا نعيم لا رزئة فيه ولا مصيبة، لأن هذا الكونَ
حينئذ يكون فوضى لا نظام له ولا قرار.

وانصدع الفجرُ، وأقبلت الحياةُ تتنفس من مباسم الأزهار، وتتغنى
بالسُن الأطيّار، والفتاةُ موجسة أن ترى طلعةً شيخها، وكأن هذه الطلعةُ
صُبح غيرُ الصبح، وودت لووقف الزمن، فإن لم يكن فوقوف الأرض، فإن
لم يمكن فوقوف قلب هذا الشيخ؛ وخيل إليها أنها ستُقرَف بإثم منكر
إذا هو بادرها قبلةُ الصباح على مثل شفق الشمس من خديها، وأنها لا
تُرمى بمسبة أوجع ولا أمض من قوله: حبيبتي... وانسلخ الليلُ، وطارت
الأحلامُ، وأفصحت الحقيقةُ، واستيقظ الكونُ...

على المائدة

زهرات ناضرة كأنما اختبأت فيها ابتسامةُ الفجر، عاطرة كأنها رسالةُ
اللقاء بعد الهجر؛ بديعةُ التتميق تحسبها قصيدة من شعر الألوان، متفتحة
للحب وكأنها لكتاب الحب عنوان، متلائمة مصففة، متلائمة كالشفة على
الشفة "قائمة فى جلالها وحسنا كأنها فى خِلقة الجمال آية، وكلُّ زهرة فى
لونها كأنها لدولة من دولِ الحسَنِ راية، وقد جلست إليها غادة فتانة كأنها
فى رقتها رُوحُ النسيم وفى نضرة شبابها رُوحُ الحديقة، ولاحت الأزهارُ
كأنما هى خيالاتُ جمالها وظهرت الغادة كأنها هى الحقيقة.

تلك هي "لويوز" في صبيحة عُرسها على المائدة وقد أثبتت في كل زهر لحظاً من لحاظها، ولا يشك من رآها في تلك الحال وهي ترتقب ظهور زوجها أنها تنفس على هذه الأزهار شبابها ونضرتها وحسن ملامتها، وتحسبها على أن ليس فيها أعواد من الحطب... يفسد نظامها وتتكربهجتها وتغض من حسننها كما ابتليت هي بزواج من عود^(١).

وإنها كذلك، إذا خفقت أقدام وضوضاء وموكب وشيء كالموسيقى، فما لفتت جيدها حتى أبصرت الكونت داخلا يتوكأ على خادمين وله نغم مختلف... وآهات وأنات، ومع النغم سعال كقرع الطبل. وكان الروماتزم قد دبَّ في مفاصله تلك الليلة وبات يفتل في عروقه وأعصابه، ووعكته الحمى واجتمعت إليه علل الشيخوخة كلها تهنئة بالزفاف...؛ غير أنه لم ينس مع هذا البلاء كله أن عروسه ترتقبه على المائدة، فحفزه الشوق وعاوده الصبي فطار إليها بجناحين من خادميه...

ولما بلغ ظلها أفلت الخادمين ثم ارتمى عليها يقبلها ريباء ومصانعة، ثم تمسك بها يستند إليها، ثم انحط إلى يمينها، وما كادت تناوله قدح اللبن يرتضعه... حتى غمره الألم وهاج داؤه، ففتح فاه وصدحت الموسيقى بنغم مختلف من آهات وأنات، ومع هذا النغم سعال كقرع الطبل...

ورأت "لويوز" ذلك فرقصت أحشاؤها! فلم تملك المسكينة أن اقتلعت جسمها من الكرسي وانكفأت هاربة إلى حجرتها، وانطرحت في غمرة أخرى من الألم، وبقيت هناك ملقاة يدار بها، وكانت لم تغتمض في ليلها، فاصطلح على جسمها هم الليل والنهار.

(١) في المثل "زوج من عود، وخير من قعود، وقد أصابت الكلمة حقاً في هذا الموضع الذي وضعناها فيه.



فصل خامس فى السنة

وزالت هذه العُشبية عن الكونت بعد أيام، كانت العروس فيها من روح الأمل كالمختلعة^(١) إذا أخذت كتاب طلاقها، أو الأُمة إذا وعدت بتعاقدتها؛ وكان دعاؤها لله كلمات لا تعدوهم، تقول: اللهم رحماك! فأنت المصيب وأنا المصابة، تلك قوتك وهذا ضعفى!

وكانت إذا حمدت الله توارثت مع زوجها فيما يَحمد الله به من حبه لا يشعر أحدهما أو كلاهما، كأن للحب الشديد والبغض الشديد لغةً واحدة؛ فكان هو يقول: الحمد لله إذ لا ترانى! وتقول هى الحمد لله إذ لا يرانى!...

وباغتها الرجل منصَّبًا عليها، فلو أن ميتنا طالَعها من قبره ما كان أروع لها عنه؛ قلب حيوانى يسكن من أضلاعه الخربة فى شقوق وظهور كالقوس يحمل من روحه سهمًا ليس له إلا المروق، وعروق ناشرة كأنها فى جلده المتغضن خيوط فى خروق...؟ ودخل عليها كما يدخل الشتاء بكلوحه وبريده، وعلى الروض النضرِ والبقية الضعيفة من ورده؛ ونظرت إليه فلم يقع من نفسها إلا موقع الهموم على الهموم، ولم يكن فى عينها إلا كما يكون الحلم فى رأس المحموم!

وجلس إليها الشيخ يتطفل ويقترح؛ وكانت لوبز تعرف أن السنة أربعة فصول، أما سنتها هذه فكانت فصولها بعد اقتراح هذا البغيض خمسة. الربيع، والصيف، والخريف، والشتاء، وشهر غسل الكونت؛ فقد لَجَّ الرجل فى عناده وأبى إلا أن يكون له ولها "شهر غسل ومما زاده كجاجة وعتوًا

(١) هى التى تكره الرجل فتحلعه لتتزوج بغيره، وهذه الكلمة فى الأصل يراد بها الطلاق بديل.

أنه كان يخشى أن ينسلخ الشهر؛ فقد ذهب نصفه في تجرُّع "الدواء" ولم يبق "للعسل" إلا ريثما يحق القمر أيامًا معدودات...

ثم انصرف من لدنها على أن ترصد للسفر أهبتها وأن ينطلقا على جناح غراب^(١).

واستقبلت العروش ليلتها وجعلت تقلب وجهها في السماء وترنو إلى النجوم بعينين قد ثبتت في إنسانيهما خيالُ ذلك الرجل كما يثبت خيال القاتل في عين المقتول^(٢)، فلم ترفى النجوم إلا هَرَمَ الدهر وتحجر الأيام وقد استيقنت أن نجمها طامس لا محالة^(٣) وكأنما خرج من الفلك، وضل في ذلك الحلك!

وما هي خطرة الفكر حتى لاح في مرآة نفسها خيال ذلك الشاب الذي اختلبها أياما بالهوى، وكان لها منه الداء وكان له منها الدواء، وأغواها في عرف الناس ولكنه هو ماضل وما غوى. وكان هذا الفتى قرويا فحلا، ظريف الهيئة، مستوى القامة؛ عريض الصدر، تام الخلقة وثيق التركيب قد ارتوت مفاصله واستحکم نسجه، وله مع ذلك خلابة، وفي لسانه دعابة، فما أطل حديته وأنداه. ما أحلى خبرة إذا كان من الغزل مبتداه.

وقد أحب الفتاة أكثر مما أحبته، ولكنها كانت غريرة لا تتبين منزلة ما بين الحب والاستسلام، وبين ما يعده الرجل وعدا بالفعل وما يراه وعدا بالكلام؛ ولم تعرف أن هذا الحب سلاح ذو حدين، فالمرأة تقتل به من ناحية الرجل؛ فإن غفلت مرة عن نفسها قتلت هي به أيضا من

(١) أي ياكزًا جدا.

(٢) اكتشفوا أن صورة القاتل تثبت في إنسان عين المقتول حتى يمكن علاجها ونقلها بألة التصوير.

(٣) أي ذاهب الضوء قد مات وانطفأ فلا حظ لها.



ناحيتها؛ وأن حب الرجل حب مجنون بطبيعته؛ فإذا لم يكن حب المرأة عاقلاً انقلب كلاهما حيواناً طامس القلب^(١) لا يبالي ماجنى على نفسه، وأن الرجل يقاد من رغبته ما دامت أملاً فى قلبه؛ فهو يَعدُّ المرأة ما شاءت وشاء لها الهوى حتى إذا انقطع هذا الزمامُ انقطع ما بين لفظ الوعد ومعناه، فأخذ منهما ما أخذ وترك فى يدها ما أعطى؛ وما عسى أن يكون قد أعطهاها إلا آمالاً ومواعيد وغروراً من زخرف القول؟ وكذلك أمر الرجل والمرأة: تحسب الفتاة إذا هى أحبت فاستأسرت لصاحبها أنها تبذل فى مرضاته أعز ما تملك، وتنوله خيرَ ما استؤمنت عليه، وتعطيه ما لا تستغيضُ منه آخرَ الدهر، وأن ذلك أحرى أن يُؤدَمَ بينهما^(٢)، وأن يكون ميثاقاً للحب غير منقوص، ويحسب الرجل أنها لم تنله إلا شيئاً هينا قريب المبالاة؛ هو عندها وعند كل امرأة؛ فإن كان سرى الخلق نبيلَ النفس رثى لها مما صارت إليه، وندم كما يندم على الإثم، ولا يكون همه إلا أن يلتمس المخرج من أمرها؛ فإن طارحته حديث الزواج رأى أن من فرطت له حرية أن تُفرط فيه، وبهتها بهذه الكلمة^(٣) وسلم وقد مات الذى بينهما، وإن كان لثيم الطبع خسيس النفس شد على رقها واتخذ من ضعفها قوة ومن خوفها أمناً، حتى إذا ملها تنكر لها ثم أنكرها، فإن استقضت ما وعد من زواجها رأى أن الزواج قد سبق أوانه... فلم تعد تصلح له ولا يصلح لها؛ وكلا الرجلين سافل دنىء زمر المروءة^(٤) وإن قال الناس فيها سرى ولثيم.

(١) لا يعى شيئاً.

(٢) المراد المحبة والاتفاق.

(٣) اتهمها فى وجهه.

(٤) قليل المروءة.

فالسحابة تنهل بمائها، ثم تجمع مرة أخرى في سماءها، والزهرة تقطف لحسنها، ثم تنبت مرة أخرى في غصنها؛ ولكن العذراء حين تفرط في خدرها، وتضع نفسها دون قدرها، لا تبرح شقية حتى تنزل في قبرها.

وهكذا لا يزال الرجل في عُتوه وظُلْمه كالساحل، ولا تزال المرأة في ضعفها ولينها كالموجة، فلو أن ألف موجة عاتية يصد من الساحل لا ستباحهن وما سلبنه مقدار شبر من الرمل؛ وما اعترض رجل وامرأة في حُلق العفة إلا كانت هي الساقطة وحدها في الاعتبار، لأن العفة إنما عُرفت بالمرأة من أصل الحلقة، وإنما يتصاون الرجل تشبهاً وتقليدًا، فإن هو زل مرة وقارَف الإثم فقد أخطأ في التقليد ولم يفقد شيئًا من طبيعته، ولكن المرأة متى فعلت ذلك فقدت من نفسها وغيرت في تكوينها وأخطأت في الأصل الذي بُنيت عليه طبيعتها وقامت به شرائع الله وهي فيه نظام الأمم فلا جرمَ كان عقابها على الخطأ عقابًا نفسيًا يجمع من شدة الطبيعة إلى عنت الشرائع إلى قسوة الاجتماع، ولهذا كان شرعيوب المرأة ما عاب فضيلتها الخصيصة به^(١).

قال "الشيخ على" وانطلقت نفس "لويز" لمسرى خيال حبيبها، وكانت تبغضه دون البغض إذ هو مُسعدُها ومُشقيها، فصارت بعد زواجها تحبه فوق الحب، إذ لا ترى لها مسعدًا غيرَ ذكراه، ولا تعرف على ظهر الأرض من أشقاها غيرَ الكونت.

ولما ذكرته انهملت دموعها فجعلت تبكي حتى انحلت سحائب همها، ثم أشرقت كما تصحو السماء في أعقاب المطر، فلو رآها أشعرُ الناس في

(١) انظر فلسفة هذا الباب في فصل "الربيفة" من كتابنا "السحاب الأحمر" والربيفة: المرأة تقوم مقام

الزوجة (Maitresse).



ذلك الجمال المشرقِ الحزين الذى تورّد حتى النهب، لوقف عندها وقفة العابد فى المحراب يشعر بالقوة الأزلية ولا يحسن أن يصفها. وأى شاعر تحيط نفسه بهذا الشقاء الذى رفعه جمالها الساحر من بين آلام الأرض وألحقة بذلك الألم المنفصل من السماء الذى لم تشهده الأرض إلا مرة واحدة يوم جلست حواء تبكى أولَ بكائها بعد خروجها من الجنة...؟

وبالله ما أروعَ الجمالَ حين ينألم ويحزن ويحضر الجميلة همها! إن مثل من يُحاول أن يصف دموعَ هذه الجميلة وحسراتها وصقًا ناطقًا يتنفّس به القلب، كمثل من يريد أن يخلق من سحر البيان زلزلة ترجّف بها الأرض حين يبألُغ فى وصف الزلزلة، وما اللغة إلا أداة، فكيف ويحك، تستعمل هذه الأداة فى صفة قوة تعجز عندها كل وسيلة حتى الشعور الذى أبدع اللغة؟

لقد جمعت المقاييس بين أقطار الأرض، وطوّت ما بين الأرض والسماء، وداخلت ما بين أنجم السماء بعضها من بعض، ولكن أية أداة تعين لنا درجة الإحساس بين نفس عاشقةً مدنفةً تشهد آلام نفس معشوقة، وبين عيني شاعر غزل وثاب الخيال تنظران فى عيني امرأة جميلة باكية، وبين ألم جامد جاف يضطرب فى نفس الرجل، وألم سائل متدفق تضطرب فيه نفس المرأة...؟

إن هذه الأنفُس إنما تشعر بمقدار ما فيها من الإحساس لا بمقدار ما فى الحقيقة من مادة الشعور، وكأى من رجل أبله متغفّل يدور مع الآلام والأوجاع دورانَ الغبار فى العاصفة، فإذا رأيته تَوَجَّعت له وداخلتكَ الرقة عليه وتارت نفسك من أجله ثورةً السخط على هذا الاجتماع الانساني وتمرُّ بالرجل ثم تنساه؛ ولكنَّ هناك طفلة، طفلةً صغيرةً قريبة العهد

بالغيب^(١) قد ضلت بيت أبيها في المدينة المترامية فمشت ذليلةً ضائعةً يتحير الدمع في عينيها كما تتحير الألفاظ بين شفيتها، وقد ساورها الخوف، وتوثبت نفسها فزعاً لهول ما هي فيه، وجعلت عيناها تتوسلان إلى الناس بالبكاء، ولسانها يتلجلج بألفاظ مرتعدة كأنما ينتفض عليهن قلبها الصغير، وهي في ذلك لا تبرح تتمثل بأبيها فتضطرب اضطراب الفرح إذا سقط من وكره ولم ينتهض، وترى أن المصيبة قد انحصرت فيها وحدها من دون الناس، فتبكي بكاء تكاد تنشق له، ثم تعود إلى التوسل بعينيها الدامعتين وبألفاظها المتلجلجة^(٢) فانظر وأنت أبو مثلها ما عسى أن ينزل بك من الحسرة ويتغشاك من الهم إذا رنت إليك هذه الطفله من وراء دموعها تسألك أن تدلها على بيت أبيها المائل في رأسها الصغير، وهي تحاول بذلةً ومسكنةً أن تنقله إلى نفسك وتبيته فيها بألفاظ وإشارات الضعيفة لتهدى أنت إليه؟

فالمصيبة ليست مصيبةً بمادتها ولكن بما يقابل هذه المادة من نفوسنا؛ ومن ثم فهي لا تؤثر فينا بنفسها ولكن بالكيفية التي نقابلها بها. قال "الشيخ على": ثم سكنت "لويز" هنيهة لذكرى أيامها الأولى وهي تعلم أن لا رجعى لها، فقد استيقنت أن هذا الغنى ضرب بينها وبين الفقر حجاباً ولكنه رفع بينها وبين الشقاء حجاباً آخر كان ذلك الفقر وحده هو الذي يمنعه منه؛ وكان القدر لما اختط لها التعاسة رسم هذه الخطه بقلم من ذهب...

(١) كناية عن صغر سنها وحدانته عهداً بالوجود.

(٢) انظر في كتاب (السحاب الأحمر)، الفصل الذي عنوانه (الطفل)، فإن فيه بقية هذه المعانى، وقد بنى على طفلين ضالا بيتهما.



واستشرفت نفسها لخاطرٍ غريبٍ ألمَّ بها فأضحكها على ما بها من الهم؛ فقد أحضرت خيالها ذلك الحبيب الأول في شبابه الغض، وقوته الثائرة؛ وفورته العنيفة، ونشاطه المهزوز؛ وإرادته على حب امرأةٍ في أرذل العُمر. وهو عمر "الكونت" - يلوخُ وجهها في العين كما تلوخُ القفار، ويمتدُّ أنفها بين الوجنتين كأنه جحرٌ في أحجار، ويضحك تغزُّها الأدرد^(١) فلا تشك أنه في تلك الصحراء "غار"؛ وقد تابرت عليها الأوجاعُ والأمراض، حتى أصبح جسُّها بين يدي الموت كالخييط بين شقِّي المقرض...

... ثم جعلت ذلك الحبيب يتزوج منها لمالها وغناها وقد أصاب عندها ملء أطماعه ذهباً وفضة، ثم وصلت بين شُعلة فؤاده الملتهب هوى وشباباً وبين هذا الجسم الفانى الذى يشبه حُطام البييس^(٢)، ثم أرادت على أن يعتقد أنها "الشكره" التى وُضعت فى كأس حياته لتُحليها، ثم نظرت لترى ما يكون من أمره وأمرها فى الحب حين لا يكون الحب إلا مُراغمة وإكراه؛ فإذا الحلمُ قد انهال، وإذا الوهم قد استحال، وإذا الشاب لا يُحبُّ تلك المرأة ولا فى الخيال.

فجهذت أن تذكر فى تاريخ الناس من يكون قد امتحن بمثل هذه المصيبة وصبر لها كما يصبر من ذات نفسه على آفة أوعاهة أو مُثلة، فأبى عليها الواقع أن يخرج لها مثالا واحداً...

... فكذت ذهنها فى تصوُّر هذه الحال وتقليبها على وجوه مختلفة، فلم تستقم لها صورة صحيحة، وثبت عندها أن حب شاب قوٍ فى الثلاثين

(١) الذى سقطت أسنانه.

(٢) كالتين ونحو من بييس النيات.

لعجوز هالِكَة سبعين هَلَكَة^(١).. أمرٌ يكاد يكون في استحالة الجمع، كطرح
السبعين من الثلاثين في حساب العدد!

وعجبتُ أن يستأثر الرجل وحده بهذه الأنفة ويلتمس لنفسه في
هذا الباب ما ينكر على المرأة أن تستنكره، كأن هذه المرأة عجماء لا
تبالى من صاحبها إلا العلف، ولو انتهت بها إلى التلف؛ وكأن كل امرأة إنما
هى اسم، على جسم، فليس على الرجل إلا أن يختار اسماً ثم يُثبته في
وثيقة الزواج بعد أن يُساوَمَ عليه؛ أو كأن المرأة بلغت من الجفاء وضعف
التمييز بحيث لا تأبى أن تتخذ أعواد فرشها، من أعواد نعشها؛ وأن تقيم
لها قبراً في البيت، وتنظر كل صباح في وجه مَيّت؛ وإلا فكم من فتاة
كالقمر أخفاها نهار المشيب، وكم من عروس للحب رُقّت إلى غير حبيب،
وكم من وجه صبيح، يقبله ثغر قبيح؛ وكم من كقاب، سال عليها اللعاب...
وكم من حسي هو رمز الحياة قرن به الموت رَمَزَه. وكم من قد أهيّف
كالأليف لا يرى إلا شيئاً أعجف كالهزمة... وهنا انتبعت "لويز" إلى زوجها
المتهدم الذى هو همزة القطع، وإلى تصايبه المضحك وحماقته العمياء
وحبه الأخرق؛ فانتفضت من الغيظ وكاد بعضها يخطم بعضها، وجعلت
خواطرها تنبض في رأسها كلمح البرق وأخذت تلتمس الوسيلة لردّ هذا
البلاء عنها أو مدافعتيه، بيد أنها كلما ابتدأت فكراً انتهى بها إلى قولها: ما
عسى أن أصنع؟!

هى لا تفكر إلا فيما ينبغى أن تصنعه، ولكن الفكر يُفصى بها إلى هذا
السؤال بعينه، فكأنها من الهم والحيرة منعزلة عن نفسها، وقد نقر منها

(١) كناية عن بلوغها السبعين.



فكرها وقلبها وحظها جميعًا ولم يبق معها إلا روحها المعذبة، وهى كذلك بينها وبين زوجها وبين القَدْر!

ولبثت زمنا لا تجد من رأبها إلا قطعًا وأشلاءً، حتى لمحت من نافذة القصر مركبة تَدْرُجُ فى الطريق، ورأت الحوزئ، يتلقى الأمر منه إلى الجوادين فلا ينزل عليهما إلا انطلقا ملء العنان، كأنما يحاولان الهرب منه ولا يعلمان أنهما يهربان به؛ فرثت المسكينة للبهيمتين، ثم كأنما حشرت لها كلُّ مركبة على الأرض فى صعيد واحد، فلم تذكر أنها رأت قط سائقا ليس فى يده سوط ما دام بين يديه حيوان...!

وظلت واجمة عند هذا الخاطر هتَّيةً، لأنها ما برحت تتلقى من ضربات القدر وهى تعدو فى الحياة عدوًّا فيه من السرعة بمقدار ما فى هذه اللذعات من الألم...! ثم قالت: ترى أئُّ حيوان فى مسلاخ^(١) هذا الهرم؟ وما كذبت أن قلبت الخاطر على وجهه الآخر، فتناولت السوط واستولت على مركبة الأقدار ولم يبق أمام عينيها إلا سبيل الحياة وظهر الكونت...!

وكذلك فاءت من غضبها إلى رضا أقبخ من الغضب، ورأت أن هذا الشيخ المأفون الذى يتطاوع^(٢) للصبى وقد جاوز السبعين وهلك فى الدهر، ثم لا يستحى أن يجعلها مُثَلَّةً على أعين الناس، وأن يكون لها مَخْرِيَّةٌ ولا كالمخزيات جدير به أن يجدَّ منها كِفَاءً ما وجدت منه، وجدير بها أن تُبدله من شهر العسل شهرا هو أحقُّ به وأهله، وهو على ذلك أقرب الأشياء من العسل لأنه... "شهر النحل"...!

١١، أى جلد

١٢، يتكلف حتى يستطيع

قال "الشيخ على": هكذا يُفسد الرجل المرأة وهو يدري أو لا يدري، فهو بينغيها متاعا ويريدها مَلهأةً، ثم لا يقدرُ فيها غيرَ الطاعة لما ابتغى وأراد؛ كأن الطينةَ الإلهيةَ التي جُبلَ منها الرجلُ شديداً متماسكاً، بقيت منها بعده هنة ضعيفة فتكرت حتى رگت وانسحقت ثم حُلقت منها المرأةُ ذليلة طائعة... وإن أقدَرَ خلقَ اللهَ ليكونَ معه الدرهمُ فاضلا عن حاجته فلا يجد ما يمنعه أن يتتاعَ به الزهرةَ الناضرة، ولكن العجيبُ من أمره أنه إذا احتازها لا يلويها بين أصابعه ولا يُدنيهَا من أنفه إلا بعيداً بعيداً وقليلاً قليلاً، بل إنه ليستحي لقره من طُهرها، ولنتيهِ من عطرها؛ فلا يحملها حتى يتجملَ لها، ولا يظهُرُ بها حتى يكون في الجمال أهلها؛ وما أدري كيف أدبته الطبيعةُ هذا الأدبَ مع شبيهِ الجمال، ولا تؤدبُ مثلَ ذلك الهرم الأحمق مع الجمال نفسه؟

ويعمدُ الرجلُ متى أصاب مالا إلى الطبييات من صنوف الطعام وولذات الشراب فيتضلعُ ويتملأ، وليس في ذلك من حرج، إذ هو ماله ينمو في باطنه؛ فإن ربح أو خسر فإنما "المضاربة" في معدته... ثم يعمدُ أقبحُ خلق الله وجهها وأظلم سنة وأشأمهم طلعة، بذلك المال نفسه إلى أجمل النساء فيرخى عليها أستارَ بيته^(١)؛ ويُساهمها قبحه وجمالها، وإنما هي في رأيه بعضُ الطبيياتِ وصنف شهى من طعام القلب؛ فُتري في أي جهة ينمو هذا المال الذي بذله وتندى به، فإني لا أرى له نموًا في قلبه ولا في قلب تلك الحسنة؟

أما هو فما إن يزالُ يعرفُ منها البغض، وأما هي فما إن تزال تری فيه القبح؛ وأحسبُ لو أنفقت ما في خزائن الأرض كلها على التأليف

(١) كناية عن البناء بها أو احتضانها.



بين الحسن البعض وبين القبح المحبُّ ما ألفت ذات بينهما ولا زدت كلَّ واحد إلا من طبعه^(١).

وكيف يرى هذا الدميمُ أن مرآة بيته التي اشتراها وبذلَّ فيها واختارها على عينه لا تُظهره أبداً إلا دميماً، وهو كلما بالغَ في رونقها وصلفها بالغت هي في إظهار قبحه ودَمَامَتِهِ، ثم يريد أن لا تراه امرأته الحسناء الفاتنة إلا جميلاً فاتناً. ولا تكلمه إلا في الحب، ولا تُقبِّله إلا قبلة الهوى؛ كأنه هو الذي خَلَقَ لها عينيْن ولساناً وشفَتين..؟

ولعمُرُ الله لو أن في أضلاع هذه المرأة قلبَ رجل من صيارفة اليهود قد جَمَّ على مَنكَبِ الطريقِ وسرَّحَ الذمة والدين والظنَّ واليقين. وجنود إبليس أجمعين؛ في طلب الدرهم يأكله سحتاً، ويَنحُثُه من أيدي الفقراء نحتاً، لما رأته على ذلك المالِ وذلك القبحِ إلا كالخرقة فيها دينار؛ فهي هي لم تُخرجها قيمة الذهب الغالية، عن كونها في اليد والعين خرقة بالية، يريد الرجل لسعادته امرأة لا نفس لها ولا قلب؟ لعله يحاول ذلك، ولكن كيف تسعده إذن؟ إنى رأيت في معاشرة الحزين شيئاً من الفرح يبتنفس به الحزن على الحزن، فليت شعري أى مهناً^(٢) أكثر لذة وأحسن إمتاعاً من معاشرة اثنين كلاهما يَهْنَأُ الآخر؟

أيها الهرمُ الأحمق الذي يستبدُّ بالجميلة الفاتنة؛ إنك تعبت بذنب السفينة فإذا انحرفت هنا وهنا زعمت أنها تضلُّ الطريق لسوء تركيبها؛ ألا فاعلم (ويحك)، أنك لا تصلح أن تكون رُبَّان هذه السفينة؛ وإذا كنت

(١) تشذ الطبيعة في هذا المعنى أحياناً فيكون من بين النساء من لا تعشق إلا القبيح الخلق، ثم لا تهوِّد إلا لقبه؛ وذلك واقع ولكنه نادر؟ وله تعليل لا محل له في هذا الموضوع.

(٢) هو ما يعبر عنه الناس بلفظ الهناء، ولم يرد الهناء في منقول اللغة بهذا المعنى الذي يستعمل فيه ولكن المولدين أجروه في أدبهم وفشت الكلمة في النظم والنثر.

تستطيع أن ترفع شراعاً أو تحرك مجدافاً فما أنت وهذه الباحرة؟ ماذا تصنع (ويك)، فى آلات هذا القلب الذى صنعته يدُ الله ليخوضُ لُجج الحب فى بحر الشباب إلى ساحل السعادة، وليس بينه وبين الهلاك إلا أن يرتطمَ فى ذلك البحر بصخرة الموت التى لا تكون أكثر ما تكون إلا من رأس رجل هريم!

عسيت تقول إنك غنى ملء الأمل الواسع، وإن هذه الحسناء ستفضى من طريق مالك إلى طريق حبك، لأن المال - زعمت - أوسع طرق الحياة وأطولها، وفيه مَنفذ إلى كل طريق شئت أو شاء الهوى فلعمري إن هذا المال كما تزعم، ولكن لا يذهب عنك أنك لا تعرف إلا فاتحة الطريق إلى هذه الحسناء، وأنَّ حُطَّط الآمال ليست من "شوارع التنظيم" أو الطرق السلطانية التى يُفضى كلُّ منها إلى جهة بعينها أو جهات لا يخطئها من انطلق بسبيلها، فقد تبدأ تلك الحسناء من طريق هذا الغنى الذى تفتحه لها؛ ثم لا تلبث أن تنعطف إلى مذهب من مذاهب قلبها، ثم تأخذ من هناك فى ناحية من نواحي مصائبك، لأن سبيل حبها وسعادتها من تلك الناحية؛ ثم تُفضى من كل ذلك إلى طريق من الحياة إذا هى أبصرتك فيها رأتك وليس من ورائك للبغض مذهب. ورات وجهك ثمة كأنه صفيحة مما تُكتبُ عليه أسماء الطرق، وقد كتب عليها "شارع المقبرة"...

أنت أيها الأحمق استنقذت هذه الحسناء من الفقر، ثم جعلت تباعد ما بينك وبينها؛ فأخذتها خادمة وجعلتها سيده، وبصرتها بما كانت تجهل من فنون الجمال وأساليب الهوى، ثم جعلت غاية كل ذلك إمتاع جسمك الفانى ولذة قلبك الخرب، فنسيت نفسك بادية الرأى ولم تذكر إلا الفتاة فاتخذتكَ صديقاً، ثم نسيت الفتاة آخرًا ولم تذكر إلا نفسك فاتخذتكَ عدوًّا.. فلولا تركتها على جهلها وغرارتها ما دام العلم بالحب لا يكشف منك للحب إلا عن خرافة...؟



ويا عجبًا من غرام الشيوخ بالفتيات! فإن أكثر من أنت واجد من المحبين وأهل العشق متى أصابه الكبر وذكر حوادث حبه، رأى فيها ما يسميه جهلا وما يسميه حماقة وما يسميه غفلةً وما يسميه خطيئة؛ كأن الهرم يجعل الأشياء نفسها هرمة، إذ ينزغُ منها أوهامَ الشباب وغروره فلا تظهر من ثمَّ إلا حقائق مخلصَّة؛ فما عسى أن يرى الشيوخ فيما يسمونه غراما؟ بل ما عسى أن يرى الحبَّ في هؤلاء الشيوخ "المتطفلين"^(١) إلا ما يسمى حماقة وجهلا وغفلة وخطيئة؟

يحب الفتى الناشء حبًا طاهرا يستوجِبُ قلبه^(٢) فيقول أكثر الناس:
أحبَّ قبل زمن الحب!

ويعشق الرجل الهرم عشقا فاسدا يستوقِذُ ضلوعه فلا يرضى أن يقول مرة واحدة ولا أن يقولَ عنه أحد إنه أحب بعد زمن الحب؛ مع أن الفتى رجلٌ يُبَيِّئُ، والهرم رجلٌ يُهدم؟

ولو لم يضربِ الله على بصره لعلم مما تشرعُ الطبيعةُ أن أحق الناس بالخبية رجلان: رجلٌ وجد قبل زمنه فلا يحسنُ أن ينفع أو ينتفع؛ ورجلٌ أتى بعد زمنه فلا يُحسن ان ينتفع أو ينفع!

متى كان الرجلُ حقوقا فقط وكانت المرأة واجبات لاغير، فقد خلا الرجلُ من العقل وخلت المرأة من القلب وخلا الاثنان من هذا المعنى الروحى الذى يسمى الحب؛ فإن لم يستطع ذلك العاشق الهرم أن يستردَّ لنفسه الصبى الذاهب حتى تحبه تلك الحسناء طائعة، فليسترجع لتاريخ الأرض وحشيتها الأولى حتى تلوذ به تلك المرأة كارهة!

(١) من التطفل أو تكلف الطفولة

(٢) يذهب به

ويللّ للإنسان من هوى نفسه فلولا هذا الحماسة فيه لما وجد على الأرض خطأ، لأن كل إنسان حين يخطيء فإنما يريد حقيقة من الحقائق غير أنه يجعل مركزها في رأسه ولا يعتبرها إلا من هناك، مع أن مركزها في العالم.

شهر النحل

قال "الشيخ على": كل حَظَب عَظَم مَدَة هان بَعْدَهَا، إِلا حَظَبَ المَرَأَة فَإِنَّهُ مَتَى عَظَم لا يَزَال يَعْظَم، وما رأيتُ في أَصناف البلاء كالمَرَأَة السِلْطَة إِذا هِيَ اسْتَكَلَبَتْ^(١) فَكأنما جَعَلَ الدَهْرُ الجائزُ أَيامها خطأ من خَطوط مداره، واتخذ من دار زوجها مَتَحفاً ثم أودعه تلك المجموعة من آثاره... ويا رحمة لهذا الزوج! فهو كلما خرج من بينته خرج خزياناً يَتَنقَب، وكلما انقلب إليه انقلب خائفاً يترقب؛ ولا تزال تعرف في عينه نظرة مغلوبة وأخرى مسلوبة، وفي قلبه مصيبة مستقرة وثانية مجلوبة، وترى على وجهه بئمة استخذاء^(٢) كأنها مسخة استهزاء، ولروحه ظلاً على فمه كأنه ظلُّ النخوة الهاربة من دمه ولا يزال مع امرأته المكابرة كأنها ذنبٌ وكأنه ندامة، وقد جمعت عليه الدنيا والآخرة فكانه من خوفها في موت ومن لسانها في "قيامه"...

وما في الله خلق أعظم من المرأة، فهي طبيعةٌ وحدها، وغير أنها الطبيعة الدقيقة الحسّ؛ وليس يُدرك الرجل حقيقة نفسه قبل

(١) يقال استكلبت المرأة واستسلعت، إذا أشبهت الكلاب والسعالى؛ والمراد البذاءة والشر كسلطة اللسان.

(٢) هو الذل والخضوع.



أن يخلطها بنفسه؛ فإذا رأيتها حاملة مغمورة، أو ساقطة مزجورة، أو ميته في الأحياء مقبورة فلا تزيين أنها مغلوبة للرجل ولكنها مغلوبة لإحساسها، وقد وفر الله عليها من القوة ما شاء ولكنه غمز منها موضعاً دقيقاً فخرجت بحيث تراها أقوى الأشياء وترى هي نفسها كأن لا قوة فيها، وهذا سر من نظام الطبيعة، فإن أشجع الناس الذي لا يخاف شيئاً يخاف أشياء كثيرة من نفسه، فلولا أثر بيد الله في إضعافها ما قامت للرجل معها قائمة.

وهذا الموضع الذي أسلمها ضعيفة مستخذية إنما هو جهلها بتصريف إحساسها، فليست القوة إلا شيئاً طبيعياً في هذا الوجود كائنة ما كانت، وإنما الشأن كله في العلم بطريقة استعمالها، وما من رجل يدارى المرأة نوعاً من المداراه فترضى عنه وجهها من الرضا، إلا رآها في يده أضعف ما خلق الله، هينة لينة سَمحة مطمئنة، إن كانت دون الملائكة فهي فوق الناس، إذ هو إنما يستولى على إحساسها فيأمن أن تُصرِّفه في غير مرضاته ومحبتة؛ ومن ثم تصبح كأنها صورة من إرادته وكأن في نفسها نفسه.

فإن جهل الرجل كيف يُداريها؛ وانقطعت الأسباب المختلفة بينه وبين رضاها، ولم يكن أهلاً منها لما هي أهله منه استنوقد إحساسها وبصرها كيف تناله ومن أين تأتيه. فابتلى منها بفتنة ما تهدأ وقُدَّتْها، فما السابح في البحر إذا أراد أن يقيّد الموجة العاتية بالحبال، ولا المصروع إذا حاول أن يدفع بيده ما أفزعه من جنِّ الخيال، ولا الطفل يبتغى أن يُمسك القمر في الماء، ولا المجنون يتناول فيقتلع النجم من السماء- بأقدر ممن تبغضه المرأة إذا زعم القدرة على إرغامها، وتصريف زمامها، ومن تمضعه المرأة إذا زعم القدرة على إسكانها؛ والسلامة من بركانها...؛ ومن تحقره

المرأة إذا زعم القدرة على ردها، وإرجاعها دون حدها؛ ومن تصول عليه المرأة إذا ادعى القدرة على إسقاطها، والقوة على التقاطها؛

فليس يُعجز الرجل في سلاطة المرأة إذا هي سُلطت عليه ما يكون من حدة جنانها، وشدة عنانها، وشرة لسانها، فكل هذه وأمثال هذه إنما هي ضروب مما تحاول من إظهار عظمتها الطبيعية المغلوبة؛ ومن أجل ذلك قلما كانت المرأة السليطة إلا غالبية، إذ هي نفس منفجرة.

ولقد يعجز الإنسان أحياناً كثيرة أن يكون نفسه؛ إذ لا تنقاد له الطريقة التي يغلب بها على الحوادث أو يجارها أو ينبه لها الحذر؛ ومن ثم يُنكر نفسه كأنها غير التي يعرف من قبل، ولكن المرأة متى تارت لا تعجز أبداً أن تكون نفسها، وما نفسها إلا أعظم ما في الخليقة من الخير والشر؛

قال "الشيخ على": كذلك صارت "لوز" مع زوجها وانحازت إليها طبيعته الغالبة فكانت قويةً به وبنفسها وكان ضعيفاً بها وبنفسه.

ألا وإن أخلاق المرء إنما هي أعصاب أعماله، فانظر (ويحك) ما عسى أن يكون في البعض أشد من أعمال امرأة أبغضت بعقلها وبقلبها، ولحاضرها ومستقبلها؛ وصارت حياتها كلها من الشر والسوء كأنها لعنة يصيها الله على رأس هذا الهرم؟

وكذلك اندمج في إرادتها كما يندمج الثعلب في فروته الجميلة الناعمة: ترميه بالنظرة حين يتكلم فتقف الكلمة بين خلقه والوريد، ويجيئها وقد أجمع النية أن يأمرها فلا تأخذه عينها حتى يسألها ما تأمره، ويجهد أن تعلم أنه زوجها ثم ينقلب وهو يتمنى لو تعلم أنها زوجته... وبوسع قلبه عزماً أن يفعل ويفعل، ثم يراها فيخشى أن تكون اطلعت على أن في قلبه شيئاً من العزم!



وهو لا يعلم بزعمه كيف أنكرته وكيف تغيرت عليه وكيف تنكرت له، ولكنه يريد أن يسأل كل شيء عن ذلك إلا وجهه... ذلك الوجه الذي جعله الحب أقبح ما عرف من دائه، وأشد ما خاف من أعدائه، وما أفضى إليها مرة وهو يحمله... إلا عرف أنه من ذنبه في حبه، وأنه من عذرها في بعضه، فيطرقُ إطراقاً يتكلفها ويحسبها تشفع له عندها، لأن فيها ذلّ الشبية، وألم الخيبة، وشدة الهيبة، ولكن وجهه يظهره وقتئذٍ مظهرًا ليس في معنى السماجة أسمح منه، إذ يكون كاللص الذي لا ينكر على ما لا من الناس أنه سارق، وهو مع ذلك يحرض على أن لا يؤخذ منه ما تجشم في سرقته، وقد عرفت المرأة أنها لا تغمز منه إلا مكابرة عظيمه الواهن، ولا تطأ منه إلا كل مفصلٍ مرضوض، ولكنها عرفت كذلك أنه ظالم لنفسه، إذ حقلها ما ليس في طاقته؛ وظالم لها! إذ أرادها على ما ليس في طاقتها، فهو ظالم أشبه بمظلوم، وما مثله في حبه إلا كمثل الفراشة؛ لا ترجع دون المصباح إلا أن تخالط نازه، فما تحتال من حيلة إلا أحست منها حتفتها وتلفتها، غير أنها لا تزال تنزع من ذلك ما ينبغي أن تنزع عنه، وكلما تهافتت انحص جناحها من ناحية، ومع هذا كلّه لا تسكّر ما دامت فيها حركةٌ تنبعث.

وما من شيء إلا وقد جعل الله فيه النفع والضرر، فمن التمسه على حالة منهما لم تؤده إلى الأخرى، وما تغنى الإنسان معرفة الأشياء على حقائقها إلا إذا عرف مع ذلك فروق ما بينها، وتبين الحدود الفاصلة بين الشيء والشيء الآخر، وبين الحالة والحالة في الشيء الواحد، فقد يكون الإفراط من الدواء داء مع الداء، وقد يجتمع من طعامين بلاء لا يكون من جوع يومين!

كتاب المساكين

والمرأة هي هي في حاجة الرجل إليها، ولكن كل امرأة تكاد تكون جنسا بعينه في حاجتها إلى الرجل، فمن ههنا أحبت وأبغضت.

لو أن هذه المرأة مما تُنبت الأرض وتسقى السماء لقد كانت تصلح مع كل رجل كما تصلح لكل رجل ولكن لها قلبًا، وحسًا مع هذا القلب؛ ونفسًا مع هذا الحس ورقة مع هذه النفس، فهي إن لم تحب الرجل من هذه الجهات الأربع لا تكون قد أحبتة ذلك الحب الروحي العجيب الذي يوصف بأنه حب المرأة^(١).

قال "الشيخ على": "وقد رأت "لويز" أن زوجها تحرب من كل جهاته، وأكبر ما فيه أنه كالأرض الفضاء: إذا ضرب عليها سورٌ وجعل في هذا السور باب، ووضع على هذا الباب قفلًا... فما غناه العريض، وما ماله الكثير، ولا اسمه في أهل الغنى- إلا كتلك الحدود المضروبة على ما وراءها من الفراغ والفضاء!

وكانت ترتاع لذلك وتزق لخضوعه، وتودُّ لو استطاعت أن تراه غير من هو فتعرفه غير ما عرفته وتجزيه غير ما جزته، ولكنه لم يكن يجيئها أبدًا إلا بائٍ المقتل، ولا يريد مع ضعفه أن يعدل عن محزها، وما أماتت من نفسه نزعها إلا انبعثت فيها نزعة أخرى، كأنه رأى في غضبها جمالًا لم يره في رضاها، وأحس من سورة شبابها وفورة غيظها ما يعالج منه خمود الهرم وبزء الموت في عظامه، فاعتاد منها ما تجزيه؛ واعتادت منه ما يخزيه، ومرًا على ذلك دهرًا مات فيه الوفاء، ومريض الحياء، فإذا تاربخ هذه المرأة كلُّه لعنات، وإذا عرض ذلك الرجل كله طعنات؛ وأصبحت

(١) بحسب أننا استوفينا كثيرًا من معاني الحب وأوصافه الجميلة في كتاب "رسائل الأحران في فلسفة الجمال والحب" وصنوه (السحاب الأحمر).



ملكة عليه وأصبح معها كما قال ذلك الحكيم: "من أراد مصاحبة الملوك فليدخل كالأعمى وليخرج كالأخرس..."

وبعد...

... فإن آلام النَّزع وإن لم تكن هي الموت ولكنها أشد منه، حتى إن الموت ليكون راحة منها؛ وقد مدَّ الله في نزع "الكونت" مدًّا طويلاً فكان يقظان العين نائم الروح وكأنه مقبور في جلده، وكانت زوجته لا تأوّه موتًا. فليس يراه أحد إلا ظنَّ أنه لما به^(١)، ولكنه لا يموت، لأن أيامه كانت بعض ما كُتب في الأزل من تاريخ هذه البائسة؛ وقد حمله الله على الأمل، والأمل مطيئة دائبة لا تكلُّ ولا تنقطع ولو ذهبَتْ تقَع مسافة ما بين الضدين لتجمع أحدهما بالآخر، فما يزال يحسب أن لزوجته فيئة بعد شِرة الصَّبى، وأن تُقادِّمه في الهرم وتقدِّمها إليه سيصلحان ما أفسد الدهر منهما جميعًا، وليس في الناس أحق ممن يدفع نفسه إلى ما يظن في حين تدفعه نفسه إلى ما يستيقن!

أما هي فرأت أن لا سبيل إلى انهزامها أو تراجعها بعد ما أنزلت أخلاقها إلى المعركة... كأنها ماتت قبل أن تموت فليس يضرها أن تقَع في هذه المعركة هالكة. وليس ينفَعها أن تخرج منها حية، وكل شيء تستدرك منه الحيلة، إلا ما أفادت المرأة من شرفها النسائي، فانه إن فرط منه فارط لم يُستدرك... فبسطت عنائها في يد الأقدار وانطلقت على أثرها صاغرة! وقطع الفلك في دورته عشر سنوات حتى تفرى الليل عن صبح لم يشهد "الكونت"^(٢)، فترك لامراته ما جمع، وترك فيها ذلك الموت الحى...

(١) أى في الموت، كان ما به لا يد أخذه.

(٢) كناية عن موته.

وتركها في تلك الحياة شجرة مرداء^(١) غير أن اللذات لم تُبق عليها بعده، فقد لا تقتل الآلام إذا أسرفت على النفس ولكن اللذات لا بد قاتلة، وكأن الطبيعة فرضت على الإنسان أن لا يلدَّ بالعيش إلا حيث تكون لذته اختلاسا، وإنما رُكِّب على أن يشدَّه ما يؤلمه، ويبين منه ما يحسب أن يهدمه، فإن هو حمل نفسه على لذتها، وأطلق لها ما بين هواه ورأيه، فقد أراد لينيته الضعيفة وضعًا ليس في هندسة الحياة، فلا تترك فيه اللذات إلا أمرًا، وتحمل منه الأرض إلا أنقضاء... ولو لم تكن هذه اللذة المسرفة سببًا إلى الموت. لما رُكِّب في غريزة الإنسان كره الموت من حب الاستمتاع بها، والحياة في "عمليتها الجراحية" المؤلمة لا تحزُّ إلا بأسلحة الآلام الحادة واللذات الحادة!

وبيع ذلك القصر وما ضمه، وكان يحويه بعض رفوف من الكتب يباهى الأغنياء بتنسيقها ليظهر من ألوان جلودها رسم ليس في الحائط... فاشتراها أديب تأدى إليه خبر الكونت وامراته، فإنه ليقرأ منها ذات يوم في كتاب يصف البأساء والضراء من هموم الحياة، إذ ندرت ورقة كانت بين صفحة فالتقطها فإذا فيها تعتلجان^(٢) بين هذين السطرين:

الفقر خلو من المال؛ ولكن أقبَح الفقر الخلو من العافية!

"صَلِّتور"

والغنى أن تملك من الدنيا، ولكن أحسن الغنى أن تهناً في الدنيا،

"لوزير"

(١) لا ورق فيها

(٢) تصطرعان وتقتتلان.



الحظ

قال "الشيخ على": وإن في نفسى أشياء من كلمة بين الكلام قد ضلَّ بها الناس ضلالا بعيدًا، لا أعرف كيف استحدثت ولا من أين انصبت على الدنيا، وقد خرج الناس من أن يهتدوا فيها إلى حقيقة مخلصه، إذ لم توضع فى لغاتهم موضعَ شرح وإبانة، ولكن موضع غموض وإبهام...

ويا عجباً للإنسان! كيف اهتدى إلى التعبير عن المعانى الإلهية التى يكونُ المعنى الواحد منها تاريخًا طويلًا لقدر من الأقدار المستكثِّة فى غيب الله من لدن يُقضى إلى يوم يقع، وكيف تُلقى فى نفس هذا الانسان معانى الغيب فيردُّها ألفاظًا يحمل منها السماء بأفلاكها على بضعة أحرف!^{١١}

على أن أعجب ما فيه يعجز عما تناله قوته بألفاظ صريحة خالصة لا لبس فيها ولا اختلاط، فإذا انتهى إلى ما يضعفُ عنه وأو يعجزُ دونه أشار إليه بحروف مبهمه لا يكون لها فى نفسه من الدلالة الغامضة أكثر مما يدل المجهول على أنه مجهول... فالإنسان متى أحس القوة رأيتَه كأنما يحاول أن يُسمعَ السماء بطنين ألفاظه المكشوفة عن معانيها أنه موجود على الأرض، ويحاول أن يظهر للأرض بصراحة هذه الألفاظ أن له إرادة تعمل مع الأقدار فى تسخير الطبيعة، ولكنه عند العجز والضعف، وعندما يتخيل صفات من القوة الأزلية ولا يُحسُّها، تراه يرسل الكلمة الخفية التى تشير إلى كبريائه بشيء من الصراحة اللغوية المحدودة.

١١ كلمة حظ، مثلاً، فهى ثلاثة أحرف وتحمل الغيب.

وإلى ضعفه وعجزه بإبهامها المطلق فما إن تزال في هذا الوجود اللغويّ خالية من المعنى على وجه التعيين والنص، حتى يقع بها قدر من الأقدار فيكون هو معناها^(١).

وضعف الإنسان لاحقاً له فلا حدّ لما يستعمل من الكلام المبهم الذي يحتمل ما شئت أن يحتمل، ولولا ذلك لما صح أن تكون الفصاحة نفسها وسيلةً من وسائل التعمية في محاوراة الخصوم.

قال "الشيخ على": أما الكلمة التي أشرتُ إليها، فهي لشمول معناها الطبيعي وإبهامه كأنها لغة للنفس الإنسانية أين وُجدت، ولكن ليس للإنسان أن يفسرها، بل هو يتعلل بها ويتعلق عليها يعلم أنها كذا خُلقت؛ لأنه إن قَدَّر معناها قَدَّرَه على قياس لا يبرح يَطْوِي هو من طرفه ليعرّف ماذا يبلغ وما هي مسافئته، ويُعَدُّ القَدْرَ من طرفه الآخر ليفسد عليه ما عرف.

فهي كلمة يستوى عندها خطأ الإنسان وصوابه، ولهذا يراها واقعةً في موضعها وفي غير موضعها، ولا معنى لها عند هذا الإنسان إلا أنها اتجاهٌ حركة القدر، وهي "الحظ".

الحظ يا بني كلمة غامضة غموض النفس الإنسانية، يتعزى بها أهل الأرض جميعاً ويظهرون فيها إيمانهم الفطريّ الذي لا بد منه للقلب؛ فمادام هذا الكونت على تركيبه العجيب، وما دام هذا التركيب على غموضه المفجز بحيث لا يمكن أن يُعرَفَ بجملته، وما دام هذا الإعجاز وُضع حيرة للعقل، فلا بدّ في اللغات من ألفاظ تصوّر كل ذلك وتصفه على

(١) حين ينجح الإنسان يقول فعلت وفعلت، ولكنه حين يخيب يقول: "القدر" ويسكت.



تلك الوجوه العجيبة، بحيث تكون اللفظة إقراراً من الإنسان وإن جحد؛
وصوره لإيمانه وإن كفر.

وهذه الكلمات من أوضاع الإلهام فلا تخلو منها لغة من اللغات، وهى
بعُدُ فى تفاوتها وظهورها كدرجات الإيمان من أدناها إلى أعلاها، فمن
لم يؤمن بالله وجد فى لغته لفظاً للقدّر وهو الإيمان بعمل الله فإن كفر
بالقدر اعترضته نفسه بكلمة " الأمل " وهو الإيمان برحمه الله؛ فإن جحد
هذه اعترضته طبيعته الإنسانية بكلمة " الحظ " وهو الإيمان بقدر الله، ولا
أحسب أن فى الأرض رجلاً يكفر بهذه الأربعة جميعاً؛

ومن ههنا كان الكفر نفسه لا يخلو من إيمان، وكان الكافر كأنه إنما
يؤمن من أضعف موضع فى الكون^(١)؛ وما أشبه الإيمان بجبل راسخ يحمل
الناس كافة؛ غير أن المؤمن يصعد مرتقيًا من جهة والكافر ينزل منحدرًا
من الجهة الأخرى؛

والعجيب أن كلمة " الحظ " نفسها يضعف معناها ويقوى بعكس
ما يكون فى الإنسان من قوة الإيمان وضعفه " فالرجل المؤمن القويُّ
فى إيمانه بالله فلما يفهم من هذه الكلمة إلا أضعف ما تريد النفس منها،
فهى تبعته على تذكر قضاء الله والاستكانة لقدّره والتعزى عما فات بما
لا يزال فى الغيب، ولكنك واجد ضعفاء الإيمان لا يفهمون منها إلا القوة
المسخرة لحوادث الدنيا، ولا يريدون بها تسخير هذه القوة فى منافعهم؛
ومن ثم تهيج الكلمة فى أنفسهم من معانى السخط والارتماض أكثر مما
تبعث فى نفوس المؤمنين من معانى التسليم والإستكانة؛ وهذا عجيب
من طباع الناس لولا السبب الذى كشفته لك؛

(١) أو هو اليقين، على طريقة كما مر فى الفصل الأول.

كتاب المساكين

وما أراك تحسن معرفة هذا السبب ما لم تعرف حقيقة ما أريد بكلمة (الإيمان)، فلست أريد بها ذلك المعنى الذى يتعاون على تمثيله البناء والنجار والحديد وغيرهم من أهل الصناعات، حين يشيدون المساجد والبيع والصوامع ونحوها من أمكنة العبادة؛ فإن هى إلا بعض مظاهر الدين الاجتماعية لا غير؛ ولا يمكن أن يحصر الضمير الإنسانى بين حائطين.

وإنما الإيمان هو ذلك المعنى الذى يُلقى على روحك السكينة لأنها متصلة بالله، وفى ضميرك المحبة لأنه متصلة بالناس، وهو ذلك المعنى الذى يُعلمك ما أنت ممن حولك، وما حياتك مما وراءها؛ وهو ذلك الاعتقاد الكبير الذى تصغر عنده الحياة بما فيها من الخير والشر؛ وتهون بما فيها من النفع والضر لأنه قائم على الفكر الذى هو بقية ما نفخ الله من روحه فى الانسان الأول^{١١} فلا يضعف أبدا ما دام فى الكون قوة، ولا يفتقر أبداً ما دامت الطبيعة غنية بجمالها، ولا يسقط أبداً ما دامت السماء قائمة؛ ولا يموت أبداً ما دامت الحياة باقية، ومتى خضعت له استحال عليك أن تذلل لصغائر الحياة، لأنه هو لا يذل ومن مظاهره تلك العظمة التى تكون فى الأبطال فيستهيئون بالحياة إذ هم أهل الموت، وفى العظماء فيتنزّهون عن الدنيا إذ هم أهل الأخلاق وفى الحكماء فيزهدون فى حطام الدنيا إذ هم أهل النفوس.

ومن ثم كان الإيمان الصحيح حرية صحيحة، لأنه يعصم من ضروب الذل كلها؛ وكان منفعة خالصة، لأنه الحد القائم بين النفس وشهواتها،

(١١) يشير إلى قوله تعالى فى خلق آدم عليه السلام: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ، سَاجِدِينَ﴾.



وكان عزاء نافعا، لأنه العقل السماوي الذي يُلهم الإنسانَ حكمة كل مصيبة، أو يلهمه الثقة بالحكمة التي يجهلها؛ لو أن الفضيلة عبادة لكان لها من أخلاق كل رجل صحيح الإيمان مسجداً تعبد الله فيه؛

ولا يصح إيمان المرء حتى يتبين لنفسه طريقاً إلى ربه، فيرى كأن قطعة من السماء في باطنه تضيء له الحياة؛ ومتى عرف هذه الطريق وامتد بها ضميعةً إلى حيث يتصل بجلال الله، فمن هذه الطريق نفسها يرد مصائبه إلى الغيب كما جاءت من الغيب، لأن للقدرة طريقين واحدة يندفع منها، وهذه لا تُعرف إلا بعد أن تقع الواقعة فتدل عليها بنفسها، والأخرى هي التي يتصرف إليها القدر في حركة الدهر، وهذه لا يوفق إلى معرفتها غير السعداء ومن كتب الله لهم أن يكونوا مظهر حكمته أو مظهر حمده.

فقوم يجدونها في إيمانهم الوثيق، وآخرون يصيبونها في حكمتهم البالغة والمؤمن إنما هو صورة قلبية من الرجل الحكيم، والحكيم إنما هو صورة عقلية من الرجل المؤمن؛ فإذا نزلت بأحدهما المصيبة وبلغت منه مالا يبلغ الصبر، فتح لها طريق السماء في باطنه فيبصرها كأنها مدبرة، والمصيبة متى وجدت كالحياة متى ولدت: لا محل للعقل أبداً في أولها، فإن هي ذهبت مدبرة اعترضها المرء على عينه فتنكشف له عن معناها، فيتبين حكمة الله منها ويرى حينئذ كيف تنقح يد الله في تاريخه.

وما أرى المصائب في نظام الكون إلا حركات ظاهرة تسيّر بها نعم مجهولة لا تزال ومن وراء الغيب، وكثيراً ما يكون من هذه المصائب ما ينبه الله به الناس من غفلاتهم حتى لا يقعوا في أشد منها إذا تركوا لما هم فيه؛ فليست النازلة هي المصيبة ولكن المصيبة من جهلنا وضعفنا؛ ألم

تر إلى كل نعمة مع الجهل والضعف كيف تحقق^(١) وتضعف حتى لا تكون مع صاحبها إلا قريبًا مما تكون المصيبة مع صاحبها؟

قال "الشيخ على": والحقيقة يا بني أن من لم يكن كفؤًا لما يناله هلك بما يناله، فالحظ توفيق، والتوفيق أن لا يكون لك إلا ما تصلح له فأنت بذلك مطمئن؛ ومن ثمرة الأطمئنان الرضا، ومن غاية الرضا أن تستمتع بما أنت فيه؛ فأيا رجل أصاب فاطمأن فرضى فاستمتع؛ فهذا هو ذو الحظ وإن كان عند غيره لم يُصب إلا قليلا ولن يطمئن إلا من صَعَفَ ولم يرض إلا من عجز ولم يستمتع إلا بأهون المتاع

إن كل امرئ يريد لنفسه لا لسواه، وإن أول التوفيق أن تريد ما يصلحك وأول الخذلان أن تريد ما لا يصلح لك؛ وما الطمع إلا فقر حاضر ولو كان طمع الغنى.

وإن هذه النفوس لتبلى من طول ما يلبسها قدر ويجعلها قدر، فلقد رأيت غير الموفق حين يجور في إرادته، ويضل في مسعاته؛ ويلتمس من الغيب ما يقدر لنفسه دون ما قدرت له نفسه- لا يبرح يكذب ويسعى، وكلما لبس حالة من دنياه فاضت عليه فخلعها أو ضاقت عنه فخلعته، ولا يزال ذلك من دأبه ودأب القدر معه حتى يهن ويضعف ويصير إلى البلى في نشاطه وحزمه وفي طمأحه ورغبته، وقد أنفق من حياته ما لا يرد في ابتغاء ما يدرك؛ وهذا كله هلاك بطيء يأتي على العمر، والعمر بمقدار الزمن الذي تعيش فيه، ولكنه مقدار ما تُوفق من عيشك.

وهل سمعت برجل كان يحفر قبره منذ عقل معنى الموت وقد نذر أن لا يحول عنه، ثم لم يزل يوسع الأرض من عمله ويفسح في جوانب هذا

(١) بمعنى تكسد من قولهم حمت السوق (بضم الميم)؛ أي كسدت.



القبر وعمر طويلاً وغبر على ذلك دهرة، حتى أصبح قبره يأكلُ القبور أكلاً^(١) ثم أدركه الموت فانطرح فيه رمةً باليةً فإذا هو لا يملأ من جوفه عمل يوم واحد مما كان يعمل؛ وبقيت الحفرة كأنها فم مفتوح تصيح منه الأبدية: أين الميت العظيم الذي أعدَّ كل هذا لجيفته... وما بال هذا الساعد وما بال هذا المنكب، وفيما كان ذلك العمل، وما هذا النبوغ الميت الذي ضاعت فيه الحياة ولم تعظم به الموت؟...

إنك إن لا تكن سمعت بهذا الرجل فلقد رأيت كثيراً من مثله يعملون للحياة عمل ذلك الأحمق بعينه للموت؛ فهو لم يمت بمقدار ما أعدَّ لنفسه، وهم لا يعيشون بمقدار ما جمعوا لأنفسهم؛ ومنهم من أنفق العمر في أكثر من حاجته، ومنهم من أضاعه في غير حاجته، والعمر لا يُستخلف، وكلا الفريقين طرّف من قياس واحد في الخذلان وإن كان أحدهما يبتدىء من عكس الجهة التي يبتدىء منها الآخر.

لا يوجد على الأرض من يملك شيئاً في الأرض غير محدود؛ ولكن ما من أحد طمعا محدودا في نفسه، ومن هنا كثير ما يسميه العامة "سوء الحظ" وإنما هو سوء التوفيق.

أما حسنُ الحظ فما أحسب الناس يعرفون ما هو، وما أراه إلا رغبةً مجنونة لا يُقرّها العقل ولا يستقيمُ بها نظام الدنيا؛ وإنما عرفَ الناس في كل وجه من وجوه الحياة كيف تكونُ الخيبة، وكيف يمرض الأمل، كيف يهلك الطمع، وسموا ذلك "سوء الحظ" فحسبوا أن لهذه الأحوال ضدّاً، وجعل كلُّ واحدٍ يَتمنى لنفسه هذا الضدَّ ويصفه ويسميه "حسنُ الحظ" لأنه زعم لاسوءٍ فيه؛ كالذي يسمع بالموت فيحسب أنه يعرف

(١) كناية عن السعة. كأن القبور في جوفه.

ما هو الموت؟ والحقيقة أنه لا يعرف منه شيئاً وإنما عرف الحياة الهالكة!

يأبى كل أحقق إلا أن يخطط لله خطة بينى عليها مستقبله؛ فكأنما يريد أن تمشى يدُ الله في التقدير على أجزاء الصورة التى فى خياله^(١)! ولو جمع الله أبنية الأمانى من أوهام الناس ومثلها وكشَف عنها الغطاء فأبصرناها لرأينا ثم "مدينة المستقبل، التى لا يملك أفخم قصورها إلا الصعاليك...

أما أنا فلا أرى كلمة "الحظ" فيما نأمله وفيما نتعلل به إلا لحنا من الألحان الطبيعية التى حُلقت فى أفواهنا لنتغنى بها تحت الأحمال الثقيلة من مصائب الدنيا وأطماع النفوس، كى تجم الطباغ وتنشط للسير بأحمالها، فما الإنسان إلا دابة للحمل، وعليه أن يحمل من معانى المادة التى يعيش فيها أو يعيش بها، والزمن نفسه بحكمته وعلومه وحوادثه إنما يعلمنا كيف نحتملُ الأسواء والهموم أكثر مما يعلمنا كيف نتقيها.

قال "الشيخ على": ولكن يا بنى ما هذا الذى يرتفع بالخامل، ويتقدم بالعاجز، ويجعل النكرة معرفة والمعرفة نكرة، ويضربُ وجه الحق عن مُستحقه، ويُفلج^(٢) الضعيف وما يسمو به أمل، ويحرمُ المجدَّ وما يشك فى الظفر، ويخالف فى سبيل الأقدار بين نصيب ونصيب، ويقطعُ فى محاولة الأمور بين الأسباب والغايات ويُبعدُ المنفعة مما به تمامها فإذا هى مَضرة ومفسدة...؟

(١) من كتابنا (السحاب الأحمر) فى فصل الصديق: ما الخيبة إلا رد الأقدار علينا حين نقول: لا. وقد أفضنا هناك فى هذا المعنى فأنظره.

(٢) أى يظفروه بحاجته.



لعلك تقول؛ إن كل هذا يجتمع فى كلمتين هما "السعد والنحس"، وهما تنطويان فى لفظة واحدة هى "الحظ" ألا فاعلم أن هذا من وضع الإنسان لا من وضع القدر؛ وهى مذاهَبٌ لغوية تمر بين أنفسنا وبين أفهامنا، وقد جئتنى بجمل تنطوى فى كلمتين، وكلمتين تجتمعان فى لفظة، وأنا أتيك بجمل فى كلمات فى صوت واحد، فما هى صرخة الألم مثلاً؟ أليست قطعة طويلة من كلام النفس يجمعها الجس الشائر المتألم وينتفض فيها فلا تكون إلا صوتاً واحداً! وانظر أين هذا الصوت مما يشرحه لك الطبيب من أسباب ذلك الألم وعوارضه فى كلام طويل وعبارة سابقة لا يتألم منها حرفٌ، مع أن أحدهما إنما يفسر الآخر كما ترى!

وأنا فلا بد أن أعلمك من أين خرجت هذه الأسماء^(١)؛ لقد خرجت من تاريخ النوع الإنسانى كله؛ فإن هذا الحيوان العاقل كان يشعر بمعانى الأشياء قبل أن يضع ألفاظها، وكان السخط والغیظ والحسد والمنافسة ونحوها من غرائزه الطبيعية؛ إذ هى المعانى التى بثها الخالق فى نفسه لننشئ فى الأرض تاريخ هذه النفس؛ فكان إذا تعادى رجلان أو فئتان فبغى بعضهما على بعض، أحس الغالب منهما أن قوى الطبيعة معه، وأيقن المغلوب أن قوى الطبيعة عليه؛ لأن الإنسان لم يكن عرف نفسه بعد، وكان هو وحده يمثل فى هذه الطبيعة المخيفة الرائعة فكرة الخوف العاقلة؛ فهذه الثقة فى القوى الطبيعية المجهولة من الإنسان، وهذا الشك فيها والخوف منها، وهما الأصل فى تاريخ لفظتى: السعد والنحس.

ولقد كانت الأمم القديمة كلها تتوسل إلى الغيب المجهول بوسائل غريبة من الطلاسّم والتمايم والتعاويد ونحوها من الأعمال والعبادات

(١) أى السعد والنحس والحظ.

المأثورة في تاريخ كل أمة؛ لأن ذلك المعنى بعينه قد ارتقى مع العقل واشتد مع الإنسان فخرج من مخافة الطبيعة إلى الرغبة في إخافتها، حتى تنزل على حكم الإنسان في اجتلاب الخير ودفع الشر، والزمن لا يأتي على الغرائز فيمحوها، ولكنه يحول منها شيئاً ويهذب منها شيئاً؛ ومن هنا كانت كلمة "الحظ" فاشية في المتمدين لأنها آخِرُ صورة مهذبة من تلك الغريزة الأولى!

أما إن في حوادث القدر أشياء لا نفهم وجه الحكمة فيها؛ وهى الحظوظ والأقسام، فذلك صحيح فى نفسه بمقدار ما هو خطأ فى أنفسنا؛ والشذوذ فيما يقع من حوادث الدنيا وفيما نشهد من تصاريف القدر أمر معلوم، ولكن لماذا لا يكون قاعدة لأشياء نجهلها ما دمنا نجهل الغيب كله ولا نعرف منه شيئاً.

ما رأينا قط فى تركيب هذا الكون المعجز شيئاً خارجاً عن موضعه، ولا شيئاً زائداً فى موضعه؛ فلم نظن مثل ذلك فى الجهة التى بنا من حكمة الله، جهة السعد والنحس؟

يا بنى، إنما قربت النعمة عن فلان لأن القدر يسوقها إليه، وإنما بعدت النعمة عن فلان لأن القدر يسوقها إلى غيره، وإذا أراد الله أمراً هباً أسبابه، فربما سعى المرء بكل سبب فلم يُفلح، ثم يقع له سبب لم يمتهد له وسيلة قط فإذا هو عند بُغيته، وإذا هو قد ملأ يديه مما كان قد يئس منه، فلا يكون عجبه كيف خاب فى الأولى بأشد من عجبه كيف نجح فى الثانية؛ وهذا هو مظهر إرادة الله، فإن صادف من بعض النفوس الضعيفة حسداً أو غيظاً أو سخطاً أو منافسة أو نحو ذلك مما يكون مظهرًا لضعف الإيمان فى النفس، تحول المعنى إلى لفظ يحمل كل هذه العواطف



الوحشية، فليس الكلمة التي تسلبُ الإنسان قوة نفسه وتكاد في إبهامها تسلب الأقدار قوة الحكمة أيضا، وهى كلمة "الحظ"، ألا ترى أن أحدًا من الناس لا يتعلل بهذه الكلمة ولا يحتج بها ولا يسكن إليها إلا من غيظ أو سخط أو حسد أو عجز أو ما هو بسبيل من هذه المعانى؟

قال "الشيخ على" فلم يبق من معنى "الحظ" إلا أن يقال: ولم وفق فلان، ولم تُحْزِل الآخِر وما هو به بدونه، وربما كان أحق منه، وربما كانت المنفعة به أكثر والنعمة عليه أظهر؟ ولم كان ذلك سعيدًا، وبأى شىء صار سعيدًا؟ وهذا شقيًا، وبأى شىء عاد شقيًا؟ إلى نسق طويل من هذه المسائل التي لا تجيب عليها السماء ولا تكف عنها الأرض أبداً...

ولكن، يا هذا لِمَ تخفى أنت وحشيتك المهذبة وتُكَاتِم الغيظ والسخط والحسد، ثم تحتال على أن تخرج هذه المعانى الخسنة فى ألفاظ لينة، وأن تعترض على القدر فى أسلوب من التسليم والرضا، وتطرح بينك وبين الله لفظة إن لم يكن معناها مخاصمة القضاء فمحاسبته، وإلا فمعتبة عليه!

وهل تعلم أنت ما هى شعوبُ الحوادث وفنونها، وما الذى سيفعله المجدود^(١) حين تُقبلُ عليه الدنيا، والمحروم حين تدبر عنه النعمة؛ وماذا يكون مما يترتب على الحرمان أو ينشأ عن الحظ؛ وهل تدرى لِمَ أساء بعض الأغنياء حمل الغنى دون البعض؛ ولم أحسن بعض الفقراء حمل الفاقة دون البعض، ولم ابثلت طائفة بالتمنى وابتليت غيرها بالضجر مما تتمناه الأولى، وخبب إلى تلك ما بُغض إلى هذه؛ ولم انتزعت نعمة بعد أن استمكنت حبلها، وأقبلت الأخرى بعد استيأس أهلها؟...

(١) ذو الحظ

أليس من كل هذا يتهدى البقاء للحياة الإنسانية فى نظام لا يخف على نوع الإنسان فى فهمه فىفسد به، ولا يجوز عليه فىستأصله فىذهب به؟ وهل الناس إلا خطوط فى لوح الغيب فىسقىم ما فىستقىم منها وبعوض ما يعوض لأن كل ذلك مما لا بد منه فى جملة الوضع وإحكامه؛ فإذا أردت أن تسأل لِمَ استقام هذا ولم أعوج ذلك، ثم ما قصر وطال. ثم مابق وجل، ثم ماعلا وسفل، ثم ما انفرد واختلط فسئل؛ لِمَ خلقت الدنيا ولم خلق الناس، وسئل الخالق ولا تسئل "الشيخ على".

كل ذلك يا بنى حكمة وكل ذلك انتخاب، وقد ظفر العلماء فى حركات النظام بما سموه "الانتخاب الطبقى"، وعرفوا أن ذلك سر من أسرار التقدم والارتقاء؛ فاعلم أن ما نحن فىه من معنى "الحظ" إنما هو "انتخاب إلهى"، وذلك سر من أسرار الحياة والبقاء. وما من حركة لى ولك ولكل إنسان إلا هى تمس قطعة من تاريخ الحياة وطائفة من الأحياء فىليس من حى هو لنفسه وحدها، ولىس من حقيقة هى لنفس واحدة، وإن عرف الإنسان بعض الحقيقة من نفسه فأكثر الحقيقة لا يعرفه إلا من سواه، ومن أجل ذلك يقضى نظام الحياة بما نسميه "الحظ" وإن كنا لا نفهمه كما يقضى به نظام هذه الحياة؛ وإنما قوة الحركة وضعفها على حسب ما يراى بها فى الدفع والجبذ؛ فكن واثقا بالله مؤمنا بالقدر خيره وشره، فالثقة وحدها حظ عظيم؛ والله تعالى يصيب الناس بنياتهم، إذا هى حقائقهم الصريحة، وإذ هو وحده المطلع عليها؛ فهو يوفق السعداء للنبة الحسنة ثم يسعدهم بهذه النبة على الوجه الذى يعلم أنه من سعادتهم، فإذا لم يكن لهم الحظ الذى يريدونه فلهم الحظ الذى يلائمهم، وربما كان زمام العافية بيد البلاء وكانت النعمة فى عاقبة المصيبة، وكان الإنسان عابسا من طلعة القدر والقدر يضحك له؛



وإذا لم يكن للأقدار نواميس أرضية تجرى عليها وتقع بحسبها فإن أقرب ما يصح أن يعدّ من نواميسها فيما أرى هو نيات الناس.

وما النية إلا خلاصة الفكر والضمير ونتاج ما بينهما، فلا تنطو على ما يسوؤك أن تتمّ به السنة الغيب وإنما الحوادث من هذه الألسنة ولا تعقد هوى ضميرك على ما تحسبه أملا من حيث لا يكون إلا حسداً للناس ولا يُغيب إلا نكداً لنفسك، وما تظنه عزماً منك وهو طمع في الله ومخادعة للقدّر.

وحسبك من المتاجرة مع السماء بضاعة سالحة من الإيمان الذي لا غش فيه، ومن المتاجرة مع الأرض بضاعة طيبة من النية التي لا دنس فيها، فإن ربحك من هذه البضاعة التي لا تكسب في أسواق السماء والأرض، أن يلقى الله عليك محبة منه وتأبيداً وسكينة؛ وإن رأى الناس أنك خسرت شيئاً من الغنى أو الجاه أو متاع الدنيا، فإنما تعلم أنت يقينا أنك لم تخسر إلا الهمة والشقاء والتعب بالدنيا وأهلها.

ويومئذ يكون لك من حسن الإيمان، وحسن النية، وحسن الأخلاق، ما نعرف منه كيف يكون "حسن الحظ".



الحرب (١)

رُقعة من الأرض كأن فيها شيئًا من الطينة التي حُلق منها الإنسان، فهي تُمَطَّرُ من دمائِه، وكأنما عرفته في سماء الله فلا يكاد ينزل بها الجيشان، حتى يَعدُّ أرواحَ أكثرهم إلى سمائه؛ ينجذب إليها الجنديُّ لأن فيها ثرابَه بل لأن فيه من ثرابها، وينطرح عليها لأن اقتراب منيَّته في اقترابها، ولا تزال تصرَّعُه وكأنها من شوقها تضُمَّه، وتلقيه على صدرها مبيئًا أو جريحًا كأنها تُغْلَمُه بذلك أن الأرض أمه، وهي مزرعة الموت، نباتُها الرءوس فمنها قائمٌ وحصيد، وثمراتها النفوس فمنها داني القطاف ومنها بعيد؛ وقد رواها بالدم الحى فنبت فيها العظم وأثمر فيها الحديد!

بل هي ساحة الحرب ترفُّعُ عليها القوة رايةً وتنزل راية، ويحسُرُ إلى مسرِّحها الناس ليمثل لهم الموت كل رواية؛ وقد اضطربت فيها الآجال فكأنها أمواجٌ في بحر القدر زاخرة، وتناثر فيها الرجال، فكأنهم عظام في بعض المقابر ناخرة، وظهرت تلك الساحة وقد كشرت عن أنياب من السيوف وأسنان من الأبيسة كأنها لأهل الدنيا قمم الآخرة!

أما الجنودُ فإذا رأيتهم يلتحمون قلت زلازلُ الأرض قد خلقت على ظهرها وإذا شهدتهم يقتحمون خلَّت نفوس الكرام قد حملت على دهرها، وقد أيقنوا أنهم لم يكونوا للموت كانوا للأسر، ومن لم يبرن منهم على

(١) هي الحرب العظمى التي ارتكس فيها العالم ١٩١٤ للميلاد، وبلغ ما أنفقته الدول عليها مائة ألف مليار ذهباً، وهلك وتعطل بها نحو ثلاثين مليون نسمة، فكانت حصاداً للأرض وأهلها، عمل فيه الموت والفقر والخراب جميعاً، وقد كتب "المساكين" في سنة ١٩١٦ قبل الهدنة بستينين



"الفتح" بنى على "الكسر" وما منهم إلا من يحمل رأسًا كأنه لا يملكه، على عُتُق لا يدري كيف يُمسكه، فى بدن لا يعرفُ أيأخذه الموتُ أم يتركه؛ فهو لا يبالي أظلمته الشمس أم أظلم عليه الرمس؛ ونهض للتاريخ مع الغد أم ذهب فى التاريخ مع الأمس.

وإذا كان من صفة الميت أنه اسم فى الحياة بغير جسم، فمن صفة هذا الحى أنه جسم يعيش بغير اسم، وما الجندى إلا عدد فى حساب الحرب، فسيان قَطعه. "والطرح" أم أخذه "الضرب" وإنما هو حيث يتهبأ له انتظارُ الأقدار، فليس إلا الصبر؛ ولو فى بطنِ القبر وحيث يطبخُ له النصر على "النار فتمَّ المكان، ولو فى جوفِ البركان؛ وآيةُ عقله أن يكون كالألة المتقنة تعمل بلا عقل فلا يخشى الخيف؛ ولا يسأل لماذا ولا كيف؛ ومن ذكائه أن يكونَ من صحةِ الذهن... بحيث لا يفرق فى الموت بين الجمر والتمر، وأن يكون من "خفة الروح" بحيث تحمله اللفظة الخفيفة على جناح الأمر.

وما الحربُ إلا أن يتنازعَ للناس على الحياة فيقيموا الموت قاضيًا، ويطلبوا من الشريعة المدونة فى صفائح السيوف حُكمًا على الحياة ماضيًا، فكلما الفريقيين يُقدِّمُ الحجج، من المُهَج، ويتكلم بالسنةِ الروح من أفواه الجروح ويأتى من بلاغة الموت فى خصامه بكل "ضرب"؛ ويُجرى الحياة مجرى "الاستعارة" فى "بيان" الحرب.

وقد توافقَ الرجالُ فى يومٍ أطولَ من يوم العرض، وتقاذفوا بالأجال حتى أوشكت السماء لكثرة ما ينزلُ منها أن تقعَ على الأرض، فالخيلُ منقضة كأنها صواعقُ أرسلها الموتُ فى أعنة، أو نوازغُ من السحاب بُروقها الصوارم والأيسنة، مسرعة كأنها تسابقت تلك المنايا التى جرت بها الأقدار. جائلة كأنما تحيرت كيف تفرُّ من ساحة الموتِ بما حملت من الأعمار.

وعلى ظهورها كل فارس كأنه بين الرماح أسد فى غاب وكأنه الموت من سيفه سم حُلِقْ فى ناب، وكأن العنان فى يده سوط ولكنه سوط عذاب، لم يُعد فى الفُرسان، حتى لم يعد من الإنسان، فإذا صاح بقرنه عرفت الوحوش ذلك الصوت، وإذا هاجته الحرب لم يفته من ضروب النعمة فوت، وإذا نظر فى مقتل عدوه حسبت عينيه نقطتين على تاء الموت.

وقد ثار الغبار كأنه طريق يُمد من الأرض إلى السماء، أو كأنما أراد أن يُمثل السحاب وقد رأى المطر تمثله الدماء، أو كأنه أرض ثامنة بدأت تتخلق مبعثرة فى الفضاء، أو كأنه لما رأى الحرب تتوقد هب مستجيراً بالهواء من الرّمضاء، أو هو قد فر من الأرض لما خشى أن تنفلق الأرض من حوافر الخيل، أو كأنه أنف أن يأتى الناس أعمال اللصوص فى نور الشمس ف ضرب عليهم قبة من الليل، أو حسب عقول الجند فى أيديهم وأرجلهم^(١)... فطار ينظر أين تلك الهام، أو هو لما رأى المطر أحمر خشى على الأرض فثار إلى السماء ينظر ماذا دهبى الغمام.

وقد رمت الأرض تلك المدافع بزلزالتها، وألقت على الجنود صوراً من شر أفعالها، فتركهم كالغابة الملتفة إذا استطار فيها الحريق، وانحط فريق من أشجارها على فريق؛ وكأنما انقض عليهم من قنابلها جدار من الجحيم، وكان كل مدفع فى صيحة الحرب إنما هو عنق شيطان رجيم.

تحمل فى بطونها أجنة من النار ترتعد الحصور ليهول ميلادها، وتتحنى القلاع مخافة منها على أولادها^(٢)، ولها صوت بعيد كأنما تنادى

(١) لأن أعمالهم كلها من البطش والفتك بالأيدى والأرجل.

(٢) هم الجنود.



به السماء لترسل المنايا الطارقة، أو لتستقبل الأرواح المفارقة، أو كأنه نشيد فخم تفتخر به الأرض على الرعد والصاعقة.

وهى القارعة وما أدراك ما القارعه، أما يومها فيومَ يكون الناس كالفراش المبتوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش^(١)؛ وهو إن لم يكن يوم النفخ في الصور فإنه يومٌ تحصيل ما في الصدور^(٢)، وإن لم يكن يوم يُبعثر من في القبور فإنه يومٌ يُبعثر الناس في القبور.

وهو المذفع حسبهُ قوّة أنه من الحديد، وحسب ما يحويه قولُ الله عز وجل ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ وحسبهُ رُعبًا أنه شكل (عصرى) من عذاب الخسيف القديم أعده الله لهذا الإنسان الجديد، فكم من حصن منيع اعتز به أهله، فتركهم فيه ترابًا وعظامًا؛ وكم من قلعة شامخة اغترّ الجند بفواها، فدمدّم عليهم ربهم بذنبيهم فسواها^(٣).

وأما الرصاص فهو من سماء الموت حبّ غمامه، ولو صغير كأنه ترنم الشيطان ببعض أنغامه؛ ولو أن عاصفة كتست أرض الجحيم لما شوّت الوجوه بأشد من ناره، ولا حملت من هناك إلا ما تحسب هذا الرصاص من حصاه وغبارِه، يثور كما تثور الأعاصير، ويندفع كما تندفع المقادير، ويقع على الأجسام بالأجلِ أو يطير، ويتناثر فكأن في السماء نجمًا تفتّت فسقط، أو كأن قطعة ذابت من الشمس فألقت على وجوه الناس هذه النقطة، أو هو فوج^(٤) من ذباب النار، هبط إلى هذه الدار؛ فلا

(١) العهن: الصوف وهذه الكلمات اقتباس من القرآن الكريم.

(٢) المراد هنا تحصيل الأرواح، والكلمات أيضًا اقتباس.

(٣) دمدم عليهم. طحنهم فأهلكهم، والجملة اقتباس من قوله تعالى ﴿فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَحَسَوْنَهَا﴾.

(٤) الطائفة أو الجماعة.



وهي الحرب العامة كأنها ثورة الدهر وقد سُجِّرَ من هذا العلم
وطغيانه، ومِلَّ من سماجة إنسانه، واشتاق إلى عصر حيوانه، فرفز
زفرة أيقظت الموت وكان نائما، وتركت هذا الإنسان من امتزاج لجنه أو
قاعدا أو قائما، واستنزلت من الفضاء ما كان في علم الله خبيبا، واشتعل
من هولها رأس الأرض ببياض السيوف بين صعها وسهلها، وأظهرت لعقول
لأهلها، وسارت في معايش الناس في ظلام من اليأس مُنْتَهَب النَّجْمِ، والدول في عصر
العلماء أن أكثر علمها من فنون جهلها.. فالأرض في بلاد منتشر لا يُعْرَف
له حجم، والشعوب في ظلام من اليأس مُنْتَهَب النَّجْمِ، والدول في عصر
كليل الشياطين كله رجم..

قال «الشيخ علي» تلك هي الحرب القائمة اليوم ولكن كما ترى خيال
في الماء؛ أما الحقيقة فكل حرق منها جيش، وكل كلمة أمة ووراء
ت راع هو استجماع الحياة الأرضية لمقابلة الموت ولو أن لهذا
يا يعتبره كما تعتري الناس أمراضهم لفلت إن ثِقُّ الأرض قد
" فأصبح شقها الآخر لا يكاد يجرُّ ظلُّه حول الشمس، لأن
بينه وبين ذلك النصف الميت؛ فقد اشتبكت العلائق بين
إذ لا تعرف دولة بين الناس تزعى شعبا من البهائم،
ومن ثم اتصل به اتصال اليد بأختها عرف أخاه، لأن أكثر
" وجمع العلم بين هذه الأمم لأنه لا ينتسب
الأرض خال ولا عم، ولا يعرف شيء يقول
أبت" إلا التاريخ الإنساني.

ولها سَفَرٌ بين أمم الأرض كلُّ ما يخرج من رأس الإنسان وما ينتج من يده. واتصل ذلك واستفاض حتى كأنما دارت الأرض دورة جديدة من داخلها، فما إن يقع الاضطراب في ناحية منها إلا دخلها من الأثر في سائر نواحيها، من هزةٍ ترجف، إلى زلزلة تهدم، إلى الخسف الذي يجعل عاليها سافلها.

وإني بأسطُّ لك شيئاً من الرأى في كلمات قليلة، ولكنها كالمعركة الأخيرة التي يحقُّ بها النصر، فتكون هي تاريخ الحياة، ولا يكون ما سبقها إلا تاريخاً للموت.

ألا فلتعلم أنه لو كان لحوادث الدهر منذ نشأ الدهر تاريخ صحيح يصف لنا ما كان سبباً في كل حادثة وما صارت كل حادثة سبباً فيه، لأثبت يقيناً أن ليس في الأرض شيء من خير أو شر غير ما يلزم لبناء هذا التاريخ الأرضي على الوجه الذي يتفق مع بناء الإنسان، والتاريخ يطرُد حيناً ثم يعطف ههنا وههنا في مجراه من الغيب، فلا يتحول إلا انشقت له ناحية من العالم.

فإن حُرِّيت دولة أو سقطت أمة فما هي بصاحبة الدهر كله، وقد كان لها قسمها منه ثم عاد الدهر يطلب قسمه منها. ولن يُجدد البناء القديم حتى يكون الهدم أول العمل في تجديده.

فالحرب شر لا بد منه، لأنها من عوامل التحليل والتركيب في تاريخ الإنسانية؛ وهي بذلك سبب من أسباب استمراره. وكلُّ شر لا بد منه فهو خير لا غنى عنه. وهل يبتغي الإنسان أن تُضرب العصور والدول كما تُضرب الدنانير والدراهم من معدن معروف على وجه معروف ولغاية معروفة؟ وإذا لم يكن لنا مستقبل التاريخ وكنا في عمر محدود فما



نحن والرأى فى بناء هذا المستقبل، وكيف نقدّم لله آلات البناء ثم نحكم الشرط أن لا يكون فى هذه الآلات ما يحتقر أو يكسر أو يرض.

إنما يجعل للحرب ذلك الوصف الذى يُطيرُ لها فى كل أرض صوتاً^(١) بالذم والسوء، أنها لا تأتى إلا بغتة، ولا تطبق إلا فى غفلات العيش، وأنها تثور فى بياض الأمن حمراء من لون الموت، وتطلع فى خضب النعمة سوداء من لون القحط، وتنبثق بالشر من حيث يكون الشر مأموناً وتضب المحنة على من لا يطيقها، ثم لا تصيب الذين ظلموا خاصة بل تُلّف من جانبي الحياة لَفًّا، وهى فى كل ذلك البلية المكشوفة التى تشتهرها الأحاديث^(٢)، وتضرب فيها الألسنة، وتسيل عليها الأوهام بما فى طباع الناس من طبقات الأخلاق ضعفاً وشدة، وخوفاً وطمعاً، وبخلاً وكرماً، وخذراً واندفاعاً، بحيث تصبح وكأنما ترتدى على رأس كل إنسان بالموت، أو بالخوف من الموت، أو بالخبر عن الموت أو بما يُشبه الموت، أو بما يكون الموت خيراً منه!

وإلا فكم يترضض الناس^(٣) كل يوم، وكم يجدون من صنوف الدمار فى الأعمار ومن صُروب الأرزاء فى الأرزاق، ما لو جُمع بعضه إلى بعض فى نسق واحد لطمّ على هذه الحروب كلها، ولأظهر لك أن فى السلم ما هو شر من الحرب وإن لم يصرخ به صوت الموت.

وما البغى والظلم والكيد والفتنة والاستبداد ونحوها مما يشمل أكثر وسائل الحياة الإنسانية إلا ضروب من القتل الخفى، وربما عدّ الموت فى بعضها راحة من الموت... ولكن ذهب يائثها فى اصطلاح الناس أنها

(١) كناية عن تحدث الناس عنها بدمها.

(٢) تدمها وتشهر بها.

(٣) يتكسرون، يقال: ترضض الحجر؛ إذا تكسر.

حُطِّطَ موضوعة للمغالبة على الحياة؛ وأنها لا تنالهم إلا فردًا فردًا، وكان باطلَ الأمم غيرُ باطلِ الأفراد، لأن الاجتماع قضى منذ أول العهد به أن تكون الأمة مظهرَ السرعة وأن يكون الفردُ مظهر العقاب، ولكن لبيت شعري لِمَ يكون الفرد كذلك من الأمة ولا تكون الأمة كذلك من أمةٍ غيرها؟

فالحربُ هي عقاب الجماعات، وهي كذلك ضرورةً اجتماعية، ولن يخلو منها تاريخُ الإنسان إلا إذا رجع الناسُ أمةً واحدةً في تركيب مستحيلٍ لا يتهيأ معه أبدُ الدهر ما يقسمُ هذه الامة على نفسها، ولعمري إن ذلك التركيب الاجتماعي الذي يخلو من الحروب لِيُزَهِّدَ الناسَ في جنة الله ولا يدعُ للأديان محلاً على الأرض، ويحسبون أنه صلاحٌ في الطبيعة وهو يفسدُ الطبيعة كلها، فما هو إلا خيال شعري في تاريخ الحقيقة الإنسانية، وما أرى الحرب إلا البرهانَ الذي تقيمه الطبيعة أحياناً على فساد ذلك الخيال كلما أو شك الضعفُ الإنساني أن يتوهمه حقيقة...

وإذا كان الله لم يخلق إنساناً من النور فلا تظلمُ نفسه، ولا من الثلج فلا يحمى دمه، ولا من الصخر فلا يهتئ كاهله، ولا من الحل فلا يحيف على غيره؛ ولا من الرضا فلا يطغى في سواه، ولا من الكتمان فلا تخرج أضعافه ولا من السكون فلا يتحرك في نزاع؛ فكيف لعمري يخلق بعض الكتابِ والفلاسفة هذا الإنسانَ الجديدَ من عناصر السُّلم وحدها؟

إلا إن الإنسانَ لا يولد ساكناً ولا نظيفاً، وإنما يخرج من بطن أمه في ثورة دمويةٍ تنفجر من حوله ههنا وههنا؛ وما أرى الحربَ أكثرَ ما تكون إلا ولادةً للتاريخ على هذا الأسلوب، فكان من التاريخ ما يولد على أسلوب الحيوان في ثورة من الدم، ومنه ما يوجد على أسلوب النبات في تحوُّل ساكنٍ غيرٍ منظور.



قال "الشيخ على": والحركات المجهولة في نظام الأرض كثيرة، بعضها يجرى على الطبيعة وبعضها يجرى على الإنسان؛ فكما يُدكُّ الجبلُ وتخشفُ الأرضُ ويغطى الماءُ وتثورُ العواصفُ وتتفجرُ البراكين، يجرى على الإنسان من مثل ذلك القحطُ والوباءُ والحروبُ وغيرها؛ لأن الإنسان في الحقيقة هو الطبيعة الرفيعة، وما القوةُ المركبةُ فيه التي تخرج من مجموع غرائزه إلا تهيئة حربية في نفسه^(١).

فلولا أن هذا الإنسان مهياً للحروب بأدواتها الطبيعة، وأن هذه الأدوات هي كذلك من أسباب بقائه اللازمة له، لما قامت في الأرض حرب قط، ولو أبعدنا في مطارح الفكر ونظرنا من وراء النفوس الإنسانية إلى ميادين القتال لرأينا أن الحرب التي تقوم بين الأحياء إنما هي حرب قائمة بين مذاهب الحياة.

وكما يجتمعُ العلماءُ وأهل السياسة لتتفحح الأنظمة والقوانين، تجتمع الأمم المتحاربة لتتفحح الطباع والعادات، وما أعجب أن يكون القتالُ تنقيحاً في قانون الحياة^(٢). فلا تنظر من الحروب إلى هؤلاء المساكين

(١) لو ليست الغرائز الإنسانية مادة لما لبست إلا الأسلحة.

(٢) من تمام هذا المعنى ما ذكرناه في كتابنا "تحت راية القرآن- المعركة بين القديم والجديد" في كلامنا عن فساد الحضارة الغربية، ننقله توفيةً لفائدة الروح الإنسانية متى أصبحت موتورة ساخطة متبرمة بأسباب مختلفة كأسباب هذه المدنية من سياسية واجتماعية ووطنية، لم تكن روح الحياة ولكن روح القتل وما في حكمه، ومن ثم فلا بد في هذه الحضارة من انفجارات حربية مستمرة، ولا بد لها أن تجد من تقتله ومن تظلمه ومن تستعبده؛ وإذا تحاجزت الدول وتنازعت زماماً فأنما يسمن بعضها بعضاً في مراعى السلم والعيش وكل أمة عينها على شحم الأخرى.

ولقد كانت الحرب العظمى تنقيحاً إليها عتيقاً لهذه الحضارة الزائفة فوضع الله يده عليها فحمت أكثر حسنها ورقائنها وطرقتها البديعة، وأميتت طباع الترف لتنبعث طباع القوة، وقر في الرجل معنى الرجل وفي المرأة معنى المرأة وكانا قبل ذلك وإن الرجل نصف امرأة. وإن =

كتاب المساكين

والمتوجعين والمحزونين: فذلك كله إلى نهاية ولا يبقى منه على الأرض شيء قلَّ أو كثر ولا أحرق ممن ينظر إلى ساعة الهدم إلى آثار الهدم ولا يعلم أن ذلك سبب لما بعده، وأنه إذا لم يهلك يومٌ في سبيل الغد هلك المستقبل كله.

ولكن متى تكون الحرب حقًا ومتى تكون باطلا؟ فهذا مالا سبيل إلى وجه الرأي فيه، وربما كان الجواب عليه سؤالاً آخر. وهو: متى تُفرض في حياة الناس تلك المسائل التي لا يصلحون هم أنفسهم لحلها؟ ومتى تكون الحركة العنيفة التي يتحول بها التاريخ الإنساني كلما وجب أن يتحرف ليتبع مجراه من الغيب؟

أليس ذلك هو السبب في أن العقل أحيانًا يكون أول ما ينهزم في الحرب كما تراه اليوم^(١)، فيصبح الفلاسفة والعلماء المتفنون ولا همَّ لهم إلا إدارة حركة الموت هجومًا ودفاعًا، وترى الصلوات والأدعية والتسابيح تصاعد إلى الله وفيها ريح الدم والنار والغازات، كأنها قنابل صُيغت من العواصف؟

وقد يقول بعضهم إن في الحرب إسرافًا اجتماعيًا بما تأخذ من الموتى وما تترك من المرضى؛ ولكن كم من الإسراف الطبيعي والأخلاقي في بقاء الناس موفورين بعلومهم وفنونهم وشهواتهم ونعمهم ومصائبهم ونحوها، مما يؤدي إلى انطواء هذا المجتمع الإنساني في الأدمغة والقلوب

= المرأة ضعف نفسها، فكان الحرب كانت مصفاة للحضارة تقويها الخرائب والخنادق والقبور، ومتى جمعت الأوساخ بعد زمن فالمصفاة باقية؟

(١) كانت الحرب العظمى حرب مخترعات فاتكة جهنمية لم يعرفها تاريخ الإنسانية من قبل، كأنما كانوا يجربون أن يخترعوا جهنم.



بما تبعث عليه تكاليف الحياة الاجتماعية السامية التي تحاول أن تجعل الإنسان حيواناً على شكل مخترع.

فلا تُزيّن يا بنى هذه الوحشية التي تعترى الناس فى حروبهم إلا سبباً فى رجوعهم بعد ذلك إلى الإنسانية الخالصة التي أفسدوها بحضارتهم وضربوا عليها الحدود من مصطلحات التمدّن ومن أصول المعاملة، فأصبح الإنسان منهم يقضى العمر وهو يتعلم كيف يصير إنساناً...!

وأنا يا بنى فى خاصة نفسى أكره الحرب، لأنى أراها تُصور بكل ألوان الهلاك والخراب فكرة العدم المبهمة على قطعة من أديم الأرض، وأمقتها لأنها تلوث الحياة بدماء الرجال ثم لا تغسلها إلا بدموع النساء والأطفال، وأبغضها لأنها تدفن تاريخها الصحيح للمستقبل ولا تترك للحاضر إلا تاريخها المشوّه فى أعضاء الجرحى، ولكن البغض يا بنى لا ينفى الحكمة مما تُبغضه؛ وما سرور نصف الناس إلا بما يكره النصف الآخر!

وأكبر شخص اجتماعى وهو الأمة، كأصغر شخص اجتماعى وهو الطفل: كلاهما يبكى ويتألم حين يُضرب لتأديبه.

قال "الشيخ على": وهذا آخر قول الشيخ على...



على الكوكب الهاوى

حسنا أفقرتها الحرب،
وكيف تتلقاها الحقيقة؟

طريدةً بؤس مل بؤسها الصبرُ
تنكرت الدنيا لها ورمت بها
وكانت كما شاءت وشاء جمالها
تألاً فى صدرِ المكارم دزة
وما برحت ترقى السنين وتعتلى
فكانت كزهر نضر الفجرِ حسنه
رمى الدهرُ أهلها بحرب ولم يُرد
ومن يحطم الكأس الروية وحدها
تقاسمتِ الحسنِ الإلهى وانثنى
فللشمس منها طلعة الحسنِ مُشرقاً
وللزهر منها نفحةُ الحسنِ عاطراً
وللظبي منها مقلتها وجيدها
وما قيمة الحسناءِ يَبْقُحُ حظها

وطالت على الغبراء أيامها العُبرُ
على الكوكب الهاوى حواه فضاقت
كما اشتهدت العلياً كما وصف الشعر
يُحيط بها من عقد أنسابها دُرُ
وكلُّ المعالى فى طفولتها جِجْرُ
ولما علمت كالنجم أطفأها الفجرُ!
بها الشرُّ لكن الحروب هى الشر
فقد ذهب اثنان: الزجاجةُ والخمرُ
يقاسمها، فالأمر بينهما أمر
وفيهما من الشمس التوقد والجمر
وفيهما ذبولٌ مثلما ذبل الزهر
وفيهما من الظبي التلقت والدُّعْرُ
وتدوى بروض الحب أيامها الخضر



من الحسن معنى يهلك السن عنده
فما السنُّ فخر للجسانِ وإنما
ضعيفة أنفاس المئى بعد ما غدت
وبين حُطى أيامها كل عثرة
وزجت بها الأحزان فى بحر دمعتها
يقاذفها موج الليالى وما لها
وما التمسست رأس الرجاء عند صخرة
إذا استنبأوها أرسلت من دموعها
وإن سألوها لجلجث فكأنما
مُشردةً حيرى تنازع نفسها
وما قتلَ الذلُّ امرأ من عبيده
ولو أنصف الإنسان فى قدر نفسه
فلا تتساءل كيف تقعد وادعا
وكن رجلا كالضرس يرسو مكانه
ولا تتوقع أى جنببك واقع
ولكن تلقُ الدهرَ غير مُفرِّع
فعرَّ الحسام الهُدوانى صدره
ولن يهين الحرَّ انتضى عزماته

كما أهلك الأزهارَ أن يؤخذَ العطر
لخالقه فيما يريد به سر
رقابُ أمانيتها يغللها الفقرُ
يزلزلُ أقدام الحياة بها العسر
وليس لبحر الدمع فى أرضنا برُّ
سوى زورق واه يقال له العمر
فكان سوى رأس الردى ذلك الصخر
لآلىء حزن كل لؤلؤة فكر
عرا اللفظ لما مر من فمها سُكر
فريقانِ ذلُّ لم تعوده؛ والكبر
وكم من فتى يرمى بهامته الفخر
رأى قدرها أن لا يهونَ لها قدر
ولكن تتساءل كيف يسعى بك الذكر
ليطحن، لا بعينه حلو ولا مر
إذا انطبقت يوماً حوادثها النكر
بصدرك ولتعر الخطوب كما تعر
وذُلُّ العصا إن العصا كلها ظهر
وصال بها من صبره الخلق الحرُّ

كتاب المساكين

فما عرفت حرب بها غلب الصبر!
 ولا انحط من وكر الصباح له نسر
 تطاير فيما بينها النظرُ الشَّرُّرُ
 تطير لها من بَرَقِه الشُّقْلُ الحُمُرُ
 خفوق فؤادٍ بات يُسمِلُه الصَّدْرُ
 يُرَجُّ لها في كل ناحية قَبْرُ
 لقام على وادى الجحيم بها جسر
 على الناس، هاتيك الحزينة والبدر^(١)
 تَنَزُّ كما أرت على نارها القدْرُ
 فليس على من حلَّ ساحتها أُجْرُ...
 وفي سقفها ضاءت كواكب الزهر
 وأطمارها تبدو كما «شُطِبَ»^(٢) السطر
 فتلك وراء العالمين هي الصَّفْرُ
 على الأرض حُلُقًا ليس في جنبه غدر
 ويهرب دُعرًا من جنايتها الغدر

وإن تغلب الأبطال في كل حومة
 وليلة هم ما يطير غرابها
 تُطل عليها الشُّهْبُ أعينَ نِقْمَة
 ويزفرُ فيها الليلُ زفرةً مارد
 ويخفقُ في أحنائها كلُّ عاصف
 ويغضب من آثامها الموت غَضْبَة
 دُخانيَّة هوجاء لو مد نفعها
 وأهونُ ما في أرضها وسمائها
 ثوثٌ تحتها تلك الفتاة عليلة
 وفي غرفة مما بنى الله لا الوري
 جوانبها شرق الظلام وغربه
 ممددة كالسطر في صفحة المني
 فإن يك أهل الأرض أرقامَ حاسب
 رمث عينها يُمنى ويُسرى فلم تجد
 رأث كلَّ مخزاة من الشر تلتوى

(١) حتى البدر لا بهجة له إلا في ليالي الصفاء، وفي غيرها يتصعلك في سمائه.

(٢) هذه الكلمة مما استعمله المولدون، وفصيحتها الترميج، وهو أفساد الأسطر بعد كتابتها، وفي

معناها لفاظ أخرى.



رَأَتْ أَثْرًا تَدْنَى بِهِ الْأَرْضُ وَالسَّمَاءُ
رَأَتْ ذَلِكَ الْإِنْسَانَ يَطْفَى بِعَلْمِهِ
أَلَيْسَ يَرَى الْإِنْسَانَ فِي الْقَرْدِ شَبِيهَهُ
كَمَا عَاقَبَ اللَّهُ الْأَسْوَدَ لِكِبْرِيهَا
رَأَتْ هَذِهِ الْحُرُوبَ الصَّرُوسَ كَأَنَّهَا
وَمَا حَمِدَ الشَّيْطَانَ لِلنَّاسِ مِثْلَهَا
وَمَا الْحَرْبَ إِلَّا رَجْفَةَ الْأَرْضِ رَجْفَةً
وَمَا الْحَرْبَ إِلَّا مَطْرَةَ دَمْوِيَّةٍ
وَمَا الْحَرْبَ إِلَّا غَضَبَةَ اللَّهِ لَا مَسْتِ
فِيَارِبَ، جَلَّتْ هَذِهِ الْحَرْبُ مَجْنُونَةً
فَفِي كُلِّ نَفْسٍ عَضَّةٌ مَا تُسَيِّئُهَا
وَبَيْنَ شَفَاهِ النَّاسِ لِلنَّاسِ لَعْنَةٌ
وَمَا لَوْتِ الْأَسْيَافِ فِي الْأَرْضِ عُرْوَةٌ
فَلَا تَخْدَعُوا الْإِنْسَانَ عَنِ نَزْعَاتِهِ
وَكَمْ قِيلَ "إِنْسَانِيَّةٌ وَمَحَبَّةٌ
فِيَا قَدْرًا يَجْرِي دِمَاءٌ وَيَلْتَطِي
وَيَا هَذِهِ لَا تَجْحَدِي، إِنَّمَا الْوَرَى
وَأَيُّنَ مِنَ النَّاسِ الْكَمَالُ وَلَمْ نَزَلْ

وليس سوى الإنسان في جرحه ظفر
ويجهل أن العلم عن جهله رَجْرَجُ
فهل ذاك إلا من تكبره شخر
فجاء لنا في صورة الأسد الهَرُ
مراجل يطويها من الزمن الحشر
ولا كان للشيطان في مثلها شكر
يموت بها عصرٌ ليحيا بها عصر
إذا دَنَسَتْ رُوحَ الْوَرَى فِيهِ الطَّهْرُ
مخازي الدهرِ فانفجر الدهرُ
على الناس، لا الإيمان منها ولا الكفر
وفي كل قلب كسرة ما لها جبر
إذا لم يُثْزِها الحَقُّ تار بها الخسر
من البغض إلا والردءوس لها زُر
فما الناس إلا ما أساءوا وما سرُّوا
وعلم وتمدين" وأشباهها الكثر
سعيرا، أذاك الحب أنت أم الهجر
كما خُلِقُوا والمكر بعد هو المكر
نرى السود سودًا ليس يغسلهم بحر

كتاب المساكين

ولا بدّ من ضديّن كلّ حالة
بذلك يجرّ الغيب إن طار أو هوى
فلا تطمعى أن تُغفل الأرض أهلها
ولا تطمعى أن "يرفع" المال أنفسا
ولا تاملى الأيام حُضرا على المدى
ولا تسألى الزلزال ترفيض طفلة
ألا إنما الدنيا سلاليم يرتقى
ندّروا غلاها للكمال، وعندهم
فما برحوا يرقون كل بعيدة
فما علوا واستحمقوا وتتابعوا
... تهاووا على أعناقهم وتحطمت
كذاك سلاليم الحياة، فكلنا
وبينهما إما النجاة أو الأسر
فإن جناحيه المنافع والضرّ
ولا مدّ فوق الأرض إلا له جزر
يُحركها من ذلّ مطمئعا "الجزر"
ففى كل حين يسقط الورق النضر
وأصغر ما فى كفه الجبل الوعر
بها الناس تغريم أو اخرها الغرّ
من العلم أسباب يُقر لها السحر
ولم يعلموا أين الكمال ولم يدروا
وغرهم بالله ذلك فاغتروا
بهم درجات كان من فوقها النصر
طموح لأعلاها وفى الوسط الكسر





الجمال والحب^(١)

وكانما أنظرُ الآن في قلب رجل لا في وجهه، إذ تهلَّل على السحاب
وجه "الشيخ على" شيخ المساكين.

أراه كما كنتُ أعرفه، ضاحكا غيرَ الضحك الذي يلبسُ وجوه الناس،
فلا يضحك لشيء إنساني، بل ما هو إلا أن تراه قد تهلل فرفع وجهه إلى
السماء وأرسل من فمه مثل نورِ التنسيب في إشراق جميل؛ حتى لقد
كان يخيلُ حين أبصره على تلك الهيئة أنه لا يضحك ولكنه قلبه يرتعش
بعضلات وجهه.

لو أراد الله بالناس خيرا لوضع في أبصارهم أشعة تنبث في أطواء
القلوب فتعرفُ ألوان العواطف وتميزها لونا من لون، ولكنه جعل الوجه
غطاء على معاني القلب ثم سلط الفكر على معاني الوجه ومعارفه بصور
فيها ما شاء مما له أصل في الحس وما لا أصل حتى لتختبئ الإنسان
عن الإنسان وهو مكشوف لعينييه... وإذا كان الله سبحانه قد أوجد الخير
والشر صريحين فقد أوجد الإنسان ثالثاً لهما وهو تلبيس أحدهما بالآخر؛
وأراد الخالق ذلك ويسره للإنسان فجعل فيه آلة واحدة للصدق وهي
القلبُ وآلتين للكذب وجهه ولسانه.

كان "الشيخ على" يُشبه إنسانية قائمة بغير إنسانها على حين ترى
أكثر الناس كأنه إنسان قائم بغير إنسانيته^(٢) وكانت الدنيا كأنما نسيت

(١) هذا هو الفصل الذي أشرنا إليه في تعليق صفحة ٣٩ نقله عن كتابنا السحاب الأحمر وقد وضع
هناك المساكين، الحب، وهو رأى من آراء كثيرة استوفيناها في ذلك الكتاب صنوه الرسائل.

(٢) أكثر من ترى الناس لهم حظوظ الإنسان ولا إنسانية فيهم والشيخ على لم يكن له من حظ
الإنسان إلا الجرعة واللحمة وغمضة العين.

كتاب المساكين

أنه فيها فتركت له روحه صافية منطلقه تتطعم الحياة غير مستقرّة في شيء كما يتطعم النسيم رائحته من ورق الزهر فهو يتسحب عليه ولا يستقرّ فيه ولو أنه ورقُ الزهر.

وما زالت روحُ هذا الرجل منى منذُ عرفته كأنها نضاحةٍ عطر^(١) نَمُجٌ وشاشها على حياتي روحًا وعبيرًا وندى، وكأن الرجل طفل عزيز من أطفال قلبي يملأ ما حوله ابتسامًا وطفولة ورقّة؛ ولو أن أحدًا خلّق من عيني الطفل الضاحكتين لكان هو - الشيخ على - رحمه الله، على أنه كان رجلًا من شؤبيه القوة معصوبًا متكدسًا^(٢) يملأ جلدّه كأنه جِذْل من أجدال الشجر^(٣).

وانقبضت نفسى انقباضةً شديدة إذ تغيّر الرجل في خيالي^(٤)، فنظر إلى نظرةٍ ينقدح منها شرر الغيظ، فلو أبصرت عيناك طائر ضعيفاً أراغه نسر فاستطرده في نواحي الجو وهكذا وهكذا^(٥)، ثم أهوى له بمخالبه، ثم سدّد إليه نظرةً عززت هذه المخالب وانفجرت بالأم لحمه ودمه؛ فاعلم أن تلك كنظرة "الشيخ" إلى.

ولقد تبعثرت لها شياطينُ نفسى فانطلقت يُحاول كل شيطان منها مَهْرَبًا، وكانت نوسوس في صدرى أن استهد من روح "الشيخ" قوله في الحب، هذا الحب الذي مهما اعتبرته لم تجده إلى كإحياء الخيالات بقتل حقائقها؛ ثم ما ليث أن استضحك وأطلق لى نفسى وجاشت عيناه

(١) رشاشة العطر وهى ترجمة وضعتها لكلمة (Vaporisateur)، ويسمىها العامة "بخيخة العطر".

(٢) المتكدس: الممتلىء عضلا. والمعصوب: الشديد طى الجسم بعضه على بعض، ومن سوسه: أى من أصله وطبيعته أو كما يقول العامة "من عوده".

(٣) ما عظم من أصولها.

(٤) أى حين ظهر على السحاب الأحمر. وكنا نستوحى ذلك الكتاب من أرواح نتخيلها فى شعاع أحمر كما وصفناه فى أوّله.

(٥) أى هنا وهناك فرازا من الضعيف وطرادًا من القوى.



بنظراتهما الحكيمة، فقلت: ويحك يانفس! إن عينَ "الشيخ" ترى من الجمال غير ما نرى، ثم تعلم علمها مما نظرت فيه، ثم تُقدِّره على حساب ما تعلم منه؛ فما يُدريك لعل هذا الرجل الروحاني لا يرى إلا ما وراء تلك البشرة الجميلة التي تكسو وجوه النساء الجميلات، كما نبصر نحن من وجوه الموتى وقد تآكل جلدُها وتناثر لحمُها وبرزت عظامًا كسائر العظم من كل حيوان؛ فلا موضع قبلة ولا سحر نظرة ولا إشراق بَسْمَة، وما هو إلا تركيب من العظم صنَّع هذه الصنعة تيسيرًا لما خُلِقَ اللهُ؛ ولعله يا نفس لو حشرَ اللهُ لعينيك أجملَ الجميلات في صعيد واحدٍ وحشرَ معهن إناثَ البهائم صنَّفًا، ثم نزع من تلك الوجوه كلها ذلك الطراز من الجلد وما وراءه من اللحم مُزعة بعد مزعة^(١) حتى لا يبقى إلا الوضع في بناءِ العظام وهندستها؛ فما يُدريك لعل أجمل الجمال عندنا هنا لا يكون حينئذٍ إلا أقبح القبح هناك!

أفمن جلدة على وجه امرأة يجيءُ الشعْرُ والجنونُ معا ويجتمعان في هذا الخيال الذي يسمى الحبِّ ويستنزِلان معاني التقديس من أعلى السمواتِ إلى عين تلحظ لحظة، وشفة تبسمُ بَسْمَة؟^(٢)

إنه القلم الإلهيُّ المبدع الحكيم هو الذي صورَ ولونَ وافتنَّ ما شاء؛ فإن رُزقت امرأة جلدة جميلة مُشرقة كأنما تجرى فيها الشمسُ، وألبست أخرى جلدة قبيحة سفعاء^(٣) تجول فيها رهبةُ الظلمة، فكلتاها صورة

(١) هي القطعة من اللحم.

(٢) لرسائل الأحران والنسحاب الأحمر في فلسفة الجمال والحب: كتاب ثالث منهم لهما واسمه "أوراق الورد- رسائلها ورسائله" - وستستوفي به ما بقي مما لم نثبته في الكتابين، وفي هذا الكتاب رسالة مفردة "وأنه أسلوب من أساليب الطبيعة لخداع صورة بشرية بصورة بشرية مثلهما،

(٣) السفح: سواد مشرب بحمرة، والمراد هنا فساد لون الوجه وقبحه وبشاعته

من صنع الله، وكلتاها تظهر لونًا من ألوان الحكمة، وكلتاها جاءت لمعنى، وكلتاها بعد غشاء زائل على وضع ثابت لا يختلف في هذه ولا في تلك، وضع الحقيقة الجسمية التي تحمل الحياة بأدواتها الكثيرة. والحياة لا تعرف البشرة إلا غطاءً على ما وراءها أسود وأبيض، وكان من لون المرمر أو من هيئة الطين.

ولو أن كل وجه في نساء الدنيا خلق دَمِيمًا نافرًا على أشبع ما نتصوره من القبح لكان كلُّ الدنيا جميلات إذ يألف الطبع الإنسانى تلك الصورة الواحدة ويتقرَّر بها الذوق في الجمال وتستمر بها العادة فلا يستبين وجه من وجهٍ آخر في صفة ولا يخالف مذهب مذهباً في حالة.

ولكن هذا الإنسان كُنِب عليه الشقاء؛ فخلق وحُلِق معه ما يطغيه وما يستفرِّه وما يُخرِّجه عن طوقه، كما خلق له ما يرَّهده وما تطمئن به وما يحصره في إنسانيته فالجميلات والقبائح كلهن سواء في أنهن نساء هذه الإنسانية لا تُقصر في ذلك واحدة عن واحدة وإنما يتفاوتن في أسباب الشقاء الإنسانى الذى يبئلى الرجل بالمرأة ويمتحن المرأة بالرجل. ولو سما عقلُ الرجل إلى الغاية العليا من كماله لرأى المرأة الجميلة الفاتنة في نصف جمال المرأة القبيحة، وليانت الواحدة عنده من الأخرى بأن الدميمة مُهيأة في نفسها لمعالى الإخلاق والجميلة مهياًة لسفسافها^(١)؛ ولرأى مع هذه من بعض طباعها ونزغاتها شراً مما تقدم بها من جمال وجهها، ومع تلك من أكثر طباعها وصفاتها خيراً مما قصر بها من حسن صورتها.

(١) السفساف: الدنىء، وأصله ما يتطاير من الفبار إذا أثير ومن الدقيق إذا نخل لأنه أهونهما ولا فائدة منه.



يبد أن من شقوة الطبع الإنساني أنه سَخِطَ القَبَحَ فأحاله فسادًا وَعَبَدَ الجمال فأحاله فسادًا من نوع آخر، إذ كان في نَفَرته وحبه لا يعتبر المنافع والحقائق ولكن الأهواء والشهوات؛ والمنفعة والحقيقة كلتاهما لا تكون إلا في قيودها، أما الأهواء والشهوات فهي دائما لا تقع إلا متخطية حدود العقل إما إلى النقص وإما إلى الزيادة ولا تُغزى بشيء إلا أوقعت به السوء إذ لا يستوى في القصد ما حرج عن الحقيقة وما هو مقيّد بالحقيقة.

كان هذا وحى "الشيخ على" في نفسى غير أنى رددته عليه وأزلنى شيطان الحب مرة فقلت: أفترى الشوهاء على ما بها مما ركع الدهر وسجد^(١)، ثم تلك المرأة التى سَمُجَ تركيبها فتحامتها العيون، ثم الأخرى التى قيمت فى بيتها تختبىء فيه من القبح^(٢) فصارت سُرًّا فى صدر الحيطان، ثم تلك تلوح فى النساء كالسطر المضروب عليه أفسده الخطأ، ثم المهزولة التى أدتبر جسمها^(٣) وتقبضت أعضائها وأصبحت جلدة تمشى وتتكلم أفترى هؤلاء أو إحداهن كتلك الغانية المتشكِّلة فى ألوان الشياب كأنما تُلبس بدنّها الجميل بدنًا معنويًا يدل على معانيه، أو الأخرى التى تظهر فى جمالها الفتان عاطلة من كل حلية ومع ذلك تُرْفُ على حسنها رُوْحُ الياقوت والألماس واللؤلؤ مما عليها من البريق والشعاع أو المطوية الممشوقة المسترسلة كأنها فى قوامها ووجهها غصنُ الجمال وزهرته، أو الحسناء اللعوبِ المَرَّاحة كأنما- اجتمعت طباعُها من نور القمر أطل فى

(١) كناية عن فقرها من الجمال وسقوطها فيه ويقال ركع للدهر وسجد إذا كان فقيرًا ساقطًا وراء ما به من النذل

(٢) هى القمعة "بوزن ملكة" وجمعها قمعات "كملكات" من تستتر لما ابتليت به من قبح الصورة.

(٣) كاد يفنيها الهزال وتسمى الممصوصة.

كتاب المساكين

لبلة من ليالى الربيع يُداعِبُ أوراق الورد النائمة! أو... أو تلك^(١) "يا شيخ على...؟"

قال "الشيخ على". فياويلك! إنى والله بك من رجل لخبير^(٢)؛ أفمن أجل واحدة؟ أما إنه لعل الذى جعلها حقاً عندك هو الذى يجعلها باطلاً عند سواك، ولعله ما حسنها فى عينك إلا أن طبعاً من الجد فيك استملح طبعاً من الهزل فيها، كما ترى معنى مكدوداً فى إنسان يستروح إلى تقيضه فى إنسان آخر.

ولعل من أمتع اللذات وأبهجها لقلب المهموم أن يتصوّر فى همه من يعرفه طروباً فرحاً، وإن كان كلا الرجلين لا يسكن لعشرة الآخر لو تعاشرا واختلطا. وهذه القلوب لا تؤتى من مأتى هو أدق وأخفى من توهم ما فيه اللذة، فإن النفس ترجع عند ذلك بكل حقائقها إلى نوع واحد من الوهم ينصرف بها إلى تمثّل هذه اللذة التى استشرقت لها وطمعت فيها، فإذا طعمها فى الدم يهيج لها شعار^(٣) الجوع العصبى. وما هى السرقة مثلاً إلا أن يضع اللص عينه على المال أو المتاع ويتذوق طعم اليسر والفائدة فتجرح أعصابه جنون الحاجة، فلا يرعوى إلى شيء من الرأى يزرجه أو يمنعه أو يكفه، ويكون فى الحقيقة سارقاً من قبل أن يسرق؛ وكذلك يكون الفاسق متى نظر إلى المرأة واشتهاها ونبته معانيها فى معانيه، وقل مثل هذا فى كل من طار قلبه أو طار صوابه.

أله عن وهمك يا بُنى وضع الأمر على قاعدته. وسدّ نظرك إلى

(١) إشارة لى فتاة "رسائل الأحران" فانظر وصفها هناك

(٢) أى خبير بك وبما تبطل وتخفى

(٣) ما يأخذ من الجوع الشديد شبه الجنون، وحالة الأعصاب متى اهتاجت لأمر لا تكون إلا هكذا، وبخاصة إن كان هذا الأمر من الحب.



حقيقته ودعنى من حبل الباطل الذى تجر فيه شيطانٌ هواك أو يجرك هو فيه. وما نتكلم عن اثنين من الخلقة أنت وهى، ولو أن الأمر قد انحصر فيكما وفيتت بالحب فيها لكانت هى الكون كله؛ ولو فنيت هى فيك لكنت أنت ذلك الكون وهذا حرسك الله موضع النقص فى نفوس العاشقة إذ تنقطع إحدى نفسين من العالم إلى نفسها الأخرى. وهو نقص أشبه بجنون المجانين بل هو متمم له، فإنما ذهاب العقل فى المجنون المختبل هو نصف الجنون الإنسانى أما النصف الآخر فهو تجرد العقل فى العاشق المتدله.

نصف الجنون فى العاشق الذى يتجرد من الناس إلا من أحب، ونصفه فى المعتوه الذى يتجرد من الزمن إلا الحاضر إنه ليس للمجنون عند نفسه ماض ولا مستقبل إلا يأمل هذا ولا يذكر ذلك، وكل سعادة نفسه فى هذا النسيان الذى طمس عليها وتركها كأنما تعيش فى غير عمرها، بل فى كل أعمار الإنسانية بل بغير عمر؛ وكذلك ليس العاشق مع الحبيب شخص آخر ممن مضى وممن يأتى ما دام الحب قائماً، فالحبيب هو الحبيب، وكل الناس بعده أدوات: وشخص واحد هو "الألف واللام والحاء والباء، والناس جميعاً نقطة صغيرة مُلقة تحت الباء فقط.

وقال "الشيخ على" ثم يبرأ المجنون ويثوب إليه عقله فيعرف أنه كان مجنوناً، ويبغض المحب أو يسلو ويبرأ من وهمه فى تلك المرأة، فلا يرى إلا أنه كان بها مجنوناً، أفلا يكفى هذا ويحك فى الدلالة على أن الحب والجنون من أم واحدة وإن اختلف أبواهما... وأن رأى العاشق فى كل النساء كراى المجنون فى كل الناس، لا يجوز أن نأخذ بواحد منها إذا أخذنا بالآخر وأقررناه فى باب الصواب والعقل؛ إذ كلاهما حاصل من حالة متى هى تغيرت فانتقلت اعترفت صاحبها عليها بالجنون وإن

كانت إحدى الحالتين فى طبيعتها ووصفها غير الأخرى؟ ويلمه وصفاً من العاشق لو كان مع صاحبه راي^(١) ويلمه رأياً من المجنون لو كان مع صاحبه عقل!

قال "الشيخ على" سئل الحلاج^(٢) وهو مصلوب يُعانى عُصاة الموت: ما التصوف؟ فقال لسائله: أهونهُ ما ترى.. فهذا رجل يموت فى سبيل حقيقة تقتله بغموضها السماويّ العجيب؛ وعلى أنها قد دقت المسامير فى أطرافه وجمعت لموته آلام الحياة كلها، وأنبئت فى كبده من وخزات الجوع شجرة من الشوك، وأطلقت فى عروقه من لذعات العطش لهيباً من النار، وتركته على عُوده ممدوداً تتساقط نفسه كما يُنشرُ الثوبُ الذى بلى وانسحق فهو يتمزق من كل نواحيه- على هذا البلاء كله لم تتغير الحقيقة فى رأى الرجل ولا فسد موضعها فى نفسه، ولا رأى ما يكرهه الناس من الألم مكروهاً فى ذاته فيميل عنه، ولا ما يحبونه من اللذة محبوباً فيميل إليه، ولا تسحب قلبه حركة واحدة السخط على الحكمة

(١) كلمة تقال لتفخيم شأن الأمر، تشعر الذم لا يريدهونه وأصلها (وبل أمه) ولكنهم يسقطون الهمة، ومن أجل ذلك رسمت كلمة واحدة وترسم كلمتين إذا أمن الخطأ فيها

(٢) هو الحسين بن منصور الحلاج الصوفي الشهير اختلف العلماء فيه اختلافاً كثيراً ورمي بالكفر وقتل سنة ٣٠٩ للهجرة وهو فيما قرأنا عنه من أكبر رجال الحقيقة وما زال هذا التصوف كالحقيقة نفسها هى موضع المعرفة وموضع الجهل معا: ومن أبداع ما قرأناه فى ذلك أن أصحاب الشيخ عثمان القرشى من أكبر علماء مصر فى علوم الحقيقة والشريعة قالوا له يوماً: مالك لا تحدثنا بشيء من الحقائق: فسألهم كم أصحابى اليوم؟ قالوا ستمائة، فقال انتخبوا منهم مائة فانتخبوهم، فقال اختاروا من هؤلاء عشرين فاختراروهم، فقال استخلصوا من العشرين أربعة، فكان الأربعة أئمة الجماعة ابن القسطلانى وأبى الطاهر وابن الصابونى وأبى عبد الله القرطبي. قالوا فلما انتهى الامر على ذلك قال الشيخ رحمه الله: لو تكلمت بكلمة من الحقائق على رءوس الأشهاد لكان أول من يفتى بقتلى هؤلاء الأربعة قلنا: فتأمل هذا البحر فما أبعدهُ غورا، وتوفى القرشى سنة ٥٦٤.



الإلهية فانتقصها برأي أو اغتمز فيها بكلمة؛ بل نظر نظرة الحكيم من وراء الحد الإنساني المنتهى فيه، إلى ما يبدأ عنده الحدُّ الألهيُّ الذي لا ينتهي، ورجع آخره إلى أوله فكأنما مما يقول بلسان حكمته فيما نزل به: اللهم إنك بدأتني طفلاً غزاً جعله فقدان العقل لا يملك مع أحد إلا صياحه فخذني إليك طفلاً عاقلاً جعله العقل لا يملك مع أحد ولا صياحه.

واذكر الطفل يا بني فربُّ مُعضلة من أمور هذه الدنيا يحار الناس في آخرها وهي محلولة من أولها، وما هؤلاء الأطفال إلا الأسانذة الذين يعلموننا وهم يتعلمون منا، غير أننا لا نأخذ عنهم فلا نصالح، ويأخذون عنا فيفسدون. أفرأيت ولدَ الشوهاء تعرف عيناه في كل ما طلعت عليه الشمس أجمل من وجه أمه، أو يرى طائلاً في وجه سواها؛ أو يحن إلى غير طلعتها أو يسكن إلى صدرٍ غير صدرها، حتى كأن الله لم يخلق وجه حبيب لقبالات محبه إلا وجهها هي لقبالاته؟

إنه في ذلك ينظر من ناحيتين: الأولى ناحية صفاته هو فإن القلب إذا لم يكن بهيميًّا منعكسا أشرق صفاؤه فيما حوله فلا يرى إلا خيراً، ولبست المرئي صفةً الرائي فلا ينظر إلا جمالاً، واتصل الشعور الطيب الرقيق الجميل بين نظر النفس وبين ذات النفس كما يصل الشعاعُ الذي يلقي على حائط من المصباح- بين هذا الحائط وبين المصباح فيغشيه النور وإن كان الحائط نفسه من الطين.

فإذا كان القلب بهيميًّا زائغاً عن الإنسانية إلى حيوانيته، استفاضت ظلمته وشهوائه على ما حوله فلن يشهد من صفات الجمال شيئاً بل يرى في كل شيء من صفات نفسه هو، حتى ليكون الوجود كله في عين بعض الناس كما يكون الطعامُ كله في فم بعض المرضى. ومثل هذا يعشق أجمل النساء فلا يرى فيها جمالاً ألبتة وإن هو خدع نفسه

كتاب المساكين

فى ذلك واختدع الناس، وإنما يرى فيها شهوات، شهوات جميلة ليس غير.

أما القلب البهيمى غير المنعكس وهو ذاك الذى تحمله البهائم، فلا يحتفل فيه عقل ولا يحتشد فيه خيال، وما هو إلا أن ينصب الحيوان به على مخص المنفعة، لأنه عامل فى الطبيعة يُعدُّ من عمالها لا من شعرائها... فليس عنده جمال يقع فى ظاهر الروح وآخر يقع فى باطنها وثالث متوهم لا يقع ولا يمتنع أن يقع^(١)؛ وليس يعرف من معنى القبح إلا أن تكون الأنثى قد طاش بها المرص فما تستقل إعياءً وضعفًا. وبذلك سلمت إناث البهائم من شرك كثير بملأ لغة الحياة النسائية بمعانيه وتجمعه كلمتان: الجمال والقبح.

والناحية الأخرى التى ينظر منها الطفل لأمه الدميمة الشوهاء ناحية الصفات الإلهية، فإن الحب الصحيح الذى يمكن أن يُسمى حبا لا يكون فيما ترى من لون وشكل وتركيب وتناسق وغيرها مما يُظهر البشرية على أتمها وأحسنها فى الشخص المحبوب كما يظن الناس خطأ؛ بل هو فى عكس ذلك أى فيما يُخفى البشرية بمحاسنها وعيوبها جميعا ويُظهر فى أمكنتها خصائص الروح المحبوبة وحدها فمن ثم يبدو لك شخص المحبوب على أى أشكاله وهيئاته كأنه تمثال سماوى وُضع لروحك خاصة فهو مجبول من مادة واحدة هى مادة الفتنة، ولو كان فى أعين الناس كافة تمثال الأرض السفلى بصور كل ما تشنت فيها من القبح...

(١) رأينا هذه الكلمة مروية للمأمون وهى: إن الجمال إذا وقع فى ظاهر الروح كان صباحة، وإذا وقع فى باطنها كان فصاحة، فزدنا عليها ما هو فوقهما مما لا يعرف إلا بالتخيل ولا حقيقة له فى الواقع.



فإذا لم تظهر لك خصائص روح المرأة ظهورًا يستفيض على وجهها وجسمها ويجعل كلَّ شيء فيها ذا معنى منه وكلُّ معنى منه ذا معنى فيك، فما أنت من حبها في شيء ولو ذهبت من جمالها بعقول الناس ولا هي عندك من الجمال في شيء ولو كانت في النساء كليلة البدر في الليالي ومن أجل ذلك لا يخلو الحبُّ من بعض معاني الوحي ولا تخلو الحبيبةُ من بعض المادة الملائكية^(١) في النفس التي تعشقها؟ ولا مَلَكُ الوحي إلا قوة المزج السماويِّ في نفوس الأنبياء، وهل رُوحُ الحبيبة إلا على قدر من مثل هذه القوة في نفس محبها؟ ولعل هذا يفسر لك سرًّا من أسرار الاحتراق في بعض الأرواح العاشقة التي تيمها الحبُّ فإن تلك القوة المزجية متى أفرطت على نفس رقيقة حساسة أذابتها واشتعلت فيها فأكلتها أكلَ النار للهشيم وتركتها تحترقُ أسرع ما تحترق لتنطفئ أسرع ما تنطفئ.

قال "الشيخ على" تلك هي الحقيقة يا بني فلن يأتي لكائن من كان أن يقسم النساء إلى جميلات وقبيحات إلا إذا طوى في ذلك معنى القسمة إلى شهوات جميلة وشهوات قبيحة؛ ومتى انتهينا إلى هذا فقد خرجنا إلى المخاطبة بلغة لا هي من لغة البهائم ولا هي من لغة الإنسانية.

أفرايت قطُّ ألفاظَ الجمال والقبح تشيع في أمة من الأمم وتعلو بالأعين عن النساء وتنزل وتمتد^(٢) بها وتنقبض إلا أن تكون أمة ضعيفة القوة قد اختلت أجسامها، أو ضعيفة الدين قد اختلت أرواحها^(٣).

(١) نسبنا إلى الجمع للخفة وفرقا بين هذه وبين النسبة إلى الملك بكسر اللام" فانها ملكية" بفتح اللام.

(٢) يقال علت العين عن كذا: أي نبت منه نفورا فلم تلتصق به، فاستعملنا منها نزلت كما ترى

(٣) شرحنا هذا الرأي في بعض فصول السحاب الأحمر

انكشف القمر ذات ليلة لرجل اسمه "من عباد الله المقربين" فإذا
البدر أسود كالخبر وإذا هو مكتوب في وسطه بالنور "أنا وحدي"؛ فالقمر
نفسه لم يمنعه كل ضياء الشمس عليه أن يسود في عين الرجل الذي
ينظر لروحه، فما الذي يمنع من ينظر لروحه وخصائصها أن تصير المرأة
القبيحة في عينه كالقمر الأزهر؟

في البدر ظهرت كلمة الألوهية "أنا وحدي"!

وفي وجه الحسناء تقرأ كلمة الألوهية "أنا وحدي".

فهل يمكن أن تقع الدميمة من الحسناء أقبح ويقع ظلام القمر من
نوره فلا تكون في وجهها هي أيضا كلمة الألوهية "أنا وحدي"؟

لم يبق في البدر مع الحكمة الغليا شيء يسمى الجمال!

ولا المرأة الحسناء يكون فيها شيء أجمل من القمر؛ فهي مثله ليس
فيها مع تلك الحكمة شيء اسمه الجمال.

أفيمكن أن يكون الحكمة نفسها في وجه القبيحة شيء اسمه القبح؟

القمر طالع مُشرق كما كان

والجميلة الحسناء لا تزال فاتنة.

والدميمة ظاهرة كما هي

لم ينقص الكون من ثلاثتها شيء.

ولكن أين عين الرجل الكامل؟

(١) هذا تهكم من الشيخ عليّ يريد به طاشة فتياتنا وفتياننا ممن يرون الدين شيئا قديما في لغة
قديمة ونفوس قديمة ومذهب قديم. فليهنهم البلاء الجديد الذي حل من أنفسهم محل الدين
فجعل الرجل بلاء على المرأة إن تزوج بها أو أهملها والمرأة بلاء على الرجل إن كانت له أو
لنفسها...



الفصل الأخير الدين ولادة ثانية^(١)

"قال صاحب المساكين:"

عرفتُ فيمن عرفت من أصناف الناس أربعة تجرى أمورهم في نفسى على غير مجاريها فى أنفسهم؛ وأرى من طبيعتهم موضع الغفلة والحمق فيما يرونه أو يحسبونه موضع الشَّداد والحكمة:

"فالأول" رجل ملحد أديب معني بجمع الكتب بكل يتعلق نفيس منها؛ وهو يزعمُ أنه تأمل الأديان فلم يجد طائلاً فى شىء وأنَّ له فى كل دين ظنَّة على ربيبة؛ ونقدًا على مسألة، وثانية على أوَّل^(٢) وأنه تبدلَ الدين بالخلق^(٣) فما خسر شيئًا وريح الحقيقة، ثم يحذو بعدُ على هذا الحذو كما يفعل الملحدون فى صفة أنفسهم وهى دائماً لا يأخذون من الكلام إلا بملء اليدين إذ من العجيب أن لا تقع لهم الكلمة الصحيحة المفردة.

هذا الذى خرج من الأديان ومن تهيها وأمرها إلى الأخلاق وعُهدتها وأديها "قال لى ذات يوم وقد حُضنا فى أمر الكتب: إنى لأمقتُ السرقة والغضب والخديعة ولا أبيع منها شيئًا ولا أمرها لأحد! غير أنى إذا وجدت كتابًا نفيسًا وعجزتُ عنه أو ضاقت به ذات يدي أمكنتنى فرصة من الغفلات لم أتورع أن أسرقه... ولو غصبتُ ولو خدعتُ.

(١) هذا الفصل من زيادات الطبعة الثانية.

(٢) كناية عن التعدد وأنه لا يكتفى بواحدة.

(٣) بمعنى التغيير لا الاستبدال.

قال هذا فلم أفهم من كلمته شيئاً إلا أن لقب "اللس" يكون من الشرف أحياناً بحيث يسمو كثيراً على الرجل الملحد...

"والثاني" رجلٌ متفلسف انقلبت عقيدته إلى زيغ فله رأيان في أمور الحياة: واحد ينزع فيه إلى طبيعته فيستمتع ما وجد متاعاً في حرام أو حلال وفي معروف أو منكر. والآخر يرجع به إلى ضميره الإنساني وما هو الأشبه بعلمه وعقله وفلسفته فيألم ويتململ إذ يرى أنه لا يزن من لذاته لا بمقادير الخير ولا بمقادير الشر وأنه يبيح لنفسه ويحرم على غيره؛ فإنما الرأي والحق والعدل أن لا ينطلق في كل إنسان تاريخه الوحشى كما يفعل هو ليقوم النظام على أصوله وتحقق الإنسانية في أهلها، ولو فعل الناس ذلك فوسعتهم الفلسفة لما وسعتهم الطبيعة بل هي تسرع حينئذ فثطلق لكل حيوان مع أكيلته التي يغتذى بها آكله الذي يغتذى به.

لم أفهم من فلسفة الرجل أنه فيلسوف، بل عرفت من علمه أن الرجل من الناس قد يكون سافلاً حتى من الجهة العالبة فيه، وقد يكون فاسداً حتى من بعض جهاته الصالحة...

"والثالث" رجل يزعم عند نفسه أنه مصلح ويتولى أمور الناس فيداورها ويلتمس لكل شيء مآتى يتسبب منه إلى إصلاح فيهم حتى إذا وثق الناس به واستكانوا إليه وصاروا في حال الغيرة وفي قياد الأمن، صدعهم في أديانهم وأخلاقهم وزكّهم بمزاعمهم وخرافاتهم وبثّ أوهاهم في مذاهب أقدارهم وتصاريق أمورهم وظن الدين كلمة تضع في موضعها كلمة غيرها وحسب اليوم من أيامه في عمل الدهر كالיום من أيام الله في خلق السموات... فهو يطرد الأزمنة ويمحو العادات ويغير الطباع ويسرّ لفروع الشجرة سنة جذورها فلا يذهب الفرع طالعاً بل يغور نازلاً، ثم يريد أن يقيم على طريق التاريخ مجازة أو قنطرة ليمشى



بالناس فوق التاريخ فيقطع بهم ألف سنة في ألف يوم، وكأنه زاد في الطبيعة ناموس نهيه وأمره...

أنا لا أقول في مثل هذا إنه مصلح؛ بل أقول يا عجباً لسخرية الأقدار من القوة، ألا يرتفع النسر في الجو لبحث أين تكون الجيفة...

"الرايع" ذاك الذي جعلته الكتب عالماً وقسمت له ما شاء ولكن الله تعالى لم يقسم له شيئاً من كرم الضريبة وشرف العرق ولا ألقى معاني الذهب في سلسلة آباءه^(١) فهو رثته^(٢) لا يجيء في معاني الناس بطباعه وأخلاقه إلا كالثوب الخلق من فتوق ورفع، ويغطي عليه العلم كما تغطي القشرة النضرة على التمرة المرة، فإذا كتبت للناس ارتطم في طباعه ونزع مأخذه وتجادب داخل نفسه وخارجها فيذهب بُنكر ويعترض ويُسفه ما عليه الناس من دين وخلق وينزو بهم في نوازيه ودواهييه، ويرد كل ما في الطبيعة من الجمال وكل ما في النفس من الحق إلى تأويل مادي بحت، كأن الزهرة الخارجة من الطين هي طين مثله. ويسقط عنده كل ما عمِل الشعاع والماء في الذرة الأزلية التي انبثقت منها النبتة فخرجت توجى عن السماء وحن النور واللون.

أنا لا أفهم أنّ مثل هذا عالم ولكنه في الناس كبعض النبات في النبات يزرق من النمو قوة يُفسد بها ما حوله، فإذا هي ظهرت فيه لم تُنبه على قيمته بأكثر مما تنبه الناس إلى وجوب اقتلاعه واستنصاه...

لا ثقة لي بمخترق لا دين له؛ فإن الخلق يصله بحظ نفسه أكثر مما يصله بواجبات الناس، ولا فيلسوف ملحد؛ لأن الفلسفة تمزجه بالمادة

(١) في الأثر: لا تعلموا أولاد السفلة العلم، وأولاد السفلة، فقط.

(٢) أي من البقايا التي لاخير فيها.

أكثر مما تمزّجه بالإنسانية، ولا بمصلح ينسلخ من الدين، لأن إصلاحه صورٌ من غروره، ولا بعالم جاحد، لأن علمه كهندسة الشّوكة كلّها من أجل آخرها... أولئك لا يدرون أنهم من هذا العالم في حدود أغراضهم الصغيرة الفانية إذا كان كل منهم يتناول الكون من حيث يحبُّ هو لا من حيث يحبُّ عليه، ثم يفسر الأشياء في جزء منها لا في مجموعها، ويعتبر الزمن عمراً كعمر الفرد وهو تاريخ لا يموت، وينظر إلى الغاية من الوجود كأنها داخلَةٌ في الحدِّ مع أنها لو حدّت لبطلت أن تكون غاية.

كل منهم صحيح في ذاته لكنه فاسدٌ بموضعه من أغراضه أو من أغراضنا وما أشبههم بالأشجار في المقابر لا تجدُ لها في المقبرة ما تجد لها في الحديقة، كأنها لما قامت في موضع الموت قامت حية ولكن ماتت روح الحديقة فيها.

لا تسمو حياة الفرد إلا إذا كان جزءًا من كلّ، ولا يجتمع الكل إلا إذا كان تامًا فيما هو كل به، السبيل أن يُدفع الفرد أبدًا إلى خارج حدوده الذاتية الصغيرة. وفكرة الكل هذه لا يصورها ولا يستوفى معانيها إلا الدين الصحيح إذ هو خروجٌ بالفرد من شهواته التي تفصله من غيره إلى واجباته التي تصله بغيره، وانتزاعٌ له من ذاتيته إلى إنسانيته ودفع بالإنسانية نفسها إلى الكلّ الذي هو أسمى. فكان الإيمان في حقيقته إن هو إلا دربة لهذا الإنسان على الدخول في اللانهاية فهو من أجل ذلك يقضى على الفرد أن يتسع ويمتد في إنسانيته لا في شخصيته فيتخلّق بالأخلاق التي تعم دون أن تخص؛ وفي صورة صغيرة من جعل المحدود في ذاته أعظم من ذاته ودفع ما ينتهى في سبيل ما لا ينتهى.

فإذا عمل الفرد على أن يُقفل حدوده عليه ويستغلق بها ويمتنع من ورائها صار كالقلعة المحصّنة لا تصلح إلا حربًا لما حولها ودفاعًا عما



فيها فلن يضع هو أمره إلا على هذا المعنى، ومن ثم فلن يكون له ممن يصادمونه إلا حكم واحد وهو تخريبه وهدمه واقتحامه فإذا كانت الحياة غيرَ باقية على فرد من الناس فمن الحمق أن تكون هذه صورة الإنسانية فيها، وإذا كان ذلك حمقاً فالحقُّ ولا جرم بعض المعانى التى يقوم الإلحاد عليها.

ليس فى الأرض إنسان لا أجداد له ثم ليس على الأرض إنسان فى نفسه بل إنسانية فقط، إنسانية متصلة مفرغة إ فراغا ليس للفرد بينهما موضع لذاته بل موضعه لاتصاله بسائرهما كمنزلة الخلية الواحدة بين الملايين من الخلايا المتلازمة فى جسم واحد قائم من جميعها صالح للوجود بصلاحتها وفسادها معاً.

أما إنها لعجيبة أن تلقى بسؤالين متناقضين لا يلتئمان ثم لا تجد ولن تجد عليهما إلا جواباً واحداً لا يختلف، سلى الحكمة، لِمَ صلح هذا؟ فالجواب ليكون شيئاً ضرورياً فى الوجود. وسهلها لِمَ فسد ذاك؟ فالجواب كذلك ليكون شيئاً ضرورياً فى الوجود. هى الحلقة المفرغة؛ لما غاب طرفاها صار كلُّ موضع فيها طرفاً وعلت كلها ونزلت كلها.

فليس إلا النوع لا الفرد، والكلُّ لا الجزء، والإنسانية لا الإنسان وإنما يقع كل شىء فى الحياة- بل فى الوجود كله- تدريجاً لتحقيق هذه الوحدة كيلا ينقسم أحد منها، فهى أبداً ذاهبة بالجسم والعقل والمعرفة والعمر من جزء إلى جزء من الأصغر إلى الصغير، ومن الكبير إلى الأكبر، ومن الأوسع إلى الأسمى، لأن تلك هى علامتها فى حركتها وتسحبها، وهى طريقة برهانها بالنهاية على أنها لا نهاية.

يبد أن خطأ الغريزة فى الإنسان يظهر فى اعتبار الفرد نفسه كلا تاماً

كتاب المساكين

وشيئاً متميزاً فلا يريد لنفسه إلا أمراً تاماً ووجوداً يتميز فيه، وبذلك يقتحم سواه ويستبيح وجوده، فيقع النزاع والعدوان. وكأنه يضيق بمقدار ما لا يستطيع أن يتسع، لأن دفعه لكل ما حوله مردود عليه بدفع مثله مما حوله، فتتبدل صورة الإنسانية في شكل دَحْل الغلط من كل جهاته، وههنا موضع الدين الصحيح فما هو إلا الناموس القائم من كل إنسان على الواقع في ذاته والواقع في غيره ليصل بين الواقعيين المختلفين بنظام مختلف متحد يكون له في النفس ما يكون لنظام المد والجزر.

وبهذا كان واجباً حتماً أن تكون العقوبة جزءاً من نعيم الدين، وأن يكون القيدُ شقاً من حرية العقيدة، وإلا بطلت في الإيمان قوتنا الجذب والدفع معا يبطلان إحداهما، لأن مداً بلا جُزر هو أفحش الفرق من ناحية وجزراً بلا مدٍّ هو أفحش الفرق من الناحية الأخرى.

تُعجبنى كلمة في الإنجيل لا أعرف أحداً أحسن تأويلها وبلغ حقيقتها قال "يجب أن تولدوا ثانية" ووضعها في هذا المقال هو تفسيرها فإن الفرد يولد من الفرد ولكنه لا يصلح على ذلك، بل يجب أن يولد في صفاته وأخلاقه من المجموع الإنساني لتقع الملائمة. ثم إنه من أبويه يخرج من الحيوانية بغرائزها ولن يفلح بها إنساناً فيجب أن يولد مرة أخرى من جنسه الاجتماعي بغرائز مكتسبة، ثم إنه يولد مهياً للإقرار بنفسه وحدها فيجب أن يولد الثانية مهياً لإنكارها وحدها.

على هذه الأرض. إما الإقرار بالنفس وإيثارها والاعتداد بها؛ ومع كل ذلك: الحيوانية والشيطان؛ وإما إنكارها والإيثار عليها والمهانةُ بها، ومع كل هذه الإنسانية والله.

لن نطاق الحياة إلا إذا تبدلت فاتخذت لها أسلوباً غير أسلوبها الآتى



من تركيب المادة. وإنما صراع الأرض كله حول إقامة هذه الأسلوب الجديد أو هدمه أو ترميمه: أسلوب كل الأخلاق والطباع الشديدة التي لا تطبيقها الحيوانية فتسميها إنسانية، وتكبرها الإنسانية فتسميها الإيمان بالأسلوب الأول تكونون بالحياة فى موضعها، وبالتالي تسْمون بالحياة عن موضعها "فيجب أن تولدوا ثانية".

كل ما يراد به أن يسد فى الإنسانية مسد الدين ويُغنى عنه فإنما هو فى رأى كطعام أهل الجحيم، لا يُطعمون فيها كما يطعمون فى "نزل" لشيع ويسمن بل طعاما كما جاء فى القرآن الكريم ﴿لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنَ جُوعٍ﴾ أى لإحداث الجوع وكلّيه واستمراره^(١).

والطبيعة نفسها تهىء الإنسان للدين بأسلوب غريب هو هذا الحب الذى يُخلَق فطرة على أنواع مختلفة متعددة لا يخلو منه أحد فلا معدّل عنه ولا محيص. وإنما هو فى مظاهره- أيّها كان- دُرْبَةٌ للنفس الإنسانية تَصعد به درجات من الفضائل، كالإخلاص، والإيثار، والاتصال الفكرى والانبعاث الروحى، والشوق الخيالى ونحوها مما هو فى الحقيقة إيجاد للحياة النفسية فى أعمالنا، وفيض بالقوة الروحية على مظاهر المادة لإحداث الملامسة بين الأرواح والأشياء، والترابط بين الجاذب

(١) انظر إعجاز هذا التركيب وكيف بدأ حين أراد وصف طعام أهل الجحيم وماهى بدار طعام بل دار عذاب، فقال لايسمن، فينخدع الحس بالكلمة فنظن أن هذا الطعام إن لم يسمن فربما ذهب بالجوع وإن لم يذهب به فربما أغنى منه ولو شيئا فقال ولا يغنى من جوع، فيصدم الحس هذه الصدمة وينعكس عليه التأثير الذى توهمه قبل ثم يشتد هذا التأثير ويبلغ مبلغه حين يتأمل الحس البليغ هذا التركيب الدقيق فلا يخرج له إلا أن طعام هؤلاء إذا كان لا يحدث نتيجة ألبتة مما هو من خصائص الأَطعمه لا فى سمن ولا شيع ولا الغناء من جوع، فما هو إلا طعام منعكس لإيجاد الجوع واستمراره، ثم وتسميته على ذلك (طعاما، مع أن لهذه الكلمة فى النفس عكس ذلك العمل يكون أشد على النفس فى العذاب وفى التنهك؛ فتأمل كيف يكون الإعجاز

والمنجذب، وكل ذلك تهيئة للدين وعمليه في النفس ليكون قائماً على أساسه في الطبيعة. فالحب دين على أسلوب خاص ضيق؛ ولذلك يشند فيه التعصب كما يقع في الدين من المؤمن به على وتيرة واحدة، إذ لا يرضى القلب في هذا ولا هذا غير رأى واحد. فكيفما قلبنا الحياة رأينا في كل جهة منها وجهًا من وجوه الإيمان وبعثنا من بواعثه وحكمة من فلسفته، فالمصلحون الذين يحاولون تجديد الأمم بصور ملونة من الغرائز تطمس على الدين، هم الذين يرجعون بهذه الأمم في عالية الأمر إلى الحيوانية، لأنه ليس في طبيعة النفس إلا شيئان: هوى هى دائما أعظم منه، وإيمان هو دائماً أعظم منها.

تم بحمد الله تعالى





المحتويات

الصفحة	الموضوع
٢	تقديم
٧	فاتحة محمد سعيد العريان
١٧	مقدمة الطبعة الأولى
٢٩	غرض الكتاب
٣٣	مقدمة الطبعة الثانية
٤١	الشيخ علي
٥٣	في وحي الروح
٦٤	الفقر والفقير
٨١	مسكينة! مسكينة!
٩٢	لؤم المال ووهم التعاسة
١١٠	وهم الحياة والسعادة
١٣٠	سحق اللؤلؤة
١٥٤	فصل خامس في السنة
١٧٤	الحظ
١٨٧	الحرب
٢٠٤	الجمال والحب
٢١٦	الفصل الأخير.. الدين ولادة ثانية